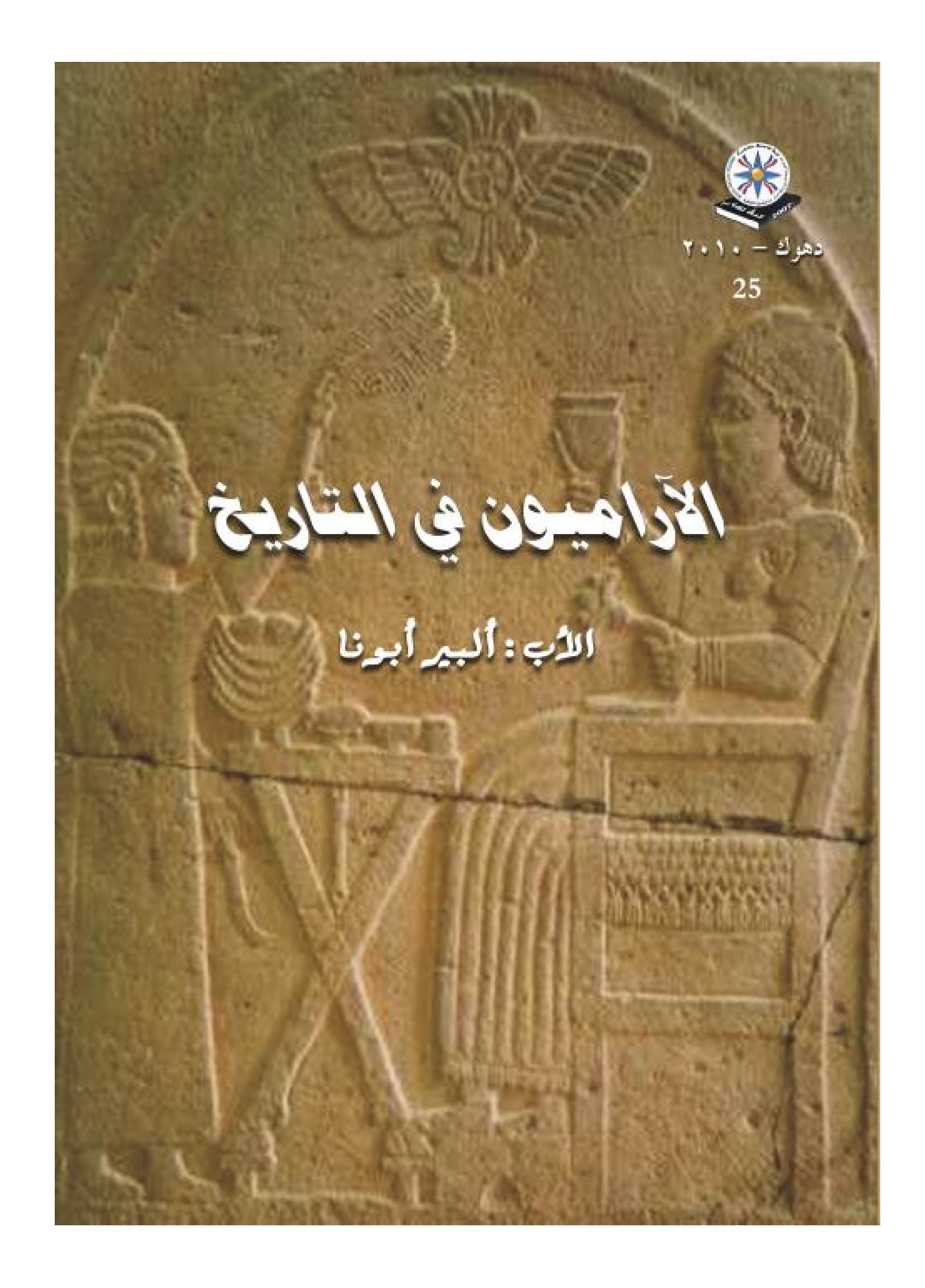

دهوك - ٢٠١٠
25
الآراميون في التاريخ
الأب: ألبير أبونا

الآراميون في التاريخ

الآراميون في التــاريخ

□

□

الأب ألـبير أبـونا

دهـوك ـ ٢٠١٠

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ ܕܡܕܢܚܐ

ܢܘܗܕܪܐ - ܒܝܬܢܗܪܝܢ

دەزگەهێ رۆژهەلات يێ رەوشەنبيرى

دهوك – كوردستانێ عيراقى



دار المشرق الثقافيـــــة

دهوك - عراق

ORIENTAL CULTURAL CENTER

DUHOK - IRAQ

صاحب الإمتياز: سركيس آغاجان

اسم الكتاب : الآراميون في التاريخ

تأليف :الأب البير أبونا

التصميم والإخراج الفني: غازي عزيز التلاني

الطبعة الأولى: ٥٠٠ نسخة

رقم الأيداع في المكتبة البدرخانية – دهوك

(٢١٣٧) لسنة ٢٠١٠

الناشر: دار المشرق الثقافية – دهوك

العنوان: كوردستان العراق- دهوك- صندوق البريد ٧٦

الموقع الالكتروني: www.simtha.com

البريد الالكتروني: bethmardoothaduhok@yahoo.com
فاكس: ٧٦٢٧٥٣٧

المقدّمـــة

لقد كُتبَ الكثير عن الآراميين وعن الدور الذي قاموا به في الشرق الأوسط على مختلف الصُعُد: السياسية والاجتماعية والحضارية...، وعن مدى انتشارهم في مختلف البلدان، ولاسيّما في أماكن عديدة من الإمبراطورية الآشورية، ثم في البلاد البابلية. وأقاموا دويلات عديدة في بلدان كثيرة، ولكنهم لم يفلحوا في تكوين إمبراطورية أو دولة قوية. وأهمُّ تجمّع لهؤلاء الأقوام تمركز في سوريا، حيث اتّخذوا الشام (دمشق) عاصمة لهم، ومنها كانوا ينطلقون إلى محاربة الدول المجاورة، ولاسيّما دولتَي إسرائيل ويهوذا العبريّتين.

ولعلّ أوفى ما كُتب عن الآراميين، في هذه السنوات الأخيرة، هو الكتاب النفيس الذي وضعه الأستاذ "ديون" (P: E: DION)"[١]. وإني أستلهم هذا الكتاب المهم في ما كتبته هنا عن الآراميين.

غير أني، إذ أسلّط الأضواءَ من جديد على هؤلاء الأقوام، أودُّ ان أطرح سؤالاً قد يكون خطيرًا في الظروف الراهنة: ألا يكون هؤلاء الناس من أجدادَنا الذين خلفوا لنا لغتهم الآرامية، هذه اللغة التي طغت على اللغة الآشورية نفسها، وتبنّاها الآشوريون أنفسهم في وثائقهم كلغة ثانية بجانب لغتهم، كما تبنّاها الفرس وغيرهم من الأقوام الذين قاموا بأدوار رئيسية في هذه المنطقة؟ وربما خلّف لنا الآرامِيّون الكثير من صفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم أيضًا، ألا تكون هذه العناصر من مكونات القومية الحقيقية؟.

---

[١]-ديون، الآراميّون في العصر الحديدي، التاريخ السياسي والبُنى الاجتماعية، باريس ١٩٩٧، ٤٧٢ صفحة من القطع الكبير، مع لوحات عديدة ملحقة بالكتاب، بالإضافة إلى خارطتين تؤشّران إلى مواضع سكنى الدويلات الآرامية.

أجل، لقد شكّل الآرامِيّون في سوريا، في عصرهم الحديدي الممتد من القرن الرابع عشر حتى القرن العاشر قبل الميلاد، أهمَّ عنصر عرقي ولغوي. وانتشروا أيضًا في طول بلاد بين النهرين وعرضها. وإذْ انهارت جميع الممالك التي أسسوها أمام قوة الإمبراطورية الآشورية في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، فإن اللغة الآرامية أصبحت لغة الدولة الرئيسية في الشرقيين الأوسط والأدنى. وإذا لم يكن إسهام هذه الأمة في تقدّم الحضارة إسهامًا كبيرًا، فإن الحيّز اللغوي والتجاري الذي شغلته قد أسهم كثيرًا في انتقال الأفكار والثروات في البلدان التي كانت، بعد قرون طويلة، ستشهد نشأة المسيحية ثم الإسلام. ومن ثمة، يتحتّم علينا الإحاطة بالحدث الآرامي، إذا أردنا أن نفهم المصير المضطرب والدور السياسي للشرق الأدنى والأوسط في قلب التاريخ الشامل. وربما تفتح هذه الدراسة أمامنا آفاقاً جديدة لمعرفة الهوية أو القومية التي نسعى في سبيل اكتشافها والانتماء إليها والالتزام بها.

كان الأستاذ "دوبونت – سومر" قد نشر كتابًا عن الآراميين[٢]. ولم تتناول البحوث التي أجراها بعضُ المؤلفين اللاحقين سوى تاريخ الآراميين السياسي. إلا أن جامعة تورنتو الكندية، بإدارة "گرايسون" (A. K. Grayson) قامت بمشروع كبير يهدف إلى دراسة الكتابات الملكية في ما بين النهرين، والجهود الجبّارة التي بذلها بعض الباحثين على نصوص تغلاثفلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق. م.)[٣] أتاحت لنا الإطّلاع على حياة

---

[٢]- في باريس سنة ١٩٤٩. وقد قام مؤلف كاتب هذا المقال بترجمته إلى العربية، ونُشرت هذه الترجمة في مجلة سومر العراقية (المجلد ١٩ لسنة ١٩٦٣، ص٩٦-١٥٤). ثم نشرت هذه الترجمة العربية في كتاب باسم "الآراميون" في بغداد ٢٠٠٤.

[٣]- أنظر هـ. تدمر (H: TADMOR) : كتابات تغلاثفلاصر الثالث ملك آشور، أورشليم ١٩٩٤.

الشعوب الآرامية منذ عهد تغلاثفلاصر الأول حتى عهد تغلاثفلاصر الثالث.
وهناك اكتشافات سلّطت أضواء جديدة على الآراميين. ففي سنة ١٩٨٨، نُشرت كتابة تتعلق بحزائيل ملك دمشق على قطعة برونزية اكتُشفت في جزيرة سامس، وهي تُظهر جليًا قوة مملكة دمشق في الثلث الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد. ووردت تقارير أخرى عن الآراميين في الاكتشافات التي جرت في المنطقة الجنوبية الغربية من العالم الآرامي، أي على الشواطئ الشرقية من بحيرة طبرية. وفي سنة ١٩٩١، نُشرت كتابات بابلية تعود إلى الربع الثاني من القرن الثــامن ق.م. اكتُشفت في عانة على الفرات الأوسط في العراق. وهذه الأنصاب والألواح أطلعتنا على أمور مهِمّة تخص علاقات آراميي السهب بالشعوب الحضرية القديمة.

إن التنقيبات التي أجراها البروفسور أ. بيران (A. BIRAN) في تل دان الإسرائيلية خلال سنتي ١٩٩٣ و١٩٩٤ أسفرت عن اكتشاف نتف من كتابة آرامية تلقي ضوءاً جديدًا على الانتصارات التي أحرزها الملك "حزائيل" في شمال فلسطين.

وهناك "ألواح بروكسل"، وهي وثائق تجارية تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، قد تُلقي، عند نشرها كاملة، بعض الأضواء على منطقة حرّان والنشاط الاقتصادي لدى سكانها الذين كان معظمهم من الآراميين.

وقد نشر هذا الكتاب في سلسلة مقالات في مجلة بين النهرين، على وتيرة مقالة في كل عدد من هذه المجلة، ابتداءً من سنة ٢٠٠٤ ولتسهيل قراءة هذه المقالات أجمعها في كتاب واحد للقراء الكرام الذين يرغبون في الإطلاع على تاريخ هؤلاء الأقوام الذين ربما تربطنا بهم صلات هي من المتانة والعمق أكثر مما نعتقده.

أرجو أن يكون الكتاب وسيلة لكثيرين لتوسيع معلوماتهم عن أناس قاموا بدور لا يستهان به في هذه المنطقة. ولنفهم الآرامية ما تزال لغتهم خير شاهد لمدى تاريخ الثقافي لاسيما في بلاد الرافدين.



خريطة الشرق الأوسط و الدويلات الآرامية


ORIENTAL CULTURAL CENTER
دار المشرق الثقافية
2007

الفصل الأول

الأصـول الآراميـة

لقد قام الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م.) في نهاية عهده، بتزيين معبد "مامو" في بلاوات - وكان إذ ذاك يُدعى "ايمكور – أنليل" بصفائح برونزية مرصَّعة حفظت لنا أقدم تمثيل للآراميين. فنرى فيها مثلاً أن العجلات الآشـورية تحمل قواسين قصارًا يدافعون عن مدينة في "بيث يخيري" (أنظر شكل ١). فلهؤلاء الرجال لحى وشعر محاط بعصابة، وهم متوشحون بوزرة يسندها حزام قوي. والنقوش البارزة الماثلة في المعبد الرئيسي في "تل حلف" (غوزانا) على نهر الخابور في سوريا الحالية تقدّم لنا أشخاصًا عديدين مشابهين لهؤلاء، وهم ممسكون بقسي، أو بأسلحة أخرى، وشفتهم العليا حليقة. ونعلم أن "تل حلف" لم تكن بعيدة جدًا عن "بيث يخيري"، ولا نقوشها أحدث من نقوش الأبواب التي زيَّنها آشور ناصربال. ويبدو أن أمير "بيث يخيري" وحاكم "بيث بخياني" الذي إليه كانت

تل حلف تعود (وكانت تسمى آنذاك غوزانا) قد أدّيا الضريبة معًا سنة ٨٨٢ ق.م. ولا بد أن هؤلاء المحاربين القدماء لم يكونوا مختلفين كثيرًا عن "أخلامو ـــ الآراميين" الذين، قبل قرنين، كان تغلاتفلاصر الأول يفتخر بأنه طاردهم ثماني وعشرين مرة إلى ما وراء نهر الفرات!

إلا أن الوثائق لا تتيح لنا أن نرى آراميين في جميع "أخلامو". وحتى مشتقات اسم "آرام"، في نصوص ترقى إلى ما قبل عهد تغلاثفلاصر الأول، لا توفّر لنا الضوءَ الكافي لكي نميّز بوضوح أصل الآراميين. ومع ذلك نلاحظ أن هناك فئات يمكن تشخيصها آرامية كانت توجد قبل القرن الثاني عشر السابق للميلاد. وكانت قبائل منها ستواصل وجودها في العصر الحديدي. ونرى أن اسم "حيرانو" قد ورد ذكرُه في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهو اسم معروف في لوائح القبائل في العصر الآشوري الحديث. وتُظهر لنا الدراسة المقارنة للغات السامية أن اللغة الآرامية، منذ الحقبة السابقة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، بدأت تتميّز عن اللغة الكنعانية، وهي الفصيلة اللغوية السامية الأخرى الرئيسة التي سوف تظهر بجلاء في الشمال الغربي من الشرق الأوسط في العصر الحديدي.

لكن كتابات تغلاثفلاصر الأول لا تزوّدنا بتفاصيل عن طريقة حياة أعدائه. فلم يترك لنا هذا الملك، ولا خلفاؤه المباشرون، كتابات تطلعنا على العجلات الحربية أو الاستحكامات العسكرية لدى الآراميين. فلا يبدو أن انتصاراتهم المتكررة على الممالك الآرامية وفرت لهم مكاسب حربية كبيرة. ومع ذلك فإن الإشارات الجغرافية الواردة في هذه النصوص مهمة جدًا. ونلاحظ أن حملاتهم تجتاح المناطق الواقعة على الفرات من بابل حتى كركميش. فإنهم يلاحقـــون الآراميين خلال السبل الوعرة في جبل بشري

حتى تدمر وما وراءها، نحو سفوح جبال لبنان. وهناك نصوص مشوَّهة وردتنا من آشور ــ بل ــ كالا (١٠٧٣-١٠٥٦ ق.م.) تربط الآراميين بشرق سوريا وبالشمال الغربي من بين النهرين. وتعيدنا هذه النصوص دومًا إلى المنطقة الواسعة حيث يرد ذكر الرعاة والقرويين العموريين منذ القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد (أور الثالثة) حتى القرن السابع عشر قبل الميلاد (مملكة خانا).

وكما كان الشأن مع هؤلاء العموريين سابقًا، كذلك مع الآراميين الذين عاشوا حقبة طويلة في ظلمة حياة قروية ذات إشعاع ضئيل، قبل أن يفرضوا أنفسَهم على الميدان السياسي في الشرق الأوسط.

وما يزال علم الآثار عاجزًا عن إطلاعنا إطلاعاً كافيًا على الظروف المادية التي عاشت فيها هذه القبائل الآرامية، حينما استوطنت أعالي سوريا ومناطق بين النهرين العليا والسفلى، في نهاية العصر البرونزي الحديث. وحيثما بلغت التنقيبات العصر الحديدي الأول، كما جرى في "أدلــب" السورية، نلاحظ الكثير من الأحداث المشتركة في ذلك الزمان، مثل استمرارية صنع السيراميك إزاء مثيله في العصر البرونزي الحديث، والعدد الكبير من المخازن العائلية. ولكنه يصعب التمييز بين السمات العرقية الايجابية التي تميّز الثقافة الآرامية عن كل ثقافة ساميّة أخرى جديدة في العصر الحديدي

إنتشار الآراميين

لقد إنتشر الآرامِيّون انتشارًا واسعًا وسريعًا منذ بدايات العصر الحديدي (القرن الرابع عشر ق.م). وفي المنعطف بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، لم يُفلح تغلاتفلاصر الأول (١١١٦ ــ ١٠٩٠ ق.م) وآشور ــ بل ــ كالا الأول (١٠٨٧ ــ ١٠٧٠ ق.م.) في إيقاف أو تقليص هذا التوسّع. وخلال القرن التالي، تقلّصت الممتلكات أو المستعمرات الآشورية في سوريا وأصبحت مثل جزر تتفاوت في مساحتها. ولم يبقَ للإمبراطورية الآشورية سوى سلطة إسمية عليها. وبعد عهد نبوخذنصر الأول، انتشر الآرامِيّون في البلاد البابلية انتشاراً واسعاً. وبحسب كتابة ترقى إلى عهد "سمبار ــ شيحو" (١٠٢٥ ــ ١٠٠٨ ق.م.)، قامت فئات من الآراميين الرحّل، بالاتفاق مع غيرها من الفئات المنتشرة في البلاد، بنهب مدينة سيبار وباجتياح بعض البلدان الجنوبية السومرية والأكدية. وبينما سارت بعض القبائل الآرامية بمحاذاة الجهة الشرقية من الهلال الخصيب، توسعت قبائل أخرى في المنطقة الغربية ودخلت إلى جوار مملكة إسرائيل، في المنطقة الجنوبية من سوريا (لُعُش، حماة، صوبا، ...الخ).

وكانت عناصر آرامية أخرى، متفاوتة في الأهمية، قد تغلغلت في جنوبي جبال طوروس وفي الغرب من جبال زگروس، مع مختلف الأعراق الأخرى. وكانت هذه العناصر الآرامية تسيطر أحياناً على قطاعات عديدة، وأحيانًا أخرى تمتزج في الشعوب الموجودة معها، بدون أن تشكّل عنصرًا مهيمناً. ولقد وردت إشارات إلى حضور هذا العنصر:

١. بالأسماء الآرامية للأشخاص وللكيانات السياسية التي كانت تُشاهَد في الكتابات الملكية الآشورية منذ نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، وفي الألواح ذات المحتوى الاقتصادي ابتداءً من القرن السابع قبل الميلاد.

٢. بالكتابات الآرامية التي تبدأ بالظهور منذ النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد.

ولكن قليلة هي الدويلات الآرامية التي يمكننا أن نتتبّع مسارها طوال أجيال عديدة. وبعض هذه الدويلات، ولاسيّما الساكنة غربي نهر الفرات، أدّت دورًا مُهِمًا على الصعيد السياسي. أما القبائل أو الإمارات الشرقية، ومنهم الآرامِيّون الساكنون في أعالي بين النهرين، فلم تشترك اشتراكاً فعّالاً في التطوّرات الطارئة في الدويلات الأخرى. ومن الصعب، في معظم الأحوال، أن نرسم لها دراسة ألسُنية متعاقبة عِبْر الأجيال. أما المعطيات المهِمّة التي تزوّدنا بها الكتابات المسمارية والدراسات الآثارية عن حياتهم الاقتصادية وعن ديانتهم، فإنها ستُمدّنا بمعلومات نفيسة عنهم.

آراميّو المنطقة الشرقية

لا نعرف بالتأكيد موطن الآراميين الأصلي. فقد انقسمت الآراء حول هذا الموضوع وتشعّبت.

فهناك من يقول إنهم من الموجة الساميّة التي انطلقت من جنوب بلاد بين النهرين باتجاه الفرات الأعلى. وهناك من يقول إنهم من الجماعات النازحة عن المناطق الشمالية، عِبْر الحدود الغربية من الصحراء السورية،

باتجاه البلاد المصرية والبلاد الكنعانية والبقاع الواقعة على ضفتي نهر الفرات.

وهناك من يقول أيضًا إنهم من الأقوام التي نزحت عن شبه الجزيرة العربية، ضمن إحدى الموجات التي تدفّقت منها نحو البلدان الشرقية أو الشمالية... ولقد وردت إشارات إلى هؤلاء الأقوام الرحّل في مصر منذ السلالة الأولى (نحو سنة ٣١٠٠ ق.م.) باسم "ستيــو"[١].

ومهما اختلفت الآراء حول أصل الآراميين، فإنهم سرعان ما انتشروا، كما قلنا سابقاً، في مختلف بلدان الشرق الأوسط، وسببوا للعديد منها الكثير من الصعوبات والمشاكل. ولا نستطيع أيضًا أن نحدّد تحديدًا دقيقًا متى وكيف أفلح الآرامِيّون في التغلغل بأعداد كبيرة في المناطق الواقعة شرقي نهر دجلة، بين بابل وعيلام، وفي السكنى بنوع خاص بالقرب من نهر "أوقنو" (وهو نهر كرخا الحالي في إيران). إنما نعلم أنه منذ سنة ٨١٤ ق.م.، في معركة "دور ــ بابسوكال"، حيث حاول ملك بابل "مردوخ ــ بلاطسو ــ ايقبي" أن يحبط تجاوزات شمشي ــ أدد الخامس (٨٢٤ ــ ٨١٠ ق.م.)، قدّم له الآرامِيّون مساعدة عسكرية لا يُستهان بها، على اثر الكلدانيين والعيلاميين وكاشيي نمري. ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد، كان الآرامِيّون يشكّلون جزءًا مهمًا من سكان بين النهرين الجنوبية، مع بقايا السومريين والأكديين والكلدانيين الذين كانوا أكثر شبهًا بهم[٢].

---

[١]- راجع أدب اللغة الآرامية للمؤلف، ط٢، بيروت ١٩٩٦ ص١٠ــ١١.

[٢] ـ هناك من يقول إن الكلدانيين فرع من الآراميين. ويُعتَبَر "مردوخ بلادان الثاني" الملكَ الآرامي الأول على بابــل. ولكن تجدر الإشارة إلى أن النصوص المسمارية تميّز عادة بين هاتين الفئتين.

غير أننا، حتى القرن السابع قبل الميلاد، لا نتعرّف إلى آراميي بابل هؤلاء، إلا من خلال نصوص مسمارية. فان تغلاتفلاصر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق.م)، في مطلع أطول كتاباته التذكارية، يثبت لائحة نحو خمس وثلاثين قبيلة تعيش على ضفاف نهرَي دجلة والفرات. وهو يفتخر بأنه أفلحَ في محاربتهم منذ مطلع عهده حتى السنة السابعة عشرة من ملكه، أي إلى نحو سنة ٧٢٨ ق.م. ويعود الملك إلى هذا الموضوع نفسه بعد سطور قليلة، لكي يخصّ بالذكر "الفقوديين" الذين لم يظهروا على هذه اللائحة. أما سرجون الثاني (٧٢٢ ــ ٧٠٥ ق.م) وسنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م.) اللذان كانا في خلاف مع الآراميين في نضالهم ضد قادة بابل الكلدانيين، فكلاهما قد تركا لنا لوائح مماثلة، وإن كانت غير كاملة.

ويخيّل لنا أن القبائل الآرامية الكثيرة كانت على وشك تشكيل دول حقيقية، شأن الكلدانيين، ولكننا، والحق يُقال، نتيه إذا ما حاولنا رسم تاريخ الآراميين وتطوّر دويلاتهم. لكن هذا التحفّظ يجب ألا يعرّضنا لأوهام، إن لم نقل لأخطاء بحق هؤلاء الأقوام الذين كان ثقلهم السكاني، وحتى تأثيرهم الاقتصادي في البلاد البابلية، مهمًا جدًا. وقد استمرَّ دورُهم هذا حتى بعد انحلال الدول الكبرى: الآشورية والبابلية، في غروب القرن السابع، وخلال القرن السادس قبل الميلاد. ومن يدري، لعلّ الآشوريين والبابليين الذين اختفوا عن المسرح السياسي، قد ذابوا بين الشعوب الجديدة التي استولت على بلاد بين النهرين، أو لعلّهم واصلوا استمرارهم عن طريق الشعوب الآرامية، متبنّين عادات هذه الشعوب ولغتهم عِبْرَ الأجيال!

وكان في المجتمع الآرامي دومًا فئات متمرّدة تأبى الرضوخ للضغوط الإمبراطورية. واستمرّ بعض هذه الفئات حتى النهاية في عصيانه

على الإمبراطورية الآشورية. ففي عهد آشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٢٦ ق.م)، كانت قبائل "كمبولو" ما تزال متحالفة مع العيلاميين. وقد وردت كتابات تصف العذابات الرهيبة التي أنزلها هذا الملك بزعيمهم "دونانو" وبأصحابه، على أثر الانتصار الذي أحرزه الآشوريون على "تيومّان". وشأن أعراق أخرى متمرّدة (مثل الإيزوريين والايطوريين في العهود الإغريقية ــ الرومانية)، وجد آراميّو بابل أن السلطات العظمى الحاكمة كانت تعتبرهم مثل قطّاع الطرق... ونسرد هنا نصًا شهيرًا فيه يضع سرجون الثاني الآراميين في صف الأسود والثعالب، ويعتبرهم مسؤولين عن عدم استقرار الأمن والسلام في البلاد:

"إن السبيل المؤدّي (...) إلى بابل، مسكن أنليل الآلهة، كان سلوكه متعذّرًا، وطريقه صعبًا للتنقلات (...)، ومسالكه مغطّاة بنباتات شوكية وعُلّيقات كثيفة. وكانت الأسود والثعالب ترتاده وتتراقص فيه مثل الحملان. فالآرامِيّون والسوتيون الذين يعيشون تحت الخيم، والهاربون والمجرمون وسلالة قُطّاع الطرق كانوا يخيّمون في السهب ويمنعون العابرين من ارتياده. أما المواضع المحروثة (...)، فلم يكن لحقولها جداول ولا أثلام، وكانت مغطّاة بنسيج العنكبوت. وقد تحوّلت الأراضي الخصبة إلى أراضٍ متروكة، فلا يُسمَع من بعد غناءُ الحصّادين في الحقول، ولم يعد للحبوب موضع فيها.... فقطعتُ العُلّيقات الكثيفة، وأحرقتُ الأشواك والأدغال. وبسلاحي صرعتُ الآراميين، أبناء قُطّاع الطرق، وأجريتُ مجزرةً للأسود والذئاب...".

ومثل صورة المأساة التي تنقلها لنا هذه النصوص، فإن لتمثيل الآراميين بسلالة السرّاق وقُطّاع الطرق ما يماثله في عصور أخرى. لا شك

إنها ليست على أساس تاريخي متين، مثل القصص الأخرى الحاقدة التي يمكننا مقارنتها معها. ومثل ما أورده السومريون عن بربرية العموريين، فإن لادّعاء سرجون ما يدحضه في وثائق أخرى هي أقرب إلى الواقع اليومي.

وهنا تجدر الإشارة إلى ما تقدّمه لنا مجموعة من رسائل ترقى إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وقد وُجدت في "نيبور" (نفــر)، وفيها يظهر الآرامِيّون بمظهر جديد بالاحترام. فإنهم يظهرون مندمجين اندماجًا جيدًا في شؤون بيئية تجارية كانت قوافلها تبلغ إلى الفرات الأوسط وإلى المقاطعات الغربية من الإمبراطورية الآشورية. وفي هذه الرسائل، يظهر الفقوديون الذين هم غالبًا موضع القدح في الكتابات الملكية، مرتبطين بموضع مقدس في سومر، حيث يجتمعون بمناسبة حجّ يتّسم بطابع قبلي واضح.

وهناك رسالة أخرى من هذا الزمان، وهي ظاهريًا موجَّهة إلى تغلاثفلاصر الثالث، تسلّط ضوءًا تهكّميًّا على قبيلة أخرى. فقد حدثت اضطرابات في صور وصيدا. وتُعلِمنا هذه الرسالة أن الأيتويين كانوا ماسكين بزمام المعضلة الفينيقية. وهؤلاء الأيتويون أنفسهم يمثلون على رأس لائحة القبائل التي قمعَها الملك تغلاتفلاصر. وقد ذاق هؤلاء الأقوام الأمَرَّين من جيرانهم الآشوريين منذ مطلع القرن التاسع قبل الميلاد.

يبدو أن الحالة لم تكن واضحة بالنسبة إلى البقعة الواقعة غربي "كركميش"، حيث كانت قبائل آرامية أخرى قد أفلحت في التغلغل بين الحثيين سكان الفرات وبين منافذ نهرَي العاصي والأمانوس.

إنما انتصار حلفائهم الكلدانيين (الدولة البابلية الحديثة) وحدَه، في الربع الأخير من القرن السابع (سنة ٦١٢ ق.م.)، كان من شأنه أن يضع حدًّا لحالة عدم الاطمئنان لدى الآراميين في المنطقة الجنوبية من بلاد بين

النهرين. وكانت لغة الآراميين، على مرِّ القرون، قد أصبحت الوسيلة الأساسية للتبادلات التجارية والإدارية عبر الإمبراطورية الآشورية المنحلّة، لاسيّما في المناطق الغربية، حيث لم تَستَعِد اللغة الأكدية والعلامات المسمارية كل النفوذ الذي كانت تحظى به في الألف الثاني قبل الميلاد.

الآرامِيّون في الجزيرة والفرات الأوسط

إن يقظة الطموحات الآشورية كانت مجالاً لدخول الدويلات الآرامية إلى مسرح التاريخ. فلقد وطّد ملوك آشور سيطرتهم من جديد على الجزيرة، وهي تلك المنطقة الواسعة التي تحدّها من الشرق الإمبراطورية الآشورية، ومن الجنوب والغرب يحدّها الفرات الأوسط، ومن الشمال جبال كردستان. ونسميها ما بين النهرين العليا. وكانت الإمبراطورية الآشورية قد استولت عليها وحصرت الحثيين في منطقة غربي الفرات. وتأثّرت الشعوب الآرامية التي استوطنت على جهتَي النهر بتراث هاتين الإمبراطوريتين.

أما الأراضي التي انتشر عليها الآرامِيّون في ما بين النهرين العليا فليست واضحة كل الوضوح، ولو أن بعض الحدود تبدو أوضح من غيرها. كذا الشأن في الشمال الشرقي من الحاجز الذي أقامته آشور والمدن الآشورية الكبيرة من ضفة دجلة اليسرى ضد انتشار الآراميين. وإذ لم تكن مدينة آشور مفصولة عن الجزيرة سوى بحدود هي اجتماعية أكثر منها طبيعية، فإن السهب الذي يقطنه الآرامِيّون كان مؤاتيًا طبيعيًا لانتشار الفئة الأشدّ دينامية. وفي العصر البرونزي الوسيط، كانت الإمبراطورية الحورية في

ميتاني قد توصلت إلى فرض هيمنتها لبعض الوقت على قلب البلاد الآشورية نفسها. إلا أن المدّ الآرامي في العصر الحديدي الأول لم يحظَ بمثل هذا النجاح التام. وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة، كانت البلاد البابلية قد مرّت أيضًا بظروف حرجة، ولكنها لم تفقد هويتها. وفي عهد النهضة الآشورية، كانت حدودها ما تزال تمتدُّ على طول الفرات، حتى "دوركوريكالزو" (عقرقوف اليوم).

وفوق منطقة عقرقوف، يشكّل نهر الفرات تقريبًا الحدود الجنوبية للمنطقة. وكانت القبائل الآرامية مستوطِنة على ضفتَي النهر، ولا ندري إلى أي حدّ كانت مراعيها تمتدّ. ولكننا نعلم أن آرامي بيث أديني، المنتشرين على طول انعطاف الفرات الكبير، كانوا يطفحون على الضفة اليمنى من كلتا جهتي "كركميــش" (اليوم جرابلس جنوبي تركيا). وفوق بيث أديني، وعلى ارتفاع لا يتسنى لنا تحديده، كانت تبدأ مجموعة الدول الحثية الحديثة، مع "كومّوخ" (القائمة على مدينة شميشاط الحالية) وميليد (وهي ملاطية الحالية)، وكانت هذه المنطقة خالية من التسرّب الآرامي.

وتشير الكتابات الآشورية إلى منطقة غامضة سياسيًا تُدعى "نائيري" تقع في الجزء الأعلى من بين النهرين، بين نهرَي دجلة والفرات. وكان هذا الاسم مستعملاً منذ عهد الملك الآشوري توكولتي ــ نينورتا الأول (١٢٥٥ ــ ١٢١٨ ق.م). وكانت منطقة "خانيكالبات" تقع جنوبي نائيري. أما "أورارتو"، فكانت تمتدّ في القسم الشمالي. وكان يطيب للجيوش الآشورية أن تنتشر في المناطق الخصبة الواقعة في الجزء الشمالي من الجزيرة. لا شك أن الغزاة من العصر الآشوري الوسيط كانوا قد استفادوا من بعض الآبار المنتشرة في السهب لكي يسلكوا طريقًا مباشرًا بين آشور ومستعمرتهم

"كَتليمّو" الواقعة على الخابور الأسفل، قبل مصبّه في الفرات. ولكننا لا نعلم هل ظلَّ هذا الطريق مستخدَمًا بعد القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ريثما تظهر علامات جديدة تشير إلى استخدامه في القرن التاسع قبل الميلاد. فإن الغزاة الآشوريين الجدد، في سيرهم نحو الغرب، ما كانوا يجتازون السهب مع جيوشهم، بل كانوا يبدأون تقدّمَهم في "نائيري" الشمالية، ومنها ينزلون إلى حوض الخابور انطلاقًا من الشمال، من عاصمتهم، عِبْرَ وادي الثرثار، بمحاذاة الضفة الغربية من نهر دجلة... ومهما يكن الاختيار، فكان لا بدّ لحملتهم من الاجتياز بالبلدان الآرامية.

وكان للتجمّعات الآرامية التي تملأ منطقة الفرات أهمية حيوية للتجارة البابلية. وريثما يتم إخضاع البلاد البابلية، كان على الملوك الآشوريين، الذين يختارون الطريق الجنوبية، أن يحسبوا ألفَ حساب للنتائج الدبلوماسية، وحتى العسكرية، التي تترتّب على عملهم هذا. أما إذا تقدّموا على أطراف "نائيري"، فلم يكن ثمة ما يعود إلى سلطة عظمى من بين المنشآت التي يلتقونها: نصيبين، غوزانا (تل حلف)، حوزيرينا (سلطان تبه، على البليخ شمالي حرّان)، وغيرها... وكانت هذه الطريق تفسح المجال أمامهم للدخول المباشر إلى ثروات الدول الحثّية الحديثة، وإلى البلاد الفينيقية.

الفصل الثاني

الممالِك الآراميـة

ألقينا نظرةً سريعة على الآراميين، فتناولنا أصولَهم وانتشارهم السريع في مختلف المناطق السورية، وفي أجزاء عديدة من بلاد الرافدين. ثم تكلمنا عن وجودهم في المنطقة الشرقية، وفي منطقتَي الجزيرة والفرات الأوسط.

والآن نسلّط الأضواء على بعض الأماكن التي تمركزَ فيها الآراميون في القسم الشمالي من بين النهرين، حيث شكلوا دويلات أو إمارات تنعم ببعض الاستقلالية، وكثيرًا ما تسبّب شيئًا من الإزعاج للبلدان الكبيرة المجاورة.

آراميو نائيـري

إن "نائيري" منطقة تقع بين أورارتو في الشمال وبيث زماني في الجنوب، قرب آمد، أي دياربكر الحالية في تركيا الشرقية.

في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، انهارت مقاومة الحوريين في منطقة "خانيكالبات" أمام الملكَين الآشوريين أدد نيراري الأول وشلمناصر الأول. وقد طال هذا الغزو الصاعق الشعوبَ والقرى والمدن العديدة التي كانوا يسكنونها. ويبدو أن استعمال اللغة الحورية أخذَ يتراجع أيضًا، فاعتصمت هذه اللغة شيئًا فشيئًا بالجبال الشمالية حيث نشأت "أورارتو"، شرقي بحيرة "وان" وغربيها. أما الآشوريون فقد أقاموا في البلاد التي احتلّوها شبكةً من مستعمرات ومراكز إدارية صارت تستغلُّ ثروات بين النهرين العليا.

ولقد أُعيد النظر في هذا النظام بعد موت الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول سنة ١٢٠٧ ق.م.، ولاسيما بعد موت تغلاتفلاصر الأول سنة ١٠٧٦ ق.م. فظهرت حكومات محلية قائمة بذاتها، وكانت في الوقت نفسه قبائل جديدة تتسرب في هذه المناطق، وتنتشر لغاتها في المنطقة الحورية القديمة. فتواصَلَ انتشارُ العناصر الآرامية مدة طويلة، من دون أن تلاقي معارضة آشورية قوية. وحينما عاد الملك آشوردان الثاني (٩٣٤-٩١٢ ق.م.) والذين تبعوه على آثار غزاة العصر البرنزي الحديث، ترتَّبَ عليهم غالبًا أن يستعيدوا المواقع التي كان الآراميــون قد احتلوها. وعادوا إلى منطقة "نائيري" قبل أن تستطيع الثقافة الآرامية أن تزدهر فيها وان تترك فيها

آثارَها العميقة. وهذا ما يثير مشكلة تشخيص الفِرق العرقية المستقرة في مختلف المواضع التي تذكرها المسارات الآشورية.

لا يتسنّى لنا إعادة تكوين تاريخ الآراميين في "تائيري" في تسلسله الدقيق. فالمصادر الوحيدة في حوزتنا، وهي الحوليات العسكرية الآشورية، لا تقدّم لنا سوى سلسلة من الأحداث الفورية التي سجّلَها حَمَلَةُ ثقافة غريبة متعجرفة، وقد أُعيد إصلاحها أو ترميمها لغرض الدعاية. إلا أنها مثقَلة بأسماء الأمكنة وبأسماء أعلام أخرى تعود إلى عدد كبير ومختلف من "البلدان" (ماتو) الكبيرة والصغيرة، ومن القبائل الرحّل، ومن المدن المستقلّة، والاتحادات الفدرالية والممالك. وإذا أُجري فحصٌ دقيق ومنهجي لهذه المنطقة، أتاح لنا اكتشاف أوجُهٍ عديدة من البُنى الاجتماعية والاقتصادية والدينية فيها.

في هذا الخضمّ من المعلومات الجغرافية والأحداث السياسية، نلاحظ أمثلة من التكافُل، حيث تتكيّف فئات آرامية مع الحياة الحضرية التقليدية داخل جماعات عرقية أخرى، مع افتخارها بالاحتفاظ بأبعادها. وجديرة بالاهتمام الخاص هي حالة مدينة "جيدارا" في جبل "كشياري" (طور عبدين في تركيا الحالية)، في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. واسم "جيدارا" نفسه سامي غربي حيث كانت اللهجة تختلف ظاهريًا عن الآرامية. إلا أن المصادر الآشورية تدعوها أيضًا "راقامّاتو" أو "رادامّاتو". ويبدو أن هذه تسمية آرامية. وحينما وقف الملك أدد نيراري الثاني أمام أبواب "جيدارا" سنة ٨٩٨ ق.م.، كان الذي يتزعّم المقاومة هو التيماني "موقورو" الذي تبدو قبيلته آرامية. وإذ يذكر ملك آشور القوى التي يعتمد عليها هذا الأمير بوقاحة، يسمي "الآراميين" بعد المدينة وجيوش "موقورو".

في مطلع الغزو الآشوري، كان التيمانيون بدون شك أقوى فئة آرامية في "نائيري". فإنهم بقيادة شخص يسمى "مَملي"، كانوا قد سيطروا على المنشآت الواقعة في أسفل جبل "كاشياري". وقد احتفظت هذه المنطقة بالطابع الآرامي زمانًا طويلاً، بعد اجتياز السلطة إلى أيادٍ أخرى. وهناك أسماء آرامية كثيرة، أمثال حزائيل وأدد أدري وغيرهما، وردت في المعاهدات الآشورية من عهد آشور بانيبال، وقد عُثرَ عليها في المواضع المجاورة لنصيبين. ويبدو أن حدود هؤلاء الأقوام بلغَ في الغرب إلى منطقة "حوزيرينا" (سلطان تپه الحالية)، شمالي حرّان. ولكننا إذا وضعنا الأمور في سياقها الحقيقي، لاحظنا أن المقطع الذي فيه يروي الملك أدد نيراري استيلاءَه على هذه النقطة القصوى من منطقة النفوذ التيماني سنة ٨٩٩ ق.م. يولينا الانطباع بأنها لم تكن بعدُ قد أصبحت آرامية بعمق، وان الاحتلال الآشوري اعتُبِرَ بمثابة تحرير لها.

وعلى النقيض من دول آرامية كثيرة في ما وراء الفرات وفي منطقة الجزيرة، فإن الإمارات التيمانية لا توصَف قط وكأنها مِلكٌ لأحد، ولا يبدو أنها في الواقع قد اتّحدت سياسياً. فلا نعرف اسم أي زعيم عام على التيمانيين في الزمان الذي فيه تمَّ الهجوم الآشوري الأول عليها. ولا شك أن "نور أدد"، أمير نصيبين، كان يحظى بسلطة كبيرة ونفوذ واسع، واضطرَّ الملك الآشوري أدد نيراري الثاني إلى تنظيم ثلاث حملات لكي يحرز النصر عليه، وهو يتكلم عنه كملك. ومع ذلك فان أخاه في العرق "موقورو جيدارا" (راقامّاتو) لا يبدو انه قد تلقى منه توجيهات ولا أي مساعدة عسكرية. إنما بإمكاناته وحدها جابهَ الآشوريين سنة ٨٩٩ ق.م. ولكنه غُلبَ على أمره هو

أيضاً، وظلت هذه المنطقة تحت السلطة الآشورية. وفي سنة ٨٥٢ ق.م.، نلاحظ أن لائحة الأسماء تحمل اسماً لحاكم (شَكنو) نصيبين.

وهناك كيان آرامي رئيسي آخر لقيَه ملوك آشور في منطقة تقع جنوبـــي نائيري" ويُسمى "بيث زماني"، وهي منطقة واقعة قرب منابع دجلة، وكانت المدينة الرئيسية فيها هي "أميدو" (آمد: دياربكر الحالية). وكانت هذه المملكة، على النقيض من الإمارات التيمانية، مملكة موحَّدة سبقَ اسمُها ونواتُها الأولى العصرَ الذهبي للانتشار الآرامي. وفي سنة ٨٨٩ ق.م.، خضع أمير "بيث زماني" للملك الآشوري توكولتي نينورتا الثاني، بعد أن أبدى بعضَ المقاومة، والتزم بالقَسَم بألا يزوّد أعداءَ آشور بالخيل. وقد ظلَّ أميناً تجاه التزاماته في عهد الملك ناصربال الثاني. إلا أن هذا الولاء كلَّفَه حياتَه، لأسباب لسنا مطّلعين عليها. فاستاءَ الملك الآشوري من مقتله، ويبدو أنه انتقم له سنة ٨٧٩ ق.م.، ووضع أخاه على العرش خلفًا له. ومن الغريب أننا نلاحظ أن الملك الآشوري آشور ناصربال عادَ من جديد إلى "بيث زماني" سنة ٨٦٦ ق.م.، لكي يعاقب هذا الأمير الذي كان هو قد أقامَه عقاباً صارمًا لا نعلم أسبابَه.

لا غرو أن "بيث زماني" كانت تتدخّل في شؤون المنطقة، وربما كانت تمارس نوعًا من الهيمنة على منطقة "نائيري" الكبيرة كلها. ويبدو أن الضريبة التي كانت "بيث زماني" تدفعها عُدَّت مع ضريبة "نائيري"، وان أُمراءَها قد تقاسموا مرات عديدة مصير جارهم "لبتورو" بن "تبوسو"، سواء في دفع الضريبة أم في التعرّض للعقاب. وهناك إشارات أخرى تدلُّ على أن هذه الدولة كان يُحسَب لها ألفُ حساب. ولم يتولَّ الآشوريون إدارة مستعمراتهم في "تيدو" و"سينابو" منذ غزواتهم الأولى، بل تركوا السيطرة

عليها لبيث زماني حتى انتفاضة سنة ٨٧٩ ق.م. وفي هذه الحملة، وفي سنة ٨٦٦ ق.م. انسحب آشور ناصربال، في سورة غضبه المدمِّر، دون أن يفلح في السيطرة على المدينة الملكية. والضريبة الباهظة التي فرضها على هذه البلاد الصغيرة سنة ٨٧٩ ق.م.، ثأرًا لمقتل تابعه الأمين، استحقت ذكراً مفصّلاً في الوثائق. ويُعتَبر هذا امتيازًا تقاسمته هذه المملكة الصغيرة مع الهدايا التي قدّمتها مملكتا كركميش وباتينا.

من الخابور حتى منعطف الفرات

بقايا الإمبراطورية الآشورية من العصر البرنزي الحديث

إن منطقة الخابور في زمان يقظة آشور معروفة نسبياً، ليس من النصوص القديمة فحسب، بل من الأبحاث الآثارية الكثيرة التي أُجريتْ لها أيضاً. ولا شك أن العنصر الآرامي كان منتشراً فيها بكثافة أكبر مما في "تائيري". إلا أن الاستعمار الآشوري الوسيط كان قد تجذّر فيها بقوة. وحتى بعد الانتشار الآرامي، كانت ما تزال، جنوبي مثلث الخابور، شعوب من الثقافة الآشورية ــ البابلية، وسلالات تدّعي انتماءها إلى آشور. ولكن كان على هؤلاء "الحكام" الآشوريين أن يتدبروا شؤونهم بقواتهم الخاصة، في ذلك الوسط المعقد حيث كان العنصر الآرامي سائدًا في الجنوب وفي الغرب، مثلما كان في الشمال.

وإحدى هذه السلالات الآشورية كانت "آشور ــ كتّي ــ ليشر"، "ملك ماري". وقد اكتُشفت كتابة له حديثًا في "تل بديري". وكان هذا الملك يدفع

الجزية لتغلاثفلاصر الأول في نحو سنة ١٠٩٠ ق.م. ولا يبدو أن له علاقة بمدينة "ماري" الشهيرة الواقعة على الفرات. وكان حكمه يتمحور حول "طابيتو" (تل طابان) في الجزء الشمالي من الخابور الأسفل، بين جبل سنجار شرقًا، وجبل عبد العزيز غرباً. وهو يذكر اثنين من أسلافه، ولا شيء يمنع من أن يكون له خلفاء. وقد أطلعتنا نصوص أُكتُشفتْ في آشور وشريف خان وتل عجاجا الواقعة نحو ٢٥ كم في الجنوب الغربي من تل بديري فوق طابيتو، على وكلاء "ايشياكو" البلاد الآشورية، الذين كانوا يتقلدون السلطة في "شاديكانو" (تل عجاجا) طوال النصف الأول من القرن العاشر وخلال القرن التاسع ق.م. وان الثيران المجنّحة "لاماسو" ونقوشًا أخرى من بلاط "موشيزيب ــ نينورتا" (نحو سنة ٨٢٠ ق.م.) من شأنها أن تؤكّد أنها تعود إلى المملكة الآشورية، إذا كان التأكيد ضروريًا.

وفي جنوب "شاديكانــو"، كان مركز آشوري آخر كشفت عن أهميته التنقيبات الآثارية والرسائل المتبادَلة بين حكامه، وهو في "دور كاتليمو" (تل الشيخ حمد الآن). وقد وردت هذه المستعمرة أحيانًا باسم "دور أدوكليمو". وفي سنة ٨٩٤ ق.م.، استُقبِل فيها الملك أدد نيراري الثاني استقبالاً وديًا... ففي طريقه إلى "دور كاتليمو"، دخل أولاً إلى "شاديكانو" دون مشاكل، ثم إلى "قطنو" حيث وجدَ حاكمًا يحمل اسمًا آشورياً هو "أميل ــ أدد"، فتركه في منصبه. وقليلاً إلى الجنوب، عند مصب الخابور في نهر الفرات، كانت المنطقة في أيدي أمراء آراميين لم يكن من السهل اليسير إخضاعهم للإمبراطورية الآشورية.

غوزان وأزالو (بيث بخياني)

كان الجزء الغربي من مثلث نهر الخابور الخصب نصيبَ المملكة الآرامية التي دعاها الآشوريون "بيث بخياني". وكانت هذه المملكة تتمركز على "غوزان" (تل حلف) والموقع القريب جدًا من "سيكان" (تل فخيريه). في الشرق، يسعنا القول أن تأثير التيمانيين كان يجري في وادي "جقجق" القريب من نصيبين. ولكن نزولاً نحو الجنوب، كان هذا التأثير يتضاءل شيئًا فشيئًا أمام نفوذ المنشآت الآشورية في الخابور الأسفل. وفي غربي "غوزان" و"سيكان" القريبة منها، نجد منطقة غير معروفة كثيراً، وكانت تفصل "بيث بخياني" عن العالم الآخر الواقع غربيها. وأقدم النصوص الآشورية ــ الحديثة لا تحدّد في هذه البقعة سوى مواضع قليلة، وتترك معظم الأماكن الأخرى في الظلمة. والغريب أنها تغفل عن ذكر حرّان، مع كون هذه المدينة مركزاً دينياً مهمّاً سيعلو شأنه أيضاً على الصعيد السياسي. أما الألواح التي عُثر عليها في منطقة "سوحو" الواقعة على الفرات الأوسط، بالقرب من "ماري"، فإنها تُميط اللثام عن عالم آرامي ما يزال غير متحضّر بكفاية، وكان يحيط في السهب بالمواقع المدنية المتحضرة في الخابور.

في سنة ٨٩٤ ق.م.، قدَّمَ "أبي سلامو" ملك "بيث بخياني" خضوعَه للملك الآشوري أدد نيراري الثاني. وهناك شخص آخر من السلالة نفسها لا يُذكر اسمُه، وهو يبدي الخضوع لآشور ناصربال الثاني سنة ٨٨٢ ق.م. وكذلك سيفعل شعب "بخياني" في نحو سنة ٨٧٠ ق.م.، حينما سيرفع الملك الآشوري الجزية عنه ويضمُّ عناصر محلية إلى جيشه.

وهناك تمثال بالحجم الطبيعي، تعلوه كتابات بالأكدية والآرامية ويرقى في الظاهر إلى عهد آشور ناصربال الثاني وشلمناصر الثالث، اكتُشفَ في "تل فخيريه" سنة ١٩٧٩م، وهو يطلعنا على أن ملك غوزان وسيكان وأزرن (زارانو في الأكدية)[١] كان يقوم في الوقت نفسه بدور حاكم آشوري (شاكين ماتي) منذ النصف الأول من القرن التاسع ق.م. وهذا الدور المزدوج لا يُنسَب إلى المعطي فحسب، ويُسمى "حَدّو ــ تيعي"، بل كذلك إلى أبيه "شمش ــ نوري" قبله. ومن الأرجح أن "شمش ــ نوري" هذا لم يكن إلا الاسم الآشوري المذكور سنة ٨٦٦ ق.م.، وما كان في وسعه أن يرتبط بالعائلة المالكة القديمة الممثَّلة بــ "أبي ــ سلامو".

إن ما وصلنا من الأحداث التاريخية عن مملكة "غوزان" يتحدد واقعيًا ضمن هذه المعطيات التي ليست أكيدة جزئيًا. ففي سنة ٨٠٨ ق.م.، نلاحظ أن "غوزان" صارت هدفًا لحملة اضطُرَّ الملك الآشوري أدد نيراري الثالث إلى القيام بها، لكي يغزو البلاد من جديد[٢]. ومنذ سنة ٧٩٣ ق.م.، تُظهر لنا الوثائق "غوزان" خاضعة لحكام، دون أن تبدي مطالبة بالملوكية. وفي سنة ٧٥٩/٧٥٨ ق.م.، مزجت هذه المقاطعة في الانتفاضات التي هزت أركان الإمبراطورية الآشورية، قبل أن يستولي تغلاثفلاصر الثالث على الحكم سنة ٧٤٥ ق.م. وبعد مرور قرن على السيطرة الآشورية، يمكننا أن نشرح هذه التحركات بكونها خصومات ومنافسات سياسية بين تكتلات آشورية بالأحرى من كونها تطلعات إلى الاستقلال بدت من ترسبات شعوب آرامية هناك.

[١]-لقد رأى البعض تقاربًا بين هذا الاسم واسم أسروينا الذي كان يُطلق على منطقة الرها الواسعة.

[٢]-هناك من يضع سقوط غوزان في علاقة مع الحملة التي قام بها إلى شرقي الفرات حزائيل ملك الآراميين في دمشق. وربما ان هذه الحملة جرت في نحو نهاية عهد شلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م.)

لغز كبارا

إن "كاپارا" هي المجهولة الكبيرة في تاريخ "غوزان"، ومبانيها ومنحوتاتها تبرر الأهمية التي كانت هذه البلاد تحظى بها. وبالرغم من قلة المهارة في إنجازها، لا يسعنا إلا أن نتعجب من الطراوة والقوة في حجارتها الـــ ١٧٩ من البازلت والجيري، وقد أخذوها عن سلف حديث، وكانت تزين "معبد البلاط" عنده. إنها تمثل محاربين والوهات تثير الابتسامة بأشكالها الغريبة. ونلاحظ فيها زمرة من الحيوانات وهي ترقص وتعزف بمختلف الآلات الموسيقية.

ومن المؤسف أن "كاپارا" لا تُعرف إلا بكتاباتها الخاصة بها، وهي أيضًا ناقصة. فلا يمكننا تحديد موقعها التاريخي. فذهب قوم إلى تحديد تاريخها بالقرن الثامن قبل الميلاد، وغيرهم بالقرن العاشر. وربما من الأفضل تقديره بالقرن التاسع قبل الميلاد، إذ كانت "غوزان" قد رضخت للهيمنة الآشورية التي لم تكن، والحق يقال، ثقيلة الوطأة عليهم. وهذا الحل من شأنه أن يشرح الطابع القديم الذي تتسم به كتابات "كاپارا"، مقارنة بالكتابات المسمارية التي وردت على تمثال "حدو ـــ يت ـــ عي"، وأن يشرح كيف أن "كاپارا" استطاعت أن تختص باللقب الملوكي، دون إثارة سخط الملك الآشوري.

لا يسعنا التأكيد أن "كاپارا" وأباه "حديانو" كانا ينتميان إلى سلالة "أبي ـــ سلامو" نفسها. فان "كاپارا" لا يذكر في كتاباته "ابي ـــ سلامو" ولا

"بخيانو". إنما يتقدّم مثل ملك "با ــ لي ــ ي"، وقد يكون هذا اسمًا قديمًا في المنطقة[٣].

أزالـــو

إن حوليات الملك آشور ناصربال الثاني تشرك مع "بيث بخياني" في كيانات سياسية أخرى غامضة. فيبدو أن "أحيرام" "بن يحيرو" قدَّمَ جزيتَه مع" أبناء بخيانو" في نحو سنة ٨٧٠ ق.م. وربما كانت ثمة إمارة صغيرة تُدعى "بيث يحيري" تقع بجوار "بيث بخياني"، ولكنها غير معروفة. وقد رأينا أن أبواب آشور ناصربال في "بلاوات" كانت تمثّل محاربين من "بيث يحيري"، مع ذكر إحدى مدنهم. إلا أن الاسم قد أُمّحى!

إن منطقة "بيث بخياني" وغيرها من الأراضي الواقعة نحو الشمال الغربي كانت تسمى "بلاد أزالّو". ولم يتوغّل آشور بانيبال الثاني، في بدء عهده، إلى أبعد مما فعلَه أدد نيراري الثاني، ولم يكن لديه عن هذه المنطقة سوى معرفة إجمالية. لذا فإن حولياته لسنة ٨٨٢ ق.م. تدعو سليل بيث بخياني بـــ "الأزالّي"، وتصف جزيته مثل جزية "أزالّو". إن هذا الاسم كان يتعادل على أساس جغرافي مع اللفظ العرقي لـــ"أبناء بخياني"، كما حينما

[٣]- هناك من يرى أن "كاپارا" كان حاكمًا لبليخ بعد مقتل "جيامو" والغزو الآشوري لسنة ٨٥٣ ق.م. لمدة قصيرة. وربما أفلح في بسط سيطرته على منطقة غوزان. وهناك من يرى أيضًا أن القطع العاجية التي عُثر عليها في بلاط "كاپارا" المشابهة لتلك التي اكتُشفت في مدينة نمرود (كالح) والتي ترقى إلى القرن التاسع قبل الميلاد تتيح لنا تحديد عهد "كاپارا" بالقرن التاسع قبل الميلاد تقريبًا.

يتكلم عن أمراء "زنجرلـــي" كانت اللفظة الجغرافية "سمأل" تعادل اللفظة العرقية "أبناء كپّارا".

إن الحملات المتتالية التي قام بها الآشوريون جعلتهم يألفون المناطق الواقعة غربي الخابور. وكان راوية النزهة العسكرية الكبيرة التي قام بها آشور ناصربال شطر البحر المتوسط في نحو سنة ٨٧٠ ق.م. يعرف بلادًا تُدعى باسم "أزالّو" متاخمة لحدود "بيث بخياني"، ولكنها تتميّز عنها. وكان هذا الراوية يعرف أيضًا "تل أبني" الواقعة قليلاً نحو الغرب، وهي إمارة قريبة من "بيث أديني". وهناك أيضًا دويلة آرامية تسمى "أشّو" التي سيرد ذكرها مع "أزالّو" سنة ٨٦٦ ق.م. وطوال السنوات الأولى لعهد شلمناصر الثالث، نرى أن "تل أبني" القريبة من "بيث أديني" ستؤدّي الجزية بالتناسق مع دولة سروج الصغيرة الواقعة غربي نهر البليخ وإمارة "إمّرينو".

وبين أحداث سنة ٨٦٦ ق.م. التي يرويها مؤرخو الملك آشور ناصربال الثاني، نلاحظ أن الضريبة التي يؤديها الأزالّي "يتيعي" جُلبت إلى "حوزيرينا" (سلطان تپه اليوم، في أعالي البليخ). وهنا نتساءل ألا يتعلق هذا الحدث بأمير من "غوزان" سمّوه "الأزالّي" فإن المسافة لا تتجاوز في الواقــع ٥٠ كم بين "غوزان" (تل حلف) و "حوزيرينا" (سلطان تپه). إلا أن "الأزالّي" المذكور لا يمكن أن يكون الحاكم في "بيث بخياني"، لأن هذا لم يكن يُدعى "ايتيعي" سنة ٨٦٦ ق.م. فإن مؤلف كتابة "تل فخيريه" كان له سلف يُدعى "شمش نوري". فمن الأرجح أن يكون "الأزالّي" هو "ايتيعي"، ابن شمش نوري نفسه، ملك غوزان في المستقبل. وهذا ما يتماشى مع العلاقة بين غوزان وأزالّو.

أما الهدايا والضرائب التي كانت تُجلَب إلى ملوك آشور، فلم يكن أصحابها هم الذين يقدّمونها دومًا. ويمكننا أن نتصوّر أن تكون الجزية التي حملها "ايتيعي" إلى "حوزيرينا" في الواقع جزية أبيه ملك "غوزان". وتشير صفة "الأزالّي" والحالة هذه إلى المساحة الجغرافية المحيطة بغوزان. إلا أن هذا الشرح ليس مقنعًا. فيبدو أن "ايتيعي" حمل جزيته الخاصة به. فلو كان صاحب الجزية الحقيقي أباه، لكان من الغريب أن يُغفَل عن اسمه، في حين أن "شمش نوري" كان معروفًا لدى كتبة آشور ناصربال. وكان الآشوريون قد تعلّموا منذ قبل سنة ٨٦٦ ق.م. أن يميّزوا بين "أزالّو" ومملكة "غوزان". فمن الأفضل أن نفترض أن الجزية التي قدّمها "أزالّو" كانت في الواقع جزيته الخاصة به، وأن "أزالّو" لم يكن مجرد مساحة جغرافية، بل البلاد التي كان يحكمها.

وهكذا ربما يسعنا القول أن وريث ملك غوزان كان يحكم على رقعة جغرافية متميّزة تُدعى "أزالّو". وهذا لا يعني أن بلدَي أزالّو وبيث بخياني كانا يشكّلان مملكة متحدة. فقد كان لكلٍّ من أزالّو وبيث بخياني حاكمها، حينما توجّه الملك الآشوري آشور ناصربال نحو البحر المتوسط. ولم يكن "أدد ــ ايم" حاكم أزالّو من قرابة ملك غوزان الذي قد يكون "كاپارا". أما أن يكون أمير غوزان على رأس أزالّو، فربما ان هذا الأمر جاء نتيجة إعادة تنظيم المنطقة من قبل السلطة الآشورية. وهكذا يكون آشور ناصربال الثاني قد وضع على عرش غوزان شخصاً مواليًا للسلطة الآشورية، هو "شمش نوري"، وعلى عرش أزالّو أحد أبناء هذا الشخص نفسه هو "هدّو ــ يت ــ عي"، وبالأكدية "أدد ــ يت ــ عي" أو فقط "ايتيعي". وهكذا كان في وسع ملك آشور أن يمارس على الجزء الغربي من بلاد خابور نوعًا من السيطرة

البدائية التي كانت تستند إلى تعاون عظماء المنطقة. وفي وقت لاحق، فُصلت أزالّو عن غوزان، وأُلحقت بمقاطعة "تورتانو". وهذا ما نلاحظه في كتابة القائد الأعلى "بيل ــ لوبالّيط" الذي كان حاكمًا على طابيتو وحرّان وحوزيرينا ودورو وقيبانو وأزالّو وبليخو.

حـرّان

في العهد الآشوري الحديث لا يرد ذكر للدويلات الواقعة غربي بيث بخياني وأزالّو إلا بصورة طارئة، عند الكلام عن المدّ المتّجه نحو كركميش وما وراء الفرات. ففي جنوبي حوزيرينا التي وقعت في أيدي الآشوريين منذ سنة ٨٩٩ ق.م.، تتجاهل النصوص زماناً طويلاً وادي البليخ[٤]، ومعه حرّان التي كانت ستصبح أكبر تجمّع بين غوزان وتل برسيب. وهناك نص متأخر، أطلعَنا عن طريق المصادفة على أن شلمناصر الثالث قام بترميم "إي ــ هول ــ هول" معبد الإله القمر في حرّان. وفي نهاية القرن التاسع (نحو سنة ٨١٤ ق.م.) يزوّدنا نص "بيل لوباليط" بصورة أولى للبنية الإدارية في هذا الجزء من الإمبراطورية. فلابَّد أن حرّان كانت قد خضعت بسهولة، شأن بيث بخياني. ويمكن أن يُشرَح صمتُ المصادر عن رجوعها إلى الفَلك الآشوري بالفقر الذي أصابَ غربي الجزيرة كله في مطلع العصر الحديدي، وذلك اثر المصادمات الطويلة والعنيفة التي دارت بين الميتانيين والحثيين والآشوريين

[٤]-لذكر هذه المنطقة، علينا أن ننتظر الحملة التي قام بها شلمناصر الثالث سنة ٨٥٣ ق.م. وهو في طريقه إلى حماة.

في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. فقلّة السكان وحالة عدم الاستقرار الناجمة عن ذلك، بالإضافة إلى رداءة الملاحة في الفرات ما بين البليخ والخابور كانت عوامل خلقت حالة من الانحطاط في البلاد حتى عهد "السلام الآشوري".

إلا أن مدينة حرّان كانت منذ العصر البرنزي الحديث مركزاً رئيساً لعبادة الإله القمر. والأولوية الاقتصادية التي كانت تنعم بها في القرن السابع ق.م. في منطقة غربي الجزيرة كلها، تتأكد من جديد في الأضابير التجارية لمدينة مجاورة لها تُدعى "مَعلاّنا".[٥] وبعد آخر تاريخ ذُكرَ في هذه الأضابير (سنة ٦٢٠ ق.م.)، أصبحت حرّان العاصمة الطارئة لمملكة منهارة. فبعد سقوط هذه القلعة الأخيرة للإمبراطورية الآشورية وخراب المعبد "إي ـــ هول ـــ هول" على أيدي الماديين، استطاع نابونيد ملك بابل (٥٥٥-٥٣٩ ق.م.) أن يجدّد هذا المعبد في نهاية عهده، وان يفتح لمدينة الإله القمر حقبة جديدة وطويلة جداً من الإشعاع الروحي.

ويمكننا أن نتصور أن حرّان، شأنها شأن حلب، حاولت تجنّب كل اصطدام مع السلطة الإمبراطورية. إنها اعتنت بوضعها الديني وعرفت أن تبسط تأثيرها في الشمال الغربي من بين النهرين وفي شمالي سوريا. فكان للإله القمر ومعابده تأثير كبير في معتقدات السكان وفي فنهم التصويري. إن أسماء الأعلام التي تتركب من اسم الإله القمر "رب حرّان" أو من صيغ

[٥]- تتضمن هذه المجموعة ٦٥ لوحًا، ٢٤ منها مكتوبة بالآرامية، وهي تتدرج من مطلع القرن السابع قبل الميلاد حتى سنة ٦٢٠ ق.م. وتظهر العلاقة مع حرّان بالأسـماء "القمرية" الواردة فيها وبتكرار ذكر حرّان و"هدد" ملك غوزان.

مسمارية (سين، دنكر ٣٠) أو آرامية (شهر)[٦] لاسم هذا الإله، أو غالبًا على اسم ابنه (نوسكو أو ناشوخ) تكوّن ربع أسماء الأعلام في المنطقة.

ونلاحظ أن تركيبة الأسماء في هذه المنطقة هي آرامية أكثر منها أكدية. وهذا ما يتيح لنا أن نرى أهمية العنصر الآرامي الذي قد يمثّل ٦٠ بالمئة من السكان، من الخابور بإتجاه الغرب. وتجدر الملاحظة أن أسماء آشورية وأخرى آرامية تتداول في عائلة نفسها، ولا تؤثر في ذلك العبادة للقمر ولا المنافع الاجتماعية والاقتصادية. وقد قمنا بتحليل ٥٠٠ اسم من الأسماء التي وردتنا من "الكتاب البيتي اليومي" أو من مصادر أخرى تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. وفي المواقع المجاورة لغوزان، حيث تتيح أضابير الحاكم "مانو ــ كي ــ آشور" أن نُجري مقارنة تعاقبية، يبدو العنصر الآرامي أقل بروزًا في القرن الثامن منه في عهد آشور ناصربال. وقد يعود هذا الأمر إلى ثقل وطأة السيادة الإمبراطورية سنة ٨٠٨ ق.م. ويبقى من المحتمل أن العرق الآرامي كان يشكّل الأغلبية الساحقة قبل الانتشار الذي حدث في العصر الآشوري الحديث.



أختام بالكتابة الآرامية

[٦]- إن الآراميين الذين يستخدمون غالبًا الاسم الأكدي للإله، يميلون إلى تفضيل صيغة "سيع" على "سين"، وذلك بالخط المسماري أو بالكتابة الأبجدية.

الفصل الثالث

الفرات الأوسط

كتبتُ عن آرامیي نائیري، وتطرقتُ إلى منطقة غوزان (بیث بخیانـــي)، ووصلتُ إلى حرّان التي كانت مركزًا مهمًا لعبادة الإله القمر، وأشرتُ إلى دورها الإقتصادي الكبیر. والآن أحاول تسلیط الأضواء على منطقة الفرات الأوسط والآرامیین الذین كانوا یحتلّون مختلف الأماكن من هذه المنطقة الواسعة.

الظروف الجغرافیة

إن منطقة الفرات الأوسط مختلفة جدًا عن المناطق المرویة من الخابور الأعلى والبلیخ الأعلى. فالمناخ الملائم للزراعة بدون ري لا یتجاوز، في جنوب جبل سنجار، المثلث الواقع بین الخابور وجبل

عبدالعزيز. أما الخابور الأسفل الذي كان مصيره مرتبطًا بمصير الفرات، فكان قناة تمتدُّ على سواحله من العصر الآشــوري الوسيط، وكانت تتحدر أولاً إلى "دور كتليمّو"، وستُمَدُّ نحو النهر الكبير خلال القرن الثامن. أما الفرات، فإن مجراه محصور عادة بشواطئ مرتفعـــة، لذا فإنه عديم الفائدة لري الأراضي، ما عدا الأمكنة التي فيها يتّسع الوادي ليدع المجال لظهور جزر أو أراضٍ منخفضة. هناك فقط تتراكم المساكن والأراضي المزروعة. أما السهب العالي الذي يجتازه هذا الوادي، فلا ينفع سوى للمراعي، ولا يتسنى للناس والحيوانات أن يعيشوا فيه إلا بحفر الآبار العميقة التي كانت ضرورية لاقتصاد منطقة "سوحو" ولاقتصاد الآشوريين قليلاً إلى الشمال. فإنهم بعد أن استعادوا السيطرة على هذه المنطقة، حاولوا أن يحافظوا على طريق المواصلات المباشرة بين آشور ودور كتليمّو التي كانت تمرّ بــ "أم عقريب".

تقليد بابلي، تسرُّب آرامي

في الجنوب الشرقي، كانت سوحو وبابل متجاورتين، وكانت حدودهما تتراوح بين "ايدو" (اليوم هيت) و"ربيقو" (اليوم رمادي). وفي القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، كان أمراء يحتلّون الفرات الأوسط ويحكمون تارة في "شوبات – انليل" (تل ليلان) في مثلث الخابور، وطورًا في ماري (تل حريري) على الفرات على الحدود العراقية السورية الحالية. وبعد أن أفلحَ حمورابي في تدمير "ماري"، واصلت مملكة "خانا" المرتكزة على "ترقا" (تل أشارا)، طوال أكثر من قرن، سيطرتها على

المركز الشرقي من مملكة ماري السابقة. إلا أن الموقع الحصين "هريدو" (خربة الدنيا، على بعد نحو ٦٠ كم عن الحدود السورية الحالية) كان يدافع عن حقوق بابل على سوحو. وبالفعل لقد ظل التأثير البابلي مهمًا جدًا في هذا القطاع الجنوب الشرقي من الفرات الأوسط في العهود الكاشية وما بعدها، بالرغم من تدخّلات البلاد الآشورية المتتالية ومن غزوات القبائل الثائرة. وفي الربع الثاني من القرن الثامن، كان الأمراء المحليون ما يزالون يكتبون باللهجة البابلية، وكانوا يدّعون بأنهم من سلالة حمورابي عن طريق أمير كاشي.

إن السكان الحضريين في الوادي، الذين كانوا يراعون هذا التراث البابلي، لم يكونوا وحدهم في هذه المنطقة. إنها كانت محاطة بالآراميين الذين يبدون قبل كل شيء وكأنهم احتلوا مراعي السهب. وهناك نصوص من أمراء محليين تحتوي على آثار آرامية. وأحد أهم المدافعين عن العاصمة السوحية ضد آشور ناصربال الثاني سنة ٨٧٨ ق.م. يحمل اسم "زبدان" الآرامي. وكان أحد المواقع التي خيَّمَ فيها آشور ناصربال وقتًا إزاء "هريدو" المدينة الواقعة في أقصى الغرب من سوحو تسمى "بيث شابايا"، وهي كلمة عرقية آرامية الأصل. وهناك معاقل عديدة تعود إلى العصر الحديدي الثالث والتي تنتشر على الشاطئ الأيمن من الفرات، شرقي بلدة "عانه"، وقد قام الآثاريون بفحصها، وربما بُنيت لمراقبة الفئات المتمردة على السلطة الشرعية.

في نواحي الخابور، كانت الخارطة العرقية - السياسية قد تغيّرت جذريًا في نهاية العصر البرنزي الحديث. وفي العصر الحديدي الأول، ما زال الناس يسمعون الكلام عن "ملوك ماري". وفي القرن الثامن، ما يزال

أمراء سوحو يحملون لقب "حاكم سوحو وماري". لكن "ماري" في تلك الحقبـــة لم تعد سوى حلم، والنصب الذي أقامه في موقع "ترقا" القديم الملك توكولتي نينورتا الثاني، ومن البديهي بحسب الطابع المحلي، يكشف لنا بنوع مثير بُعدَه عن الحضارة الآشورية. فترقا تُدعى من الآن "سيرقو"، وليست سوى حليف من حلفاء "لاقو". ويتناسب هذا البلد مع الجزء الجنوبي الأقصى من الخابور الأسفل، ولكنه يمتدُّ بخاصة على وادي الفرات، من كلتا جهتي مصب الخابور. وبحسب معارفنا الحالية، تكون الحدود الوحيدة الأكيدة لمنطقة "لاقو" حدودها الشمالية مع المستعمرة الآشورية المسماة "دور كتليمّو"، وحدودها الشرقية كانت دويلة "هيندانو" تفصلها عن سوحو. ولا نعـــرف بالضبط أين كانت مدينة "هيندانو"، ولكنها كانت غير بعيدة عن "أبو كمال" وعن الحدود العراقية السورية الحالية. وفي العصر الحديدي، كان هذا الموضع قد أصبح مركزًا تجاريًا مهمًا. والكيان الأصغر الذي كان يشكّل نواة "لاقو"، وهو "بيث حالوبي" كان يحمل اسمًا آراميًا، والرؤساء اللاقيون المعروفة أسماؤهم كانوا آراميين. وكذا الشأن مع رئيس "هيندانو" الذي التقاه آشور ناصربال الثاني. إن هذه الدويلات الآرامية، وهي من التقليد البابلي، لن تقبل تجدّد الإستعمار الآشـــوري بخضوع شأن المستعمرات القديمة المنتشرة في المناطق الأعلى على الخابور، وشأن الدويلات الكائنة عند نهر البليخ.

من الغزو الآشوري إلى شبه حكم ذاتي

في سنة ٨٩٣ و٨٨٥، وفّرت هيندانو ولاقو، عن طيبة خاطر، الهدايا النفيسة (نامورتو) التي جاء أدد نيراري الثاني وتوگولتي نينورتا الثاني يطلبانها منهم. وأقبل الأول من الشمال، وأنهى زيارته في "سيرقو" التابعة لـــ "لاقو"، وقد بادرت هيندانو إلى تقديم هباتها له. أما الثاني، فقد تقدّم من جهة الجنوب، من خلال سوحو، وزار هيندانو ولاقو في طريقه إلى الخابور الأعلى. وبين سنة ٨٩٣ و٨٨٥، كانت بعض مدن الخابور، حيث وجد أدد نيراري الثاني راحته، قد اقتربت ظاهريًا من التحالف اللاقي. وربما تركتهم السلطة الآشورية وشأنهم بعد عبور أدد نيراري. مهما يكن من أمر، ففي سنة ٨٨٥، كان كل واحد مستعدًا لإظهار السخاء الذي كان آشور ناصربال الثاني ينتظره. إلا أن قساوة مزاجه ومكائد القوى الغريبة كانت ستغيّر كل شيء.

في سنة ٨٨٣ ق.م.، قام متمردون باغتيال "هماتايا"، حاكم سورو، وهي أهم مركز لبيث حالوبي، ووضعوا على العرش شخصًا يسمى "أحي – يبابا" الذي أتوا به من "بيث اديني". ويبدو أن الحاكم المغتال لم يكن عميلاً لآشور. ففي سنة ٨٨٥، كان تيگولتي نينورتا الثاني قد وجدَه قائمًا بأعماله. ومع ذلك فإن آشور ناصربال اعتبر هذا العمل بمثابة تمرّد. فانحدر نحو سورو، دون أن يلاقي مقاومة، ودمَّرّ المدينة، ووضع على رأسها حاكمًا جديدًا هو "أزي – ايلو"، وقد انتهز هذه الفرصة ليزيد الجزية على أمراء "لاقو". ولم تكن هيندانو تنتظر سوى هجومه لكي تدفع له الضريبة بدورها.

وفي السنة التالية، رأى حاكم سوتو، للمرة الأولى، رأى من الأفضل أن يؤدي الجزية هو أيضًا. إلا أن مساندة بابل كانت ستشجعه قريبًا على إلغاء هذه التبعية.

وفي سنة ٨٧٨ ق.م.، دنا ملك آشور من جديد من الفرات بإتجاه الشمال والجنوب. وسار كل شيء بدون حادث في الفرات الأعلى وفي لاقو وهيندانو. لكن المراكز السوحية لهاريدو وعانه أغلقت الأبواب بوجهه، وانفجر الخلاف بعنف في الشرق، في "سورو"، التي اتّخذها الزعيم مقرًا له. وهذا الأمير، واسمه بابلي "كودورّو"، شكّل جبهةً بمساعدة أخيه "زبدان" وجيوش كاشية وفرقة بابلية يقودها "بارو". وإذا فقد الأميرُ مدينته الحصينة، فإن البلاد لم تخضع تمامًا للسلطة الغازية.

وبعد هذا الحدث بوقت قصير، ثارت المنطقة كلها ضد آشور ناصربال. وروح الإنتفاضة لم يكن سوى "أزي – ايلو" الذي كان الملك قد أقامه على لاقو سنة ٨٨٣. ودخلت القوات الغازية حتى سوحو، ولكنها لم تتوقف عندها، بل اتّجهت نحو الغــرب ووجّهت قوتها على "أزي – ايلو". فهرب الحاكم المتمرد إلى جبل بشري من خلال بيث أديني التي يبدو انها كانت متواطئة مع المتمردين. وفي هيندانو ولاقو، تمَّ سحق الحزب الوطني واستُعيدت السلطة الآشورية. ويظهر أن سوحو نفسها سقطت تحت سلطة آشور. وهناك أمراء مستقلّون تشبّثوا بالسلطة في جزء من البلاد. إلا أن المناطق الأخرى لم تكن تخضع لهم. وفي وقت متأخر من القرن التاسع، استدعى مواطنون غير راضين الحاكمَ الآشوري "تركال - ايرش" الذي أفلح في الاستيلاء تمامًا على "عانه" التي كانت أحد المراكز الرئيسة.

في الشمال، سعى الآشوريون في التكثير من القرى في السُهب الذي يفصل الخابور عن دجلة، ولاسيّما على طول الطريق التي كانت سابقاً توصل بين آشور ودور كتليمو. وهنا تتفق المعطيات الآثارية مع لائحة التأسيسات التي قام بها "نرگال ايرش"، والتي نجدها على لوح "الرماح" لأدد نيراري الثالث.

وحينما توفرت المعلومات عن ظروف سوحو، في نحو سنة ٧٧٠ ق.م.، نلاحظ أن هذه الدولة يحكمها "حاكم سوحو وماري" الذي يكاد أن يطالب باللقب الملكي، وهو ينعم بسلطة تامة حتى على "عانه"، ويبدو وكأنه يمارس حماية مبهمة على ممتلكات ملك آشور المجاورة. ويظهر أن هذا الزعيم كان على علاقة جيدة مع الإمبراطورية، لأن لقبه "الحاكم" يشير إلى السيادة الآشورية التي إليها يعود، وحكام لاقو ورصابو يبحثون عن التحالف معه أمام خطر مشترك. ولا يسعنا القول كيف تمَّ هذا التوازن الجديد، ولكنه من المؤكد يأتي نتيجة ضعف الإمبراطورية الآشورية بعد عهد أدد نيراري الثالث، ولا بد انه تلاشى أمام عودة القوة إلى الإمبراطورية في عهد تغلاثفلاصر الثالث.

تهديد القبائل المتمرّدة

إذا كان ضعف السيطرة الآشورية يتيح حكمًا ذاتيًا لحكام سوحو، فإنه كان يعرّضهم أيضًا لمشكلة خطيرة تعاني منها كل النظم المضطربة : تكاثر الفئات الخارجة على القانون. أجل، لقد عانى هؤلاء الأمراء كثيرًا من

العصابات (كولود) الآرامية، التي كانت تجد عناصرها في الجماعات القبلية غير المتحضّرة والغريبة عن البُنى الإدارية الإمبراطورية. وقد رأينا أن العنصر الآرامي كان السائد في لاقو وهيندانو، وكان يقوم بدور كبير حتى في سوحو. إلا أن وثائق القرن الثامن الصادرة عن هذه المنطقة تحتفظ باسم الآراميين لفرق مزعجة كانت تنجذب وراء الثروات التي يكدّسها التجار والمزارعون، دون أن يعيروا انتباهًا لطريقة حياتهم. وكانت هذه العصابات المتمردة من سكان السُهب وليس من سكان المناطق المزروعة، وأخلاقهم قد تؤيّد الوصف المهين الذي وصفهم به سرجون الثاني.

ان الكتابة الكبيرة لشمش ــ ريشا ــ أوصور تتكلم عن الغارات الآرامية التي تنفّذها بخاصة قبيلة "تُعمانو". إلا ان نصوص ابنه نينورتا ــ كودوري ــ أوصور، الذي بدأ مُلكه في نحو سنة ٧٦٠، تحتوي على مثلين محفوظين بنوع أفضل. ففي إحدى الحالات يتعلق الأمر بهجوم على مركز متقدّم، وقد أنقذه ضابط من سلاح الفرسان. أما الحدث الثاني والأهمّ، فقد جرى في مطلع عهد هذا الملك، وهو يخص عصابة من ألفَي رجل صمّموا على نهب "لاقو". وكان هؤلاء اللصوص يأملون بأن تزداد قواتهم خلال تقدّمهم في السُهب، وبأنهم سيُلقون الهلع في قلوب حكام المناطق الحضرية. إلا أن حاكم سوحو وماري يفتخر بأنه لاشى هذا الغزو، بمساعدة الحكام المجاورين الذين ترددوا في البدء أمام هذه القوة الزاحفة.

ويصف نينورتا - كودورّي ــ أوصور خصومَه مثل عصابة من رماة السهام. وأبواب بلاوات وأنصاب تل حَلَف تساعدنا لكي نتصوّر مظهرهم. إن هؤلاء المحاربين كانوا يأتون من فروع عديدة من قبيلة "حاتلّو" الكبيرة. ولا يسهل تمييز قائدهم الأعلى، الذي يقدّمونه مثل "ناكيرو"

السروجيين، من مدينة سروج الواقعة على بعد ٤٠ كم في الشمال الشرقي من كركميش، بالقرب من بيث أديني. ونائب القائد كان شخصًا يُدعى "يائي" ابن بلعام، وكان من حماه، ومغامرته مع السوحيين تذكّرنا بالإجراء المعاكس الذي قام به "زكّور" الذي احتلَّ حماه انطلاقًا من سوحو، وذلك قبل ربع قرن من الغزو الكبير الذي نحن الآن في صدده.

إن مثل هذه الأحداث ممكنة في القسم الأول من القرن الثامن ق.م. أما خارج البلاد البابلية، فإن عصر القبائل الآرامية غير المستقرة بلغ نهايته. وقريبًا ستكون الحركات الكبيرة هي تحرّكات الجيوش النظامية وطوابير المسبيين. لقد قربَ الزمان الذي فيه كانت الإجراءات القوية التي اتّخذها تغلاثفلاصر الثالث منذ مجيئه إلى الحكم ستُحكم السيطرة الآشورية على الفرات الأوسط مثلما على الجزيرة، إضافةً إلى المقاطعات التي احتلوها حديثًا في ما وراء الفرات.

الإنتشار الآرامي في غربي سوريا

نظـرة أولـى

في الفرع الغربي من الهلال الخصيب، كانت الحالة مختلفة عنها في الشرق. فهنا، نتيجة انحلال الإمبراطوريتين الحثّية والمصرية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ق.م.، لم تجد الشعوب الآرامية نفسَها في منافسة مع القوى الكبرى مثل الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية.

كانت الإمبراطورية الحثّية قد أخلت الموضع لدويلات أضعف، أو للممالك التي سميت "الحثّية – الحديثة" التي ترقى إلى العصر الحديدي الأول.

ومعظم هذه الممالك كان يشغل القسم الجنوب الشرقي من بلاد الأناضول والشمال الغربي من بلاد سوريا، حيث كانوا يشكّلون قوة ذات أهمية.

أما في الجنوب، فكانت الممتلكات المصرية القديمة منتشرة. وكانت سواحل البحر المتوسط موطنًا للمدن الفينيقية. وفي جنوبي خليج حيفا، كانت "شعوب البحر" قد أسست إمارات عديدة. وربما كانوا يحتلّون موقع "رأس ابن هاني" الذي كان سابقًا موقعًا أوغاريتيًا. وفي موضع أبعد في الجنوب، بين نهر الأردن والسهل الساحلي، كانت القبائل الإسرائيلية، المتميّزة عن الآراميين بعرقها ولغتها، تسير نحو وحدة سياسية لن تبلغها إلا في مطلع القرن العاشر ق.م. وهناك أمم أخرى متجاورة كانت مزدهرة شرقي نهر الأردن، وأشهرها العمونيون والموابيون والأدوميون الذين كانوا يسكنون على هامش البادية السورية، في منطقة يبوك (وادي زرقاء) وإلى الجنوب.

لقد أفلحت شعوب آرامية في السكنى في هذه المناطق، ما عدا المناطق الساحلية. وفي تواريخ وظروف لسنا مطّلعين عليها، تمكنت هذه الشعوب من ابتلاع كيانات أخرى صغيرة، واستولت على الحكم أحيانًا في البلدان الحثّية - الحديثة. أما علاقاتها مع الشعب اليهودي في فلسطين، فهي معروفة من النقوش ومن العهد القديم، لاسيّما من أسفار صموئيل والملوك.

وفي سبيل معرفة طبيعة هذه الشعوب الآرامية ومصيرها، علينا أن نلقي نظرة على المناطق الشمالية والجنوبية من سوريا في الزمان الذي استوطنها الآراميون، والدويلات الآرامية التي استقرّت فيها وعلاقاتها مع جيرانها من الدول ومع القوى الأخرى.

من أمانوس إلى منابع نهر العاصي

الثقافات الكبيرة

كان للشعب الساكن في سوريا الشمالية الغربية والشمالية الشرقية عرق وثقافة معقّدان كثيراً. فكان هذا الشعب ذا طابع سامي منذ زمان طويل. ولكنه اتّسم أيضاً بطابع حوريّ في القرون الأخيرة من العصر البرنزي الوسيط. ولم تتأثر هذه الحالة تأثيراً عميقاً من جرّاء الغزوات المصرية ثم الحثّية في العصر البرنزي الحديث. لا شك أن لغات سامية مختلفة أفلحت في الإبقاء على كيانها جنباً إلى جنب مع اللغة الحورية. وكان لهذه اللغة مكانها الخاص في أوغاريت مثلاً، لكن اللغة الأوغاريتية ظلت هي السائدة، وهي ممثَّلة جيداً على الساحل السوري حتى مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

إن تشكيل الممالك الحثّية - الحديثة لم يغيّر تغييرًا جذريًا التركيب العرقي في شمال سوريا. ونعترف بأن الغموض يكتنف أصل هذه الدويلات. ومعظم الكتابات والآثار عنها لا ترقى إلى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد. لكن مملكتي گرگميش وميليد (متمركزة حول ارسلان تبة في تركيا) تُذكران في نحو سنة ١١٠٠ في كتابات تغلاثفلاصر الأول وغيرها. والحقبة الأولى من معبد "عين دارا" في مملكة "باتينا" قد ترقى إلى القرن الثاني عشر ق.م. وهناك نصوص تكشف لنا عن أن ملوك گرگميش، في العصر الحديدي الأول، كانوا يحملون لقب "الملك الكبير"، وكانوا يمارسون باسمهم الخاص الوصاية على شمالي سوريا، هذه الوصاية التي كان في السابق يخوّلها "حتّوشا" لأجدادهم. وتُظهر الاكتشافات الآثارية الاستمرارية الأساسية، لدى هذه الشعوب، للثقافة المادية والاقتصاد في هذه المنطقة كلها.

كان للحدث الحثّي - الحديث نتائج مستديمة وذات أهمية كبيرة لتفهّم الدول الآرامية. فإذا توصل الآراميون إلى الاستيلاء على السلطة في بعض المواضع من المجموعة المكثّفة التي كانت البلدان الحثّية - الحديثة الشمالية تشكّلها، فإن معظم هذه الممالك احتفظت بهويتها. وحتى في المناطق التي كان الآراميون فيها يشكّلون الأغلبية، فإنهم تأثروا بعمق بالثقافة المحلية لهذه البلدان.

وكان للثقافة الفينيقية أيضًا تأثير كبير في المحيط. وقد تنافست اللغة الفينيقية زمانًا طويلاً مع اللغة الآرامية على حق اللغة الدولية في شمال سوريا وفي البلدان المجاورة. فمنذ القرن التاسع حتى نهاية القرن السابع ق.م. دُوِّنت كتابات الأنصاب باللغة الفينيقية. وأقدم مثل لدينا حتى الآن يأتينا من "زنجرلي" على الجهة الشرقية من نهر أمانوس، وهو نص كُتبَ بعد سنة ٨٣٠ ق.م. بمدة وجيزة في مملكة صارت في أيدي الآراميين، وبلغة ممتزجة باللهجة الآرامية المحلية. وهناك أربع كتابات أخرى تعود إلى العقود الأخيرة من القرن الثامن: الواحدة وُجدت في "حسن بيلي"، على بعد ١٣ كم غربي زنجرلي على الجهة الأخرى من أمانوس. واثنتان هما من "قره تبة" في الشمال الشرقي من قيليقية. أما الرابعة فوُجدت بالقرب من "ايفريس"، وهي بلغتين ومخصصة لذكرى الملك "وَريالاوا" الطياني. وفي نهاية القرن السابع، وجدوا أيضًا كتابة فينيقية بالقرب من "اميدانسيكال" في قيليقية الغربية (هيلاكو).

في اتجاه منطقة قيليقية امتدَّ إشعاع الفينيقيين إلى أبعد من الحضور الآرامي. إلا أن أبجديتهم وبضائعهم لم تمس المناطق الشمالية سوى من

الخارج. في حين انه حيثما وَجَد الآراميون لهم موطئ قدم، أصبحوا عاجلاً أو آجلاً شعبَ البلاد.

الخارطة السياسية

إن تسرّب الآراميين الكبير في سوريا الغربية جرى في منطقة يحدّها من الشمال نهر عفرين وساجور، والتي ستحكمها مملكتا أرباد وحماه – لُعُـــش، في مطلع القرن الثامن عشر ق.م.

في العصر البرنزي الحديث، كانت المنطقة الممتدّة من عفرين حتى منابع نهر العاصي (أورونت) تسكنها كيانات سياسية تتنازع السيادة عليها ميتاني ومصر وحتّي مدة طويلة. إلا أنها كانت دائمًا تقريبًا تحت السيطرة الحثّية طوال الثلثين الأخيرين من القرن الرابع عشر وحتى انهيار الإمبراطوريات في مطلع القرن الثاني عشر ق.م.

وخلال التغييرات المتلاحقة، ظلت حلب دائماً على الخارطة. وهناك مملكة "أمورّو" تُذكَر بصورة مبهمة في نحو سنة الألف، بالرغم من التأثير القوي الذي تمارسه شعوب البحر. وظهرت "نوحشّي" من جديد في القرن التاسع تحت اسم متغيّر (لوهوتي بالأكدية، لعش بالآرامية). أما "ايمار" ومدن العاصي، فقد توارت من الساحة السياسية في نحو نهاية العصر البرنزي الحديث ومطلع العصر الحديدي، وانتقلت السلطة بعامة نحو مراكز جديدة كانت في الغالب مستقرة على مواقع مسكونة منذ زمان طويل. ولكنها في البلاد الآرامية، كما في البلاد الحثّية ــ الحديثة، كانت عادةً أصغر من العواصم الكبيرة من العصر البرنزي.

سوريا الجنوبية

التغييرات الجغرافية (جغرافية سياسية) في العصر الحديدي الأول

في جنوب خط الحدود، الذي حدّدنا موقعَه عند منابع العاصي، كان مسرح الإنتشار الآرامي مختلفاً جداً. في داخل الأراضي، كان الطابع الحوري على الطبقة القائدة لا يختلف كثيراً عن الطابع الذي يسِم بقية سوريا. لكن ملوك "حطّي" والسلالات التي جاءت بعدهم لم يكن لهم قط تأثير مستمر في المنطقة. أما السيادة المصرية فقد استمرت حتى منتصف القرن الثاني عشر، واشتدت وطأتها بخاصة وأكثر فأكثر على بعض المواقع المهمّة، لاسيّما في الجنوب الغربي.

وفي هذه الحقبة، نشهد ظهور دويلات تنعم بالحكم الذاتي حينما تضاءَل تأثير الإمبراطورية. وكانت القــرى تتكاثر في الأراضي المرتفعة على جهتَي نهر الأردن والبحر الميت. أما اللغات التي تتكلمها هذه الفئات فستكون العبرية واللهجات المتعلقة بها.

وقريبًا، لاسيّما طوال الربع الثاني من القرن الثاني عشر، ستُسيطر "شعوب البحر على معظم المواقع الساحلية الكائنة جنوبي "سان جان داكر". وإلى الشمال، كان التمركز الرئيسي للمدن الفينيقية يحتفظ بهويته العرقية والثقافية، ولكنه كان يسير نحو الإختفاء.

الدول التي ابتلعها الآراميون

إن سكنى الشعوب التي تتكلم اللغة الآرامية سيكون محدودًا، في خطوطه الرئيسة، في الشرق بالصحراء السورية، وفي الغرب بسلسلة لبنان الساحلية وبالمنشآت الإسرائيلية، وفي الجنوب بالشعوب العمونية الساكنة في يبوك الأعلى. لم تكن هذه المساحة فارغة في الزمان الذي فيه حلَ فيها الآراميون، إلا أن الوثائق لا تُطلعنا على هوية سكان البقعة السابقين وعلى الزمان الذي فيه ذابوا في الآراميين.

وهنا نستند في إعادة تكوين الأحداث إلى ما جاء في العهد القديم، ولاسيّما الروايات التي جاءت في سفر صموئيل (٢ صم ٨ و١٠). وبين الأعداء الذين تحالفوا مع العمونيين ضد الملك داود، تذكر هذه النصوص آراميي بيث رحوب وصوبة، وكذلك ملك "معكة" ورجال طوب (٢ صم ١٠/٦). ولا نعرف شيئًا عن "طوب" ما عدا أن هذا الاسم هو من الصبغة السامية الغربية، وان هذه الأحداث تجري في منطقة شرقي الأردن (راجع سفر القضاة ١١/٣). ويبدو أن كاتب صموئيل الثاني (١٠/٦) يميّز معكة عن الآراميين. والمقاطع التي تجعل هذه البقعة من ضمن الممالك الآرامية قد تكون نتيجة تحالفها مع الآراميين (٢ صم ١٠/٨-١٤). فيسوّغ لنا التفكير في أن معكة لم تكن مملكة آرامية، بل دولة قديمة تمكنت بعض الوقت من الإحتفاظ بهويتها المتميزة وسط التغييرات الطارئة في العصر الحديدي الأول. ودعمًا لهذا الرأي، قال البعض أن معكة كانت موجودة في وقت سابق، وان مدينة "أبيل بيث معكة"، التي لا بد من أنها كانت جزءاً من معكة

في أحد الأزمان، كانت تظهر في لائحة المدن التي استولى عليها "طوطمس" الثالث المصري. وإذا قبلنا بتشخيص هذه المدينة بموقع تل "أبيل القمح" غربي دان، تسنّى لنا التفكير في إمارة واقعة قديمًا جنوبي جبل حرمون وشرقي الجليل الأعلـــى. والتغييرات الكبيرة التي جرت في العصر الحديدي الأول تكون قد انتزعت من معكة جزءَها الغربي، وحكمت عليها بالعيش في ظل إسرائيل، ولاسيّما في ظل آرام، ريثما يتمّ صهرها في وقت لاحق.

أصعب من ذلك هي قضية مملكة "جشور" التي لا تظهر في تحالف (٢ صم ١٠). هناك نصوص تحدّد موقعها بجوار معكة وتشكل معها الحدود الغربية لباشان (راجع يشوع ١٢/٥، ١٣/١١ و١٣). ونصوص أخرى تخص تاريخ خلفاء داود الملك (٢ صم ٣/٣، ١٣/٣٧، ١٤/٢٣، ٣٢، ١٥/١٨) تجعل "تلماي" ملك "جشور" جَدّاً لأبيشالوم من أُمه معكة. واحد هذه النصوص، وهو (٢ صم ١٥/٨) يضيف إلى كلمة "في جشور" العبارة الشارحة "في آرام". وإذا أولينا هذه النصوص قيمة تاريخية، تسنّى لنا القول إن جشور، المملكة الصغيرة القابعة جنوبي معكة، كانت قد أصبحت آرامية منذ عهد الملك داود. وربما أن هذا الواقع سهَّلَ المصاهرة بين داود وتلماي. وهذا يشرح أيضًا عدم اشتراك جشور في الحروب الآرامية ضد الملك داود التي دارت بعد ذلك. وسنستطيع الإفتراض، على ضوء (يشوع ١٣/١٣) أن معكة أيضاً كانت قد أصبحت آرامية، وهذا من شأنه أن يشرح عدم طرد الجشوريين والمعكيين.

إلا أن هذه تبقى مجرد فرضية. أما ما جاء في (٢ صم ١٥/٨)، فقد يشير إلى أصل متأخر لقصة داود، إلى زمان فيه قد ذابت دولة جشور في دمشق. ويسعنا، والحالة هذه، أن نولي عدم اشتراك جشور في تحالف هدد

عزر كل ثقله، وذلك في استعادة اسمها في إحدى رسائل "العمارنة"، وإلى المظهر الحوري لاسم "تلماي" حمي داود الملك. وهكذا نكون إزاء دولتين في الشمال الغربي من وراء الأردن، وقد استمرت هويتهما إلى ما بعد العصر البرنزي.

إن هذا التأويل يتناسق مع المعطيات التي اكتشفتها التنقيبات الآثارية في منطقة شرقي بحيرة طبرية، في بلاد جشور. فقد تمَّ التنقيب في هذه المنطقة للمرة الأولى سنة ١٩٦١، وللمرة الثانية سنة ١٩٨٧. وأظهرت النتائج أن التحصينات والبنايات العامة والخزفيات من المستوى الرابع ليست آرامية ولا إسرائيلية.

إلا أننا لا يمكننا الاعتماد دوماً على علم الآثار لتحديد زمان وصول الآراميين إلى دمشـــق، التي ستصبح قريبًا القوة الرئيسية للآراميين وأولى عواصمهم المهمة. كذلك لا يمكننا أن نثق بالمصدر الذي يُعتبَر ظاهريًا أقدم مصدر يربط دمشق بالآراميين (٢ صم ٨/٥...). فإن هذا النص يقطع استمرارية موجز العمليات الحربية التي قام بها داود ضد صوبة. ومن الأفضل القول انه ليس ثمة شهادة أكيدة عن عودة دمشق إلى العالم الآرامي قبل ثورة "رزون" في زمان سليمان (راجع ١ ملوك ٢٣/١١-٢٥). فهنا كما في جشور ومعكة، ربما دام نظام العصر البرنزي الحديث حتى سيطرة إسرائيل في مطلع القرن العاشر. فلا أحد يعرف الدور الذي قام به الآراميون بجانب السكان الأصليين، ريثما يقوم واحد منهم بالاستيلاء على السلطة.

إن مجيء الآراميين أثر في سكان سوريا أكثر من تأثير الغزوات المصرية أو الحثّية وغيرهما. ولم يُدخِل الآراميون إلى أي مكان أشكالاً راقية من ثقافة غنية ومعقدة. إلا أن لغتهم فرضت ذاتها شيئاً فشيئاً في مناطق

شاسعة. وقد كتب الأب هابيل الدومينِكي عنهم: "إن تأثيرهم العرقي لم يكن رهن المصادفة، بل انتصر على حضارات متقدمة عليهم تقدّماً كبيراً، واستمر حتى حينما وجد الآراميون أنفسَهم خاضعين من جديد لسلطات غريبة" [١].

ولا يسعنا تحديد الوسائل والسرعة التي فيها تمَّ هذا التغيير. ولكننا نستطيع أن نتصورها على مثال تعريب الشرق الأدنى، وقد تكون إعادة عامة لما جرى في السابق. وكما أن التعريب كان أسرع في سوريا وفلسطين منهما في مصر، كذلك التأثير الآرامي سيكون قد جرى في سوريا الداخلية بصورة أسرع حيثما كان الناس يتكلمون لغات سامية الشمالية الغربية منه بين الشعوب الحورية أو الحثّية ــ الحديثة.

[١]ـ الأب هابيل، جغرافية فلسطين، المجلد ١، باريس ١٩٣٣، ص ٢٤٦.

الفصل الرابع

الآرامِيّون في الشمال الغربي من الشرق الأوسط

ألقينا نظرةً سريعة على الآراميين، فتناولنا أصولَهم وانتشارهم السريع في مختلف المناطق السورية، وفي أجزاء عديدة من بلاد الرافدين. ثم تكلمنا عن وجودهم في المنطقة الشرقية، وفي منطقتَي الجزيرة والفرات الأوسط.

فنسلّط الآن الأضواء على بعض الأماكن التي تمركزَ فيها الآرامِيّون في القسم الشمالي من بين النهرين، وتمكنوا من تشكيل دويلات أو إمارات تنعم ببعض الاستقلالية، وشرعت تسبّب شيئاً من الإزعاج للبلدان الكبيرة المجاورة.

الظهورات الأُولى

إن المسيرة التي اتّبعها التغلغل الآرامي في شمال سوريا بعد كارثة القرن الثاني عشر مسيرة غامضة. فأقدم شهادة أكيدة، وهي شهادة الملك

الآشوري تغلاثفلاصر الأول (١١١٦-١٠٩٠ ق.م.) تفترض حضوراً آرامياً على طول المنحنى الغربي للفرات الأوسط حتى كركميش، وكذلك على سبل جبل بشري نحو سوريا الوسطى، عبوراً بتدمر. إن هذه النصوص التي تلقى إجمالاً تأييداً قوياً في المقاطع التي جاءتنا من عهد الملك آشور ــ بل ــ كالا الأول (١٠٨٧-١٠٧٠ ق.م.) تطلعنا، منذ القرن الحادي عشر، على ضغط متواصل يُمارَس على هذه الجبهة الواسعة، وعلى إمكانية تغلغلات متفرقة في المناطق السورية الواقعة غربي الفرات. إلا أن المثَل الأفضل قد يكون الذكر الذي احتفظ به الملك الآشـــوري شلمناصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م.) عن الاستيلاء على بيترو وموتكينو، الذي حققه "ملكٌ لآرام" في عهد الملك الآشوري آشور - رابي - الثاني (١٠١٢-٩٧٢ ق.م.). ويُعتقد أن بيترو" كان موضعًا يقع على الجهة الغربية من الفرات، غير بعيد عن تل برسيب. وقليلاً نحو الجنوب وقد وردتنا علامات تحدونا إلى التفكير في أن فئات آرامية استطاعت أن تجتاح بلاد "اشتاتا"، فتضع حداً للعهد البرونزي. إلا أن هناك ختمًا لكوزي - تشوب من كركميش يحملنا على الاعتقاد بوجود فترة من الصراع وعدم الاستقرار في هذه المنطقة.

وإذا استثنينا ما جاء في نصوص العهد القديم، علينا أن ننتظر القرن التاسع لكي نلقى شهادات جديدة مكتوبة تتعلق باستيطان الآراميين في الشمال الغربي من سوريا، ولائحة السلالات المستخدمة في كتابة "كولاموا" تشير إلى أن "جبّار" (كبار)، وهو الملك الأول لسمأل، يرتقي إلى نهاية القرن العاشر. وتظهر "بيث أديني" للمرة الأولى بصورة أكيدة في سنة ٨٩٩، حينما تفاوضت "بلاد أبنـــاء أديني" مع الملك أدد - نيراري الثاني. و"غوش" الياحاني الذي سيعطي اسمه لبيث أغوشي المتمركزة على أرباد، يمثُل أمام

آشور ناصربال الثاني (٨٨٤-٨٥٩ ق.م.) في عاصمة "باتينا" المجاورة، وذلك في حدود سنة ٨٧٠. وبالمناسبة نفسها، نطّلع للمرة الأولى على بلاد "لوخوتي"، وهي بدون شك "لُعُش" نفسها التي سيُلحقها "زكور" بمملكة حماة في مطلع القرن التالي.

بيث أديني

إنها مقاطعة تقع عند مدخل العالم الحثي - الحديث والبلاد الآرامية الشمالية. ونستقي معلوماتنا عن "بيث أديني" من نشرات تروي انتصارات شلمناصر الثالث في السنوات ٨٥٨-٨٥٥ ق.م، ومن التنقيبات التي قامت بها البعثات الآثارية الفرنسية في "تل برسيب" (١٩٢٩-١٩٣١)، وتلك التي أجرتها في ارسلان تاش سنة ١٩٢٨، يُضاف إليها منذ سنة ١٩٨٧ التنقيبات التي أجرتها جامعة مالبورن الاسترالية.

تحالف قديم ضعيف الارتباط

ظهرت "بيث أديني" للمرة الأولى في حوليات الملك أدد - نيراري الثاني سنة ٨٩٩ ق.م، حيث يرسم النص مجملَ حدودها ويكشف عن طبيعتها. فيروي أدد - نيراري انه بينما كان في جوار "حوزيرينا"، "تلقّى قردتَين، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، من بلاد أبناء أديني الواقعة على طول الفرات". وتجدر الإشارة هنا إلى ان النصوص الآشورية لا تسمي أي أمير من هذا الشعب، إلى تاريخ ما بعد سنة ٨٧٦. ومن الأحداث ذات الدلالة انه، في سنة ٨٨٣، حينما قام ثوار بقتل "حمتايا" من "بيث حالوبي"،

واستبدلوه برجل "أتوا به من بلاد بيث أديني"، لم يجد آشور ناصربال الثاني (٨٨٤-٨٥٩ ق.م.) أي زعيم لهذه الأمة ليُنحي عليه باللائمة على هذه الجريمة.

وحينما ظهر "أحوني" "ابن أديني" بُعَيد سنة ٨٧٦، نلاحظ من السياق انه ليس ملكاً وريثًا لدولة موحَّدة. ويروي آشور ناصربال أولاً كيف زحف إلى "بيث أديني" ودمَّرَ مدينتهم "كبرابو"، ثم يشير إلى أن أحوني ابن أديني أدّى له الجزية. ويظهر أن أحوني هذا وقف على الحياد في النضال اليائس الذي خاضه أدينيو كبرابو. كما انه لم يتحرك في السنة السابقة أيضاً حينما دمَّرَ الآشوريون موقعَين آخرين من بلاده حيث كان عصاة من "لوقو" قد وجدوا لهم ملاذاً. فإن حادث "كبرابو" اضطرَّ أحوني إلى أداء الجزية لكي يظلَّ في حمى من النقمة الآشورية. إلا أن النص لا يزوّدنا بأرقام واضحة، ويبدو أن الأموال التي سُلمت إلى الآشوري لم تكن طائلة. وقد يشير ذلك إلى أن "بيث أديني" لم تخرج من الحالة الاجتماعية القبلية إلا ببطء. وكان "أحوني" يتوخّى تطوير شعبه تطويراً سريعاً، إلا انه في السنوات الأولى من حكمه، لم يتميّز بشيء عن أمثاله، حتى انه كان في وسع مركز مثل "كبرابو" أن يقرّر الحرب أو السلام، بدون الرجوع إليه. ولم تكن المبادرات التي تقوم بها مختلف القبائل أو المقاطعات لتلزم مسؤوليته أمام أقرانه ولا أمام الغرباء. لم يكن لبيث أديني ترابط أقوى من "لاقــو" حيث كانت "بيث حالوبي" - وهي عضو مهم في التحالف - قد استطاعت في وقت سابق أن تقف على الحياد من انتفاضة عامة ضد آشور ناصربال الثاني.

معضلة مسواري ـ تل برسيب

إن هذه اللامركزية المستمرة تساعدنا لنفهم كيف استطاعت مدينة مسواري (وهي تل برسيب وتُدعى اليوم تل أحمر) أن تحتفظ بملوكها وبثقافتها الحثية - الحديثة إلى وقت يسبق بقليل الغزو الذي قام به الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق.م.) لبيث أديني. فهذه الدولة، الواقعة على الشاطئ الشرقي من نهر الفرات، على بعد نحو ٢٠ كم جنوبي كركميش، كانت محاطة بممتلكات تعود إلى بيث أديني. ولدى دنو الخطر، توصلَ "أحوني" إلى جمع البلاد كلها تحت سيطرته المباشرة. وإذ ذاك فقط، بدأت النصوص تسمي تل برسيب "مدينته الحصينة" أو "مدينته الملوكية". ولا يمكننا أن نقول هل ظلت مسواري مستقلة إلى مبادرة أحوني هذه، أو هل كانت من قبل تشكّل جزءاً من بيث أديني، سواء بصفتها عضواً كاملاً أو بصفة نوع من الحماية. ويبدو من غير المرجَّح أن يكون "أحوني" قد استولى بسهولة على مسواري، لأن دويلات حثية - حديثة عديدة ساعدته ضد آشور ناصربال، من ضمنها كركميش التي كانت قريبة من مسواري وفي الوقت نفسه لا تميل إلى مجابهة الإمبراطورية الآشورية. وتجدر الملاحظة إلى أن اسم "مسواري" القديم لم يختفِ سريعًا. فهناك كتابة من العهد الآشوري على الأسود القائمة على حراسة الباب الشرقي من "ارسلان تاش" تذكر هذا الاسم في صدد أمير أو حاكم تتعذر قراءة اسمه.

جغرافيـة بيث أديني

يبدو أن "بيث أديني" كانت تمتدُّ على شكل قوس، وتغطي أكبر جزء من منعطف الفرات. أما في الجهة الجنوبية الشرقية فكانت تدنو من مصب الخابور، بحيث استطاع آشور ناصربال الثاني، بُعيدَ سنة ٨٧٨ ق.م.، أن يدخل إليها مباشرة، في ملاحقته المتمرد اللاقي "أزي – ايلو". وكانت في الشرق مفصولة عن وادي البليخ بدول صغيرة، مثل "تل أبني" و "أشو وإمِّرينو" و "سروج "، وهي دول تدور في فلكها. وكان جزء كبير من أراضيها يقع غربي الفرات، كما يصرّح بذلك الملك الآشوري شلمناصر الثالث. ولكن حتى الآن لم يتمّ تشخيص الكثير من المواقع في تلك المنطقة. ولكننا نظن ان "تبّيجي" تتناسب مع مدينة منبج، وهي هيرابوليس الشهيرة بـ "آلهتها السورية"، وتقع على بعد أقل من ٢٠ كم في الجنوب الغربي من تل برسيب. وقد قلنا أيضاً ان "بيترو" كانت على شاطئ الفرات الغربي، غير بعيدة عن تل برسيب. أما "باكاراهوبوني" فكانت موضع الخلاف الدائم بين الدول المجاورة لها، وكانت في ذلك الزمان تعود إلى بيث أديني، وتقع أيضاً على الضفة اليمنى من نهر الفرات، بالقرب من "كومّوح" و "كركم"، في موضع "غازي عنتاب" الحالية أو قليلاً إلى شماليها.

إن هذه التشخيصات وغيرها تحدونا إلى الاعتقاد أن معظم المواقع الأدينية كانت تقريباً على مستوى موقع "تل برسيب"، وقليلاً نحو الشمال حيث نجد حوض كركميش المهم. وهناك اكتشاف حديث من شأنه أن يسلّط بعض الأضواء على المنطقة الكائنة شرقي الفرات. فقد عُثر في "تل شيوخ فوقاني" شمالي تل برسيب (تل أحمر)، وعلى مستوى قريب من كركميش، على لوحين يذكران اسم "بر مارن" قد يكون الاسم القديم لهذا الموقع. ويقال

أن شلمناصر الثالث، في تقدّمه نحو الشمال سنة ٨٥٨، وبعد محاولة أولى ضد تل برسيب، استولى على موقع "بر - مار - إي – نا" وهي مدينة ذات اسم آرامي قد تكون في علاقة مع بيث أديني. ويعني هذا الاسم "ابن ربنا أو سيدنا". وقد يكون هذا السيد المذكور هو "أفلاداد" الذي ظهرت أهميته في الفرات الأوسط من جديد في وثائق "سوحو".

فنرى أن "بيث أديني" كانت تمتد إلى مناطق واسعة، يختلف المناخ فيها اختلافًا كبيرًا، ابتداءً من المناطق الخصبة والمروية في الشمال، حتى السهب والبراري القاحلة في الجنوب. وفي الوقت نفسه، كانت هذه البلاد تتّسم بسعة تضاهي ما ستبلغه مملكة "أرباد"، ولكن أقل من "حماة – لُعُش" الكبيرة في القرن الثامن. ولا شك أنها لم تكن تتفوّق على سعة مملكة دمشق في عهد "أحوني". ولا يسعنا إلا أن نندهش أمام الصلابة التي بها جابه هذا الكيان السياسي، الذي ما كاد أن يحقق وحدته، الضربات الآشورية العنيفة.

الغزو الآشوري

لقد روى مؤرخو ذلك الزمان وحلّلوا تلك الهجمات المتلاحقة والناجحة التي شنها الملك الآشوري شلمناصر الثالث. ويظهر ما أبداه الملك الآشوري من الإصرار ضد "أحوني" وبلاده، على ضوء مشاريعه اللاحقة في سوريا الغربية وفي الأناضول. فما عدا كركميش التي كانت تساند "أحوني"، والتي لم يكن الغازي يريد أن يستنزف فيها قواه وطاقاته العسكرية، كانت بيث أديني تسيطر على بيرسيك وتل أحمر على أفضل المواقع لعبور الفرات، وذلك بإتجاه الفرائس الأبعد التي كان يشتهيها. وتروي أخبار شلمناصر انه بعدما استولى على مدينة "بر مارن"، لم يعبر الفرات إلا ليدخل

إلى "كومّوح". ولا بد انه سار على طول الشاطئ الشرقي من النهر بإتجاه الشمال، متجنّبًا هجوماً مباشراً على كركميش.

وفي سنة ٨٥٨، عند دنوّ شلمناصر الثالث، اتفق معظم جيران "أحوني" على رفض الخضوع للامبراطورية الآشورية، واتحدوا للدفاع عن خط الفرات. ولم يجابه شلمناصر بيث أديني وحدَها، بل سمأل أيضًا وباتينا وكركميش، وقد انضمَّ إليها في وقت لاحق كلتا القيليقيتين (قوِي وهيلاكّو) وياحان، وحتى شعب "يزبوك" الصغير. ولم يستطع الملك الآشوري أن يستولي على تل برسيب، ولكنه أحرز انتصارات باهرة على مسرح أوسع بكثير، من سمأل إلى باتينا، ومن أمانوس إلى ساحل البحر المتوسط.

وفي السنة التالية، وجدت بيث أديني نفسها معزولة، وفقدت كركميش مدينة "شازابي"، وستؤدي الجزية قريباً شأن معظم حلفاء سنة ٨٥٨. ولم يفلح الآشوري بعد في اقتحام تل برسيب. إلا أن "أحوني" يشاهد بيأس عميق خراب مئتين من مدنه، ومن ضمنها ستة مواقع حصينة، ولا سيما "دابيكو" قلعة "حطي"، التي جاءت قصة احتلالها ونهبها مرسومة على أبواب "بلاوات". وتجدر الملاحظة أن هذا اللقب الذي أُعطيَ لدابيكو يُظهر التداخل الآرامي والحثي - الحديث. وكذا الشأن مع اسم "شازابي"، وهي مدينة عائدة إلى ملك كركميش، ولكن اسمها يبدو ساميًّا.

وفي سنة ٨٥٦، أعاد شلمناصر الثالث الكرة على تل برسيب. فتخلّى عنها "أحوني" مع القسم الأكبر من جيشه، وهربوا إلى ما وراء الفرات. ولما استولى شلمناصر على تل برسيب، غيّرَ اسمها وأطلقَ عليها اسم "كار شلمناصر". وهكذا فعل أيضًا لمدن أخرى احتلّها وأقام فيها قصوراً ملكية فخمة. وفي سنة ٨٥٥، اضطر "أحوني" إلى المراهنة على آخر معركة، في

"شيتامرات"، وهــو موضع يوصف مثل جبل وعر على شاطئ الفرات، ومثل مدينة حصينة، ولكننا نجهل موقعها. وقد ورد ذكر هذا الحادث مرات عديدة في كتابات شلمناصر، التي تعلن ان المناضل العنيد "أحوني" سُبيَ مع ما تبقى من قواته، ودُمجَ في الشعب الآشوري.

بيث أديني في الإمبراطورية الآشورية

إذا كانت بعض المدن الواقعة ما وراء الفرات قد أصبحت مستعمرات آشورية، فلا يبدو شلمناصر لا يبدو انه احتلَّ الجزء الغربي من بيث أديني. وفي "كار شلمناصر" وفي "حداتو" شرقيها (وهي أرسلان تاش) عُثر على آثار مهمة تشير إلى الحضور الآشوري.

كار – شلمناصر

لقد عثرت البعثة الآثارية الاسترالية في كار شلمناصر على آثار آرامية. وجاءت الكتابة الكبيرة للقائد الأعلى الآشوري "تورتانو" المسمى "شمشي – ايلو" التي تروي حملة ضد "أرغيشتي" الأول ملك أورارتو (٧٨٩-٧٦٦ ق.م.)، منحوتة على أسدين ضخمين من النموذج الحثي - الحديث. إلا أن الأثر الرئيسي لا يكشف شيئًا متميزًا عن الآراميين تحت النظام الآشوري. فالأمر يتعلق ببلاط آشوري نموذجي مثل بلاط "ارسلان تاش"، يرقى إلى النصف الثاني من القرن الثامــن، وهو شهير لاسيما لأجل جدرانياته. إلا أن "شمشي – ايلــو"، وهو المحتل الأشهر لكار - شلمناصر، عانى الكثير من العالم الآرامي. فطوال فترة أولى من وظيفة "تورتانو" التي بدأت منذ عهد أدد نيراري الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق.م.) وتواصلت في الأقل

حتى سنة ٧٥٢ ق.م.، كان شمشي ــ ايلو مسؤولاً، من الشمال الشرقي حتى الشمال الغربي، عن القطاع المتقدم من الإمبراطورية. وبعد سنة ٧٩٦ بفترة وجيزة، تدخل، بجانب ملكه، في شؤون مملكتي أرباد وحماة المهمتين، وقادته حملةٌ أخرى إلى دمشق سنة ٧٧٣ ق.م.

حَــداتو

يظن الآثاريون انها ارسلان تاش الواقعة على مسافة ٩ كم في الجنوب الشرقي من "عين عرب" التي هي محطة يمرُّ بها القطار القادم من بغداد. ولقد وُجد شيء من تراث حَداتو الآثاري في "تل حجّيب" الواقعة على مسافة كيلومترين شرقيها.

كانت مدينة "حداتو" تقع على خط عرض كركميش، على مسافة ٣٠ كم في الشمال الشرقي من "كار شلمناصر". وكان موقعها مؤاتياً لتكون مرحلة بين هذين المركزين وبين حرّان. وتُظهر النقوش انها كانت تدور في الفلك الإداري لكار ــ شلمناصر. ولدينا نص جاء بلغتين، فيه يقدّم مؤلفُه نفسَه كحاكم لكار شلمناصر و"خصي" الملك شمشي أدد الخامس (٨٢٣-٨١١ ق.م.). وهو يفتخر بأنه بنـــى أسوار "حداتو". وهو، مثل "حدو – يتعي" في غوزانو، يستخدم الآرامية، بالإضافة إلى الأكدية. وهــو عابد للإله الصاعقة، ويذكر "مدينة بيث أبي". ويمكننا الاعتقاد انه من المنطقة وانه من أصل آرامي. والاستشهاد بشمشي أدد الخامس يجعل المؤلف سابقاً لشمشي ــ ايلو، ويتيح لنا تحديد تاريخ بناء أسوار مدينة "حداتو" بالقرن التاسع قبل الميلاد. وهذا ما يساعد على إدراك حضور آثار حثية - حديثة.

مملكة سَمأَل

الموقع الجغرافي وأسماء المملكة

كانت سَمأل الدولة الأولى التي قاومت الملك الآشوري شلمناصر الثالث عند قيامه بحملته ضد بيث أديني سنة ٨٥٨. فبعد ان تلقّى الملك الآشوري هدايا "كركم" (وهو بلد يتمحور حول مرعش، شمالي أمانوس)، توجّه نحو "لوتيبو" المدينة المحصنة في "حيانو" (حيّا الآرامية) في بلاد سمأل، وقد تلقت مساندة في مقاومتها من "أحوني" ومن ملكَي "باتينا" و"كركميش". ويزوّدنا هذا الحدث بأقدم معطيات عن حالة سمأل الجغرافية. فهو يظهرها متاخمة لكركم. وهذا ما سيتأكد بعد قرن بامتداد سمأل على حساب هذا الجار نفسه. وهناك نص آخر لشلمناصر يعود إلى سنة ٨٥٧ يضع "حيّا" في سفح جبل أمانوس. وبعد نحو ثلاثين سنة، يفتخر الملك "كولاموا" بأنه وضع حدًّا لضغط جار آخر كان يملك على مدينة "أدنه" وقيليقية السفلى.

وتُطلق النصوص على "حيّا" لقبين مختلفين: فهو من "سمأل"، وفي الوقت نفسه "دومو كبّاري". أما سمأل فهو اسم سامي يعني "الشمال"، وسيشير إلى هذه الدولة في الكتابات الآرامية من القرن الثامن. أما " كبّاري " فلفظة آرامية تعني "الجبّار، البطل". والكتابات بالفينيقية وباللهجة الآرامية تضيف صفة أخرى: إنها تدعو المملكة باسم "يعدي". ولكن يبدو أن سمأل كان في الوقت نفسه اسم البلاد واسم مدينتها الرئيسية، كما هو الشأن مع أرباد وحماة أو دمشق.

زنجرلي والمواقع المجاورة لها

على ضوء الكتابات، توصلت التنقيبات الألمانية التي أُجريت في المنطقة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلى تأكيد هوية "زنجرلي" التي تقع شمالي "إصلاحية" وشرقي أبواب أمانوس، وعاصمة بلاد سَمأل التي تمثّل حقًا "الشمال" وأقصى تقدّم الآراميين نحو الشمال الغربي من الفرات، في منطقة رطبة وذات أدغال، مختلفة جداً عن المناطق الأخرى التي سكنها الآرامِيّون الآخرون. وهناك علامات تتيح لنا أن نلحق بها مواقع أخرى عديدة.

زنجرلي وآثارها

لقد عُثر في زنجرلي على أشياء قديمة جداً. إلا أن التنقيبات تركزت على حقبة العصر الحديدي. وما نعرفه عن تاريخ هذا الموقع يستند بصورة رئيسية إلى فن البناء والنقوش وتاريخ الفن، وهو يتمحور حول القلعة الملكية.

في العصر الحديدي الثاني، كانت المدينة محاطة بسور دائري قطره ٧٢٠ متراً. وكانت القلعة تشغل خمسة من هكتاراتها السبعة والثلاثين. وكان في الجهة الجنوبية من السور باب يرقى إلى القرن التاسع. أما الآثار الأخرى، فكان "كولاموا" وخلفاؤه قد أقاموها، وكانت مجموعة في الشمال وفي الشمال الغربي. وتجدر الإشارة إلى انه لم يُكتشَف أي معبد في قلعة سَمأل.

وهناك لوح بالخط المسماري يشير إلى أن هذه المجموعة من الآثار كانت ما تزال قائمة حتى سنة ٦٧٦ ق.م. إلا أن سَمأل دُمّرت بعد زمان قصير، وأعاد الآشوريون بناء القلعة بحسب تصميم مختلف جدًا.

وما عدا هذا اللوح، لدينا بعض التواريخ التي تنقلها إلينا نقوش "كولاموا" و"بر ركيب". وعلى هذا الأساس، علينا أن ننسب إلى الملك "كولاموا" بلاطاً يقع في شمال القلعة، وإلى بر ركيب بلاطاً آخر مرتبطًا بالأول، والجزء الشمالي من الرواق الكبير الواقع في الشمال الغربي.

تاريخ بيث كبّاري

الأصل والملوك الأوائل

إن أصول سَمأل غير معروفة جيدًا، وكذلك نهايتها. وكانت محاطة بفروع من الإمبراطورية الحثية ومتأثرة بعمق بالتقاليد الفنية الحثية - الحديثة. ولا ندري كيف تسنّى للآراميين أن يستولوا على السلطة فيها، ولا متى تمَّت لهم هــذه السيطرة. ولا يُستبعَد أن تكون المدينة قد حظيت بتحصيناتها وبناياتها الأولى قبل مجيء الآراميين إليها.

إن كتابات كولاموا وبر ركيب لأبيه "بانامــوا" والتزامنات التاريخية مع الإمبراطورية الآشورية تتيح لنا إعادة تكوين لائحة ملكية آرامية بدون أخطاء كبيرة، وتسلسلاً تاريخياً تقريبياً. فالسلف الأول الذي يحتفظ كولاموا باسمه هو "كبّار"، ومكانه في رأس اللائحة مثبت بلقب "ابن كبّار" الذي تعطيه نصوص شلمناصر الثالث لــ "حيّا". وبين "كبّار" و"حيّا" يسمي كولاموا شخصاً آخر ليس اسمه واضحاً. وإذ كان "حيّا" يملك في سنة ٨٥٨ ق.م.،

فيمكن أن يكون "كبّار" قد شغلَ منصب الزعامة على سَمأل بعد سنة ٩٠٠ ق.م.، في زمان كان فيه شعب أديني موجوداً على طول ضفاف نهر الفرات. وبالنظر إلى شهادة أقدم عن هذه الأمة الأكبر عدداً، وقرب حدودها، وتعاون الشعبين في وقت اجتياح شلمناصر لبيث أديني ــ وهذا هو المثل الوحيد للخصومات بين سَمأل والبلاد الآشورية - فإن شعب سَمأل يستمدُّ أصولَه من بيث أديني التي قد يكون "كبّار" أحد الفروع المنفصلة عنها.

وإذا أسس "حيّا" أمة، فهو لم يؤسس سلالة. وبعد جهوده الحربية سنة ٨٥٨، خضع وأدّى الجزية للإمبراطورية الآشورية. وقد خلفَ "حيّا" ولداه بالتتابع، ويسمى أحدهما "شئِل"، والآخر "كولاموا".

كولامـوا

لا نعرف شيئاً عن "شئِل". أما كولاموا فمعروف أكثر، بفضل كتابته الفينيقية. فهو يفتخر بأنه حطّمَ قبضة ملك "أدنه"، إذ دفع عن خدمات ملك آشور، وانه غيّرَ شقاءَ بلاده إلى الرخاء والازدهار. وتجدر الملاحظة أن لهذا الأمر ما يوازيه في العصر الحديدي. وهناك شهادات كثيرة مماثلة وردت في العهد القديم، نخص بالذكر منها: ٢ صم ١٠/٦، ١ ملوك ١٠/١٨، ٢ ملوك ٧/٦، ١٦/٧...

لا شك أن عهد كولاموا كان الذروة لسَمأل. وقد عرف هذا الملك أن يجني أكبر فائدة من خضوعه للإمبراطورية الآشورية الذي كان والده قد رضي به. ولا يسعنا أن نحدّد نهاية عهد كولاموا، إنما نفترض بصورة مبهمة انها ربما كانت بين سنة ٨٣٠ وسنة ٨٢٠ ق.م.

حقبة من الحكم الذاتي النسبي

تظهر سَمأل من جديد في بعض النصوص، ولاسيما في كتابة "زكور"، حيث نلاحظ أن ملكاً من سَمأل لا يُذكر اسمه الصريح قد شكّل جزءاً من التحالف الكبير الذي حاصر "حزرك" بدون جدوى سنة ٧٩٦ ق.م. فنرى هنا سَمأل في صحبة "أرباد" و"قوِي" وغيرهما من البلدان المتمردة على الإمبراطورية الآشورية. وقد يكون التدخّل الآشوري المفاجئ هو الذي أفشلَ تحالفَهم وبدَّدَ شملهم. ومع ذلك فليس لدينا أي إشارة إلى حدوث خلاف بين سَمأل والإمبراطورية طوال هذه الحقبة. فإذا كان ملوكها يستمرّون على أداء الجزية أم لا، فإن سَمأل تبدو لنا وكأنها متروكة وشأنها حتى بعد سنة ٧٥٠ ق.م.

ولا نعرف شيئًا عن والد "باناموا". ويبدو أن عهدَيهما كانا غير كافيين لمَلء فترة دامت أكثر من ٧٠ سنة. والعلامة الوحيدة لاستمرارية هذه السلالة قد نراها في بقاء إلههم "ركبعل" بصفة شفيع السلالة.

عودة قوة السيطرة الآشورية

في هذه الظروف، لا عجب أن يحدث انقلاب أو أن تنشب حروب أهلية طوال الربع الثالث من القرن. هناك كتابة نحتها "بر ركيب" على تمثال كبير تخليدًا لذكرى أبيه "باناموا" ابن "برصور". إلا أن النص مخروم جداً، ومعطيات كثيرة فيه غير واضحة. إنما تعبّد ملوك سَمأل المتواصل لركبعل يشير إلى استمرارية السلالة، بالرغم من الاضطرابات والانتفاضات الكثيرة. وحدثت ثورة في البلاط أطاحت ببرصور وبإخوته "السبعين"، وأدّت إلى مجزرة رهيبة عامة أفضت إلى الدمار والشقاء في البلاد. وقد نجا "باناموا" الشاب من المجزرة، وحضر أمام الملك الآشوري الذي ساعده لاستعادة

سلطته. وبحسب "بر ركيب"، أعاد هذا التجديد رخاءً كبيراً إلى البلاد كلها. وظل باناموا أميناً تجاه الملك تغلاثفلاصر الثالث، حتى انه مات في خدمته، خلال حملة ضد دمشق. وقد أكرمَه سيدُه بعد موته، كما كان قد فعل طوال حياته.

ويتيح لنا هذا الحدث الأخير تحديد تاريخ مجيء "بر ركيب" إلى الحكم في سنة ٧٣٣/٧٣٢ ق.م. إلا أن تاريخ الانقلاب الذي أدّى إلى هذه الأحداث يبقى مجهولاً. إنما نعرف أن "باناموا سَمأل" يُذكَر بين التابعين الذين أدوا الجزية لتغلاثفلاصر سنة ٧٣٨. وقد يكون هذا الحدث سابقاً لتنصيبه ملكاً. وكل ما نضيفه يدخل في نطاق الحدس والتخمين، منها العلاقات الممكنة للأزمة السَمألية بخلافات سنة ٧٤٣-٧٤٠ أو ٧٣٩-٧٣٨.

ان كتابات بر ركيب والآثار المنسوبة إليه تُطري عهدًا من الازدهــار الداخلي ومن العلاقات الحسنة بين السلالات المحلية الأخيرة وتغلاثفلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م.). ومع ذلك فإن نصًا جزئيًا يعود إلى السنة الثالثة عشرة للملك سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) يذكر سَمأل في لائحة مقاطعات. وهنا أيضاً لا نعرف متى أو لماذا أُجريَ هذا التغيير. ربما كانت الإمبراطورية الآشورية ترمي إلى تأكيد هيمنتها حيثما كان الأمر ما يزال ممكنًا، إزاء التهديد المتفاقم الآتي من شعوب الأناضول الجديدة.

خراب ونهضة مؤقتة

في تاريخ متأخر عن عهد بر ركيب، صارت سَمأل ضحية هجوم مدمِّر لم تنهض منه إلا بثمن تغييرات مهمة جدًا. وهناك لوح يرقى إلى سنة ٦٧٩ ق.م.، اكتُشف فيه موقع البلاط القديم لكولاموا، وخزفية للقرن السابع وُجِدت في إحدى طبقات الخرائب، يساعداننا لنتصور الأحداث بحسب تسلسلها. فبعد إعادة بناء سَمأل، لا بد أن المنطقة استمرت في الوجود حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية. ثم عاد الصمت فخيم على سَمأل، وما يزال!

...منذ قبل منتصف القرن التاسع كانت الإمبراطورية الآشورية قد أخضعت نهائيًا البلاد الآرامية الغربية الأقرب إلى العالم الحثي الحديث، منها بيث أديني وبيث كبّاري اللتان أصبحتا بمثابة رأس جسر نحو بلاد الأناضول وسوريا، وستختلف الحال مع الممالك التي سنذكرها لاحقاً. فإن الضعف الأصلي لبيث أهوشي ولُعُش أمام الإمبراطورية الآشورية لم يمنعهما من النمو والازدهار والاحتفاظ بحكمهما الذاتي مع الدويلات التي كانت تعاديهما مثل حماة ودمشق، وذلك طوال أكثر من قرن بعد سقوط دول الشرق والشمال.

الفصل الخامس

بيث أغوشي أو مملكة أرباد

في هذا المقال، نتوجّه الآن قليلاً نحو الغرب ونتكلم عن المنطقة الواقعة غربي "بيث أديني" وشمالي حلب. إنها مملكة "أرباد" التي تُسمى أيضًا "بيث أغوشي".

بيث أغوشي والحكم الآشوري الأول

غوش وياحان

بقدر ما تُطلعنا النصوص القديمة على هذه الممالك الصغيرة يتسنى لنا القــول إن بدايات مملكة "أرباد" كانت متواضعة، شأن بدايات "بيث كبّار"، ومتأخرة أكثر منها. ففي نحو سنة ٨٧٠ ق.م، قام الملك الآشوري آشور ناصربال الأول بزحف مظفّر إلى ساحل البحر المتوسط، وبلغ إلى منطقة

"باتينا". وتوقف أولاً عند "حزازو"، ثم شدّد أعماله الحربية على مدينة "كونولوا" الملكية التي يمكننا تحديد موقعها في "تل تعيينات" القريبة من أنطاكيا، وقد تكون أيضًا في الموضع الذي كان يُدعى سابقًا "ألالاخ" (تل عطشانه). وفي هذه العاصمة، تلقى جزية غوش الياحاني. وهذا الزعيم هو في الأصل من مملكة بالغة الأهمية ستحمل اسمه حتى عهد تغلاتفلاصر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م). ولكننا نلاحظ، من خلال حوليات آشور ناصربال، ان منطقة "غوش" لم تكن بعدُ مركزًا حضريًا من شأنه أن يجتذب أطماع آشور. وهذا ما يناسب فقر هذه المنطقة الواقعة شمالي حلب، وذلك استنادًا إلى آثار يمكن تحديد تاريخها قبل هذا الزمان.

من الأرجح أن "غوش" وسكانها لم يكونوا بعد قد استولوا على منطقة "ياحان" كلها. ومنذ الحملة الكبيرة الأولى التي قام بها شلمناصر الثالث سنة ٨٥٨ ضد "بيث أديني"، نلاحظ أن شخصاً يُدعى "أدان"، أمير ياحان، قد انضمَّ إلى معظم البلدان الأخرى الواقعة في الشمال الغربي من سوريا، لكي يصدّوا الطريق بوجهه، بينما نرى أن ابن غوش، الذي كان يُدعى "آرامِي" يؤدّي الجزية للملك الآشوري. وهذا ما قد يتيح لنا الإفتراض أن سيطرة "غوش" لم تكن تمتد إلى جميع مناطق الياحانيين.

ويبدو لنا من الطبيعي أن نفهم اسم "ياحاني" اللطيف مثل اسم جغرافي مشتق من كلمة "أحانو". وكان آشور ناصربال الثاني الذي قدم من الشرق، قد ترك عن شماله جبلاً بهذا الاسم، قبل وصوله إلى "حزازو"، ولا يكون سوى جبل سمعان، لأن "عزاز" الحالية، وهي على الأرجح "حزازو" المذكورة، تقــع بالضبط شمالي هذا الجبل. وإذا كانت "ارباد" هي "تل ريفات"، التي ستكون عاصمة خلفاء "غوش" في المستقبل، تقع على

المنحدرات الشرقية الواطئة من هذا التكوين نفسه، أي على مسافة نحو ٣٥ كم شمالي حلب، فإن جبل سمعان كان لياحان ما كان أمانوس لسمأل.

مملكة آرامِي، ابن غوش

كل الدلائل تشير إلى أن مدينة "أرباد" لم تشغل موقع التسلّط في "بيث أغوشي" طوال القسم الأول من القرن التاسع قبل الميلاد. فلا أثر لها في النصوص، ويبدو أن العاصمة كانت في موضع آخر. وهذا ما تطلعنا عليه حوليات شلمناصر الثالث، لسنتيه العاشرة والحادية عشرة. وبالرغم من الموقف المسالم الذي اتّخذه "آرامِي" طوال قضية "بيث أديني"، والهجوم الآشوري الأول على حماه والمتحالفين معها، فإنه هو الابن الأول لغوش نعرف اسمه، ويبدو انه تشجّع بالإخفاق الجزئي الذي مُني به شلمناصر الثالث سنة ٨٥٣ ق.م، فدخل المعمعة أخيرًا، وفقدَ نحو مئة من "مدنه"، من ضمنها "مدينته الملكية" "أرني" ومدينة "أبارازو" الحصينة.

وهناك من يرى أن موقع "أرني" قد يكون "تل أرانه" الواقعة على بُعد نحو ٢٠ كم في الجنوب الشرقي من حلب. ويرى آخرون انها "تل عرين" الواقعة على بعد نحو ٢٠ كم في الجنوب الغربي من "أرباد". انه الجزء الغربي من "بيث أغوش" الذي تعرّض لهجمات شلمناصر الثالث. ومن الصعب أن ننسب أراضي تقع شرقي حلب إلى ابن غوش منذ الربع الثاني من القرن التاسع. ونحن نعلم أن حلب كانت تتمتّع إذ ذاك بحكم ذاتي. وكانت المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من حلب، مع "دابيغو" الواقعة على "القويق"، تعود كلها إلى "بيث أديني" إلى سنة ٨٥٨-٨٥٦ ق.م. لا شك أن

اندحار "أحوني" خلق فراغًا في ممتلكاته القديمة الواقعة غربي الفرات، وقد استفاد من ذلك مختلف البلدان لتوسيع حدودها. وفي سنة ٨٤٩-٨٤٨ ق.م، أصبحت أراضي "آرامي" وأراضي "سنغرة" - صاحب كركميش - متاخمة. وكانت حملات شلمناصر الثالث في المنطقة تقود جيوشه من كركميش إلى أمانوس، باتّباع وادي "عفرين". فيجب إذاً أن نبحث عن "ارني" في هذه الجهات. وكانت " تل عرين "أيضًا تقع في تلك الجهات. وإذا كانت هذه الافتراضات صحيحة، وان "ارني" تكون في الجنوب الغربي من "جبل أحانو"، فإننا نفهم ان تكون "غوش"، والحالة هذه، قد شعرت بكونها مضطرة إلى استجداء عطف آشور ناصربال الثاني.

ولا يبدو أن الأراضي، التي ورثها "آرامِي"، قد امتدت كثيرًا إلى ما وراء جبل سمعان. وكان الأفق في الجنوب الشرقي مقفلاً بواسطة حلب. وهكذا كانت أراضي "آرامي" محدودة بباتينا: تحدّها "حزازو" من الشمال، و"كونولوا" من الغرب. ولا ندري هل ان موقع "عين دارا" الحثّي القديم، الكائن على الشـــاطئ الأيسر من نهر "عفرين"، حيث يتوجّه هذا النهر الصغير نحو سهل أنطاكيا، كان يشكّل جزءً ا من هذه الدولة، أو أن هذا الموقع كان مركز إمارة قائمة بذاتها وغير معروفة في النصوص. ولكن، سواء عادت "عين دارا" إلى "باتينا" أو كانت مستقلة، فإنها لم تكن سوى على مسافة قريبة غربي "تل عرين ".

عطار ـ سُمك ومملكة أرباد

لقد دام حكم "آرامي" في الأقل حتى سنة ٨٣٣ ق.م، حينما استولى شلمناصر الثالث، لدى عودته من حملته الأخيــرة على الأناضول، على

إحدى قلاعه وجعلها مقرَّ إقامة له، بدون أن يبدي "آرامي" حراكاً. وربما انه ظل خاضعًا للإمبراطورية الآشورية منذ سنة ٨٤٨، وذلك بالنظر إلى اجتياز الجيوش الآشورية المتواتر في تلك المناطق. وفي تاريخ نجهله، استُبدلَ بابنه "عطار – سُمك". ومن الأرجح أن يكون هذا التغيير قد جرى في نهاية عهد شلمناصر المضطرب، أو خلال حكم خلَفه شمشي أدد الخامس (٨٢٣-٨١١)، الذي اتّسم بكثير من الضعف على الصعيدَين الإداري والعسكري. أما "عطار – سُمك"، فقد استغلَّ هذا الضعف لكي يرفع من شـــأن شعبه، ولكي يوسّع مملكته في جميع الإتجاهات، حتى انه جعلها خصماً رهيبًا للاستعمار الآشوري.

أربـــاد

إن "عطار – سُمك" هو الأول بين أبناء "غوش" الذي أُطلق عليه لقب "أربادي. ولكننا لا ندري هل هو أول من سكن في "تل ريفات". مهما يكن من أمر، فإنه هو الذي جعل "أرباد" مدينة عظيمة. وكانت "أرباد" تقع في وادٍ على السفح الشرقي من جبل سمعان، على مسافة ١٣ كم غربي نهر "القويق"، و٣٥ كم شمالي حلب. وكانت المدينة قابعة على منحدرات واطئة وخصبة، حيث لم تكن الأراضي تمتص المطر بسرعة، كما هو الشأن فوق على الهضبة الكلسية. وكان هذا الموقع يسكنه الإنسان منذ العصر النحاسي، ولكنه لا يبدو انه كان له ماضٍ حضَري قبل عهد "بيث غوش". ويُعتبَر ازدهاره نجاحًا للشعوب الآرامية. وانطلاقًا من هذه العاصمة، انتشرت المملكة وامتدّت، بدءً ا من ضمّ حلب إليها.

ضمّ حلب

من الأرجح أن ننسب ضمّ حلب إلى مملكة "أرباد" إلى "عطار – سُمك"، أو إلى أحد خلفائه، وليس إلى "آرامِي" الذي تقدّمه لنا النصوص عادة في دور انفعالي وجامد. وكانت حلب، في العصر البرونزي الوسيط، مقراً "للملك الكبير" يمخاد. إلا أن حظّها تعثّر منذ الحملة التي قام بها "مورشيلي" في مطلع القرن السادس عشر ق.م. أما في عهد الإمبراطورية الحثّية الأخيرة، فكانت حلب تُعتبَر مثل مدينة مقدسة، وكانت تحتفظ باستقلال نسبي. وبالرغم من ثلاث كتابات محلية اكتُشفتْ في بابل، وورود ذكر "لرجال حلب" في "أوراتاميس" من حماه، فهي لا تظهر كثيراً في المصادر المكتوبة في العصر الحديدي. أما المصادر الأكدية، فعلينا أن ننتظر سنة ٨٥٣ ق.م. لكي نجد لها أثراً.

أما الملك شلمناصر الثالث، فقد توقف في "حلمان"، في زحفه إلى حماه، وبعد ان ترك "بترو" على الفرات. فأدت مدينة "حلمان" الضريبة المفروضة، وضحى الملك "لإله العاصفة" فيها. ويتفق الجميع على أن يروا حلب ههنا، ولو أن اسم هذه المدينة يُكتب في الأغلب "حلبا". وكانت حلب في الواقــع مركزًا شهيرًا لإله العاصفة، يعبده الآشوريون والآراميون والعموريون والحوريون والحثّيون... وبحسب رواية شلمناصر الثالث، كان "آرامِي" قد أدّى له الجزية، وقد فعل سكان حلب مثل ذلك أيضاً. وسكانها أنفسهم، وليس سيد يسكن في موضع آخر، هم الذين قرروا أن يفتحوا له أبواب المدينة. وهذا لا يمنع من أن يكون لحلب نوع من الحكم الذاتي، تحت وصاية ابن غوش. وربما يسعنا التفكير في تنظيــم واهٍ، مثل التنظيم الذي أتاح لــ "كبرانو" من بيث أديني أن يقاوم آشور ناصربال الثاني، بدون أن

يستشير "أحوني". وكان في وسع شلمناصر أيضاً أن يأخذ ذهب حلب، بالإضافة إلى ذهب "آرامِي"، كما كان آشور ناصربال الثاني قد فعل حينما أخذ الجزية من "حزازو" وكذلك من "كونولوا". وتوحي أحداث "حلمان"، التي جرت سنة ٨٥٣ ق.م، بأن حلب كانت ما تزال مستقلة عن بيث أغوشي في منتصف القرن التاسع.

ومنذ الربع الثاني من القرن الثامن، نلاحظ أن حلب تعود إلى "أرباد". ويمنع نصب "سفيرة" الثالث ملكها من أن يسمح للآّجئين السياسيين بأن يجدوا ملجأ لهم في حلب. وربما جرت فترة الإنتقال هذه منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع. ففي "بريج"، الواقعة على مسافة ٧ كم شمالي حلب، اكتُشفَ النصب المخصَّص "لملقارت"، وهو مكتوب بالآرامية، وقد أقامه له شخص يُدعى "بر – هدد".

وهناك آثار أخرى بالآرامية القديمة اكتُشفتْ بالقرب من حلب، وهي مكتوبة في القــرن الثامن، أو في نحو سنة ٧٠٠ ق.م، كما جاءت في أنصاب جنائزية في "نيرب"، وهي قرية تقع على مسافة ٦ كم إلى الجنوب الشرقي من حلب. وتؤكد هذه الكتابات أن المدينة محاطة بسور، وتشير أيضاً إلى امتداد "أرباد" نحو الفرات الشمالي إلى "جبّول". فهذان الموقعان يمكن تشخيصهما بوضوح من بين إحدى عشرة مدينة للمملكة، ورد تعدادها على نصب "سفيرة" الأول. ويمكننا إضافة "رين" إليها، ويبدو انها "تل أبي راني"... ومهما يكن من شأن بعض تفاصيل جغرافية - تاريخية، فإن امتداد "بيث أغوشي "نحو "جبّول"، فتح أمامها غدراناً مهمة زوّدت سوريا كلها بالملح، في هذه الأزمنة العصرية في الأقل.

توسُّع على حساب "باتينا"

ان مملكة أرباد توسعت أيضاً على حساب "باتينا". ففي مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، كان امتداد هذه البلاد وثروتها عظيمين. لكن الضعف اعترى هذه الثروة من جرّاء الضرائب الكثيرة التي كان الآشوريون يفرضونها عليها. وقبلت البلاد بتأدية الجزيـــة، بعد أن قاومت عبثاً الحملة التي شُنّت ضد "بيث أديني" سنة ٨٥٨ ق.م. ولقد ازداد وضعها ضعفًا سنة ٨٣١ ق.م، حينما تدخل شلمناصر الثالث ضد مغتصب كان يلقى مساندة حزائيل ملك دمشق. ومنذ عهد شلمناصر، يبدأ الاسم الآرامي "عمق" بالتناوب مع اسم "باتينا". ويمكننا الاعتقاد أن عناصر آرامية تسرّبت أكثر فأكثر في البلاد، وان البلاد فقدت قسماً كبيراً من أراضيها لصالح "أرباد" وحماه. وهذا ما يشير إليه القبول بأن يكون نهر الأورونت (العاصي) حدودًا مشتركة بين ملوك أرباد وحماه في عهد الملك أدد نِراري الثالث، أي من الأرجح خلال العقد الأول من القرن التاسع. وكيفما تصوّرنا منطقة لقاء هاتين المملكتين، فإن وادي عَفرين كله كان منذ ذلك الوقت في حوزة "أرباد".

وفي الشمال، امتدت مكاسب "بيث أغوشي" على حساب "باتينا"، حتى "حزازو" في الأقل. لأن هذه المدينة تُنسَب إلى بيث أغوشي في نصوص أخرى ترقى إلى القرن الثامن قبل الميلاد، بحسب نصب "سفيرة" الأول، ولائحة لتغلاتفلاصر الثالث. لكن تواريخ هذه النصوص مجهولة. ولا يمكــن أن يكون إلحاق "حزازو" قد جرى إلا بعد سنة ٨٥٨ ق.م. ففي هذا التاريخ، كان شلمناصر الثالث ما يزال يضع "حزازو" في باتينا. إلا أن هذه المدينة كانت قد اجتازت إلى أيادٍ أخرى في نهاية القرن.

نزعة عطار – سُمك التوسعية

كان القسم الأول من حكم "عطار ــ سُمك" عهد التوسّع الأمثل لبيث غوش. فإن الفراغ، الذي حدث من جراء إلغاء بيث أديني ومن جراء ضعف حلب وباتينا، وفّر المجال أمام ملك أرباد الجديد، ولاسيّما أن الإمبراطورية الآشورية كانت قد تعرّضت لهزة عنيفة من جراء التمرّد الذي وقع بين سنوات ٨٢٧-٨٢٢ ق.م، أي في نهاية عهد شلمناصر الثالث، وكانت منشغلة في منطقة "تائيري" وفي البلاد البابلية في عهد شمشي أدد الخامس (٨٢٣-٨١١ ق.م).

ولكننا لا نعلم كيف استطاع "عطار – سُمك" أن يستولي عسكرياً على هذه الأراضي الجديدة. لا شك انه قبل أن يكون جامع الأراضي، عرف أن يجمع حوله قبائل كثيرة والعديد من الزعماء الآراميين، ومن ثمة هذا لنوع من التعقّد والتنوّع في الدولة الأربادية، إن لم نقل في الإمبراطورية الأربادية.

التدخّل الآشوري

كان "عطار ــ سُمك" واعياً بضعف مثل هذه الدولة المركَّبة، فحاول أن يستخدم فنّ الأحلاف في سياسته الخارجية. فحينما جابه أدد نراري الثالث في "باكاراهوبوني"، هذه الأراضي ــ التي ربما كانت تعود إلى "كموخ" ــ كان ثمانية من جيرانه يساندونه. وقد حُفظت أسماء زعماء هذا التحالف والموضع الذي فيه دارت المعركة، في أنصاب "بازارسيك"، وهي تل شيخ حماد. ويُشار إلى خطورة هذا الخلاف في وثائق أخرى تحتفل بالفشل الذي لحق، في السنة نفسها، بجميع ملوك "حطي" الذين كانوا قد رفضوا دفع الجزية في عهد شمشي أدد الخامس. وكانت السنة المذكورة هي سنة ٨٠٥.

وقد أتاح النصر لأدد نراري الثالث أن يفرض الحق في سوريا الشمالية، وأن يعيد أو يوسّع حدود "كموخ". إلا أن النصر لم يكن كاملاً. ذلك لأن أرباد لم تُحتَل. ولم تُدفـــع الجزية إلا في البلاد الآشورية. وتذكر الحوليات أن حملة جديدة جرت سنة ٨٠٤ في سوريا الشمالية ضد "حزازو" (التي لا بد أنها كانت أربادية). ونستطيع أن نفترض أن أرباد أُخضعت بهاتين الحملتين، وأن نتصور أن الجيوش الآشـــورية اجتازت من جديد في أراضيها خلال الحملتين التاليتين "ضد البحر"، أي ضد "ارواد" سنة ٨٠٢، وضد "بعلو" سنة ٨٠٣.

التحالف الكبير ضد زَكّور

لم تمر على هذا الخلاف سوى بضع سنوات، حتى خاض "عطار – سُمك" مغامرة جديدة، لسنا مطّلعين بكفاية على تفاصيل أحداثها ولا على نتائجها. وكان "زكّور" الآرامي قد أفلح في تشكيل نظام ملكي مزدوج بين حماه ولُعُش. وكان هذا النظام يمتدّ نحو الشمال حتى "تل أفيس" في الأقل، على نحو ٤٠ كم في الجنوب الغربي من حلب. وكان "بر هدد" الدمشقي غير عابئ كثيراً بأن تكون أسواق الشمال مفتوحة أمام مملكة تعادل المملكة التي ورثها عن أبيه. وكان توسّع حماه يعيق خطط "عطار – سُمك" في شأن "لُعُش"، الدولة المجاورة والضعيفة سياسيًا. وانضمَّ ملك أرباد ًإلى التحالف الذي شكّله "بر هدد"، وجلب معه حلفاءَه الحِثّيين الجدد. وهكذا فقد جاء ستة عشر ملكًا وحاصروا "زكّور" في "حزرك" عاصمته الشمالية. أما أدد نراري الثالث الذي كان يفضّل سوريا منقسمة، فاضطر إلى الإيعاز إليهم بالتفرّق، لأنهم لم يستولوا على المدينة. وأصبح "بر هدد" وحده موضع ملاحقة "أدد

نراري"، الذي انتصر عليه سنة ٧٩٦ ق.م. في "منصواة" الواقعة في البقاع، ثم دخل إلى دمشق.

إلا أن الحظوة التي كانت لزكّور لدى الإمبراطورية الآشورية لم تدم طويلاً، وذلك إما بسبب عدم غيرة من جهته، أو لأن أدد نراري الثالث أراد الاهتمام بأرباد، بالنظر إلى موقعها الستراتيجي، فإن أدد نراري، أو بالأحرى شمشي ايلو الذي كان قد أوشك على الاستيلاء على السلطة، اتّخذ قراراً لصالح "عطار – سُمك" في خصام مع زكّور في ما يتعلق بـــ "نحلازي"، الواقعة على نهر الأورونت (العاصي). ولا بد أن هذا الأمر جرى بعد سنة ٧٩٦ ق.م. بمدة طويلة. إلا أن الإمبراطورية الآشورية تجنّبت كل معركة، لأنها كانت غير واثقة بأرباد في عد حرب "حزرك".

متي ـ أيل ونهاية مملكة أرباد

معاهدات متي ـ أيل

بعد هذه الأحداث، خيَّمَ الصمت على أرباد طوال نحو أربعين سنة، ولا ندري متى انتهى حكم "عطار ـ سُمك" الطويل. أما في الإمبراطورية الآشـــورية، فقد انشغل الملك شلمناصر الرابع (٧٨٢-٧٧٣ ق.م) وآشور دان الثالث (٧٧٢-٧٥٥ ق.م) وآشور نراري الخامس (٧٥٤-٧٤٥ ق.م) بمواضع أخرى، بينما كانت الثورات والانتفاضات تهز قلب مملكتهم. وكانت هيمنتهم مهدَّدة بمطامع "أورارتو" المتزايدة. وإذا اعتمدنا المعطيات الآشورية، فإن ملوك أرباد اضطُرّوا إلى التعامل مع القائد الأعلى "شمشي – ايلو" في هذه الفترة. وعلينا ألا ننسى الشهرة التي كانت "كركميش" تنعم بها في تلك

الحقبة. ففي عهد ملوكها، أمثال "يريريس" و"كمانيس"، أصبحت حقًا جارة مزعجة.

في سنة ٧٢٤ ق.م، تعرضت أرباد لحملة آشورية. ولدينا بقايا من معاهدة آشــور نراري الخامس مع "متي – ايلو". إلا أن عناوينها قد فُقــدت. وتُظهر معاهدة "سفيرة" ونصّان لتغلاثفلاصر الثالث أن متي - ايلو هذا كان "متي – ايل" بن "عطار – سُمك"، ملك أرباد، ابن غوش، وقد حكم حتى سنة ٧٤٠ ق.م. وبما أن حملة سنة ٧٥٤ حدثت منذ السنة الأولى من حكم آشــور نراري، فلا بد أنها سبقت هذه المعاهدة، وربما كانت أساساً لها. وقد يكون سبب إبرامها حركة استقلال في فترة الإنتقال بين آشور دان الثالث (٧٧٢-٧٥٥ ق.م) وآشور نراري الخامس (٧٥٤-٧٤٥ ق.م).

إن هذه المعاهدات تشير إلى النشاط الدبلوماسي الذي كان ملوك أرباد يبذلونه في هذه السنوات، حيث يُذكر قليل من الالتزامات العسكرية في بلادهم. وقد ورث "متي – ايل" فن التحالف الذي مارسه والده. إلا أن اختيار "متي – ايل" قاد مملكته إلى الدمار.

المعاهدة الأورارتية المدمِّرة

تحالف سردور الثاني

إن الإختيار المشؤوم الذي أقدم عليه "متي ــ ايل" كانت المعاهــدة الأورارتية. فكانت "أورارتو" لا تفتأ تتوسع ابتداءً من بحيرة "وان"، وكانت وصايتها تُفترَض على كل دولة شمالية ترغب في التملّص من النفوذ الآشوري. وإذا اقتصرنا هنا على الحديث عن المناطق القريبة من "أرباد"، فإن حملات الملك "مِنوا" كانت قد بلغت العهد الحِثّي ــ الحديث في مطلع

القرن الثامن، إذ دخل منطقة "ميليد" (ملاطية). واشتدَّ الضغط الأورارتي في عهد "أرغيشتي" الأول (٧٨٩-٧٦٦ ق.م)، واضطر شلمناصر الرابع ــ أو بالأحرى شمشي ايلو الذي يتباهى بانتصاره، في كتابة عُثر عليها في تل أحمر ــ إلى أن يعيد الزحف إلى أورارتو ستَّ مرات (٧٨١، ٧٨٠، ٧٧٩، ٧٧٨، ٧٧٦، ٧٧٤). وإذا كان عدم الاستقرار الداخلي قد شغل انتباه آشور دان الثالث وآشور نراري الخامس، فإن التهديد الأورارتي لم يتلاشَ، بل ازداد حِدّةً مع "سردور" الثاني (٧٦٥-٧٣٣). وبعد منتصف هذا القرن بفترة وجيزة، استولى على "كموخ" وعلى "ميليد". وقد انضمَّ إلى معاهدته أيضًا متي ايل وملك كركم، وبذلك أثارا ردّ فعل الملك الآشوري الجديد، تغلاتفلاصر الثالث.

ويظهر الدور الحاسم الذي قامت به "أرباد" من ان ملك "كموخ"، مع ملكَي "ميليد" و"كركم"، ما يزالون ماثلين بين الذين يؤدون الجزية للإمبراطورية الآشــورية سنة ٧٣٨ ق.م. أما ملك أرباد فليس من بينهم. والخطر الذي كانت مملكته تمثّله سيحمل تغلاتفلاصر على حلّها. والمكان الذي احتلته أرباد لوقت ما في النزاع القائم بين الإمبراطورية وأورارتو قد يكون ذا علاقة بالتقدم المدهش الذي حققته اللغة الآرامية نحو الشمال الشرقي. وقد أظهرت ذلك كتابةٌ آثارية آرامية اكتُشفتْ سنة ١٩٩٤، وهي تعود إلى عهد سرجون الثاني في البلاد المانيّة. ولقد تمَّ هذا الاكتشاف بالقرب من بوكان في كردستان، وهي ما تزال قيد الدرس، وستُنشَر في المستقبل القريب.

إنتصار آشوري وتصفية أرباد

إن حالة كتابات تغلاثفلاصر الثالث الرديئة تجعل من الصعب تحديد موقع العمليات الحربية وإعادة تكوين مجراها. ويُعتقَد ان المعركة الحاسمة ضد "سردور"، قبل اجتياح "كركم" ثم "أرباد"، جرت في "كموخ"، وان هجمة تغلاتفلاصر الصاعقة ربما قادها ملك "كموخ" الذي كان ضحية أورارتو أكثر منه حليفها. ولكننا لا يسعنا أن نوفّق بين الكتابات التي تضع هزيمة أورارتو سنة ٧٤٣ ق.م. في أرباد، وبين الكتابات التي تضعها في "كموخ". ومع ذلك، فهناك معطيات يمكن التعويل عليها. مهما يكن من أمر، فإن مملكة "أرباد" المنحلّة كوّنت مقاطعتين في الأقل، وهما الأوليان اللتان شُكّلتا غربي الفرات. وقد عُثر في نمرود (كالح) على رأس صولجان برونزي مطبوع بإسم ملكها الأخير.

الأراضي الأربادية بعد الغزو

لا نكاد نعرف شيئاً عن هذه المنطقة وعن شعبها الآرامي طوال بقية العصر الحديدي. ويبدو أن أهم المواقع قد استمرّت في الوجود بعد الغزوات المتتالية. ولكننا لا نلاحظ فيها أي تقدم حضاري.

إن أنصاب "سيع كبّاري" (اسم آرامي) و"سن - زير - ايني" (اسم آشوري)، وهما كاهنان للإله القمر في "نيرب"، ما تزال تعكس التقليد الفني والاسلوب المتّبَع في الأنصاب الجنائزية الحثّية - الحديثة والآرامية الأقدم منها. انها في الوقت نفسه مطابقة للفن الإعلامي وللتديّن في سوريا الشرقية في العهد الآشوري.

من العهود البابلية - الحديثة لدينا عقد بيع لسنة ٥٧٠ ق.م. (وهي السنة ٣٤ لمُلك نبوخذنصر الثاني)، وهو اللوح الآرامي الوحيد الذي وصلنا من مملكة أرباد السابقة. ويُلاحَظ هنا تغلّب المقوّم "بيث – ايل" في الأعلام. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاسم ليس نادراً في الشرق، وسنجده في الألواح الآرامية التي اكتُشفت في مصر. إلا أن ذكره في هذا العقد يحدونا إلى التفكير في حضور "بيث- ايل" مثل اسم إحدى مدن مملكة أرباد. أما الألواح المسمارية التي وُجدت في "نيرب"، فمن الأرجح أنها كُتبت في بلاد بابل، وقامت بذلك عائلة من المنفيين هناك. فلا بد أن هؤلاء الناس كانوا قد نُفوا من "نيرب" في عهد نبوخذنصر الثاني الذي اجتازت جيوشه سوريا مرات عديدة. ولقد تبنّى معظم هؤلاء المنفيين أسماء بابلية. إلا أن أحفادهم عادوا إلى بلدانهم الأصلية في نحو نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وحملوا معهم هذه الوثائق النفيسة.

الفصل السادس

حَمـاة - لعُش

لقد تطرقنا سابقاً إلى منطقة بيث أغوشي أو مملكة أرباد. والآن نتناول بالبحث منطقة حَماة - لُعُش، وهي من المناطق الآرامية المهمة التي لعبت دورًا في التاريخ الآشوري.

فنتكلم الآن عن جار "بيث أغوشي" الجنوبي، أي عن مملكة "حَماة – لُعُش" المزدوجة. وسنتوقف طويلاً عند "لُعُش". فإن هذه المنطقة التي لم تحظ كثيراً باهتمام المؤرخين، يبدو انها كانت، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي الأقرب من أرباد، آرامية قبل حَماة. ولكننا نتتبع أحداثها التاريخية إبتداءً من الزمان الذي وقعت فيه في حوزة الآراميين[1]. وسنتناول هنا المقال ثلاثة مواضيع : لُعُش، وعهد زكّور، الذي يبرز كأول رئيس آرامي في هذه المنطقة، ومملكة حَماة الآرامية.

[1]- لم تكن حَماة آرامية حينما كان الصراع قائماً ضد الملك الآشوري شلمناصر الثالث، إبتداءً من سنة ٨٥٣ ق.م.

لُعُش

لُعُش وآشور ناصربال وشلمناصر

خلال الحملة التي قام بها الملك آشورناصربال الثاني على "پاتينا" في نحو سنة ٨٧٠ ق.م، أحال مدينة "أريبوا" إلى مستعمرة آشورية. وكانت هذه المدينة قلعة حصينة للملك "لوبرنا". واقترف الملك الآشوري فظائع في "لوهوتي" البلدة المتاخمة لمدينة "أريبوا". وقد نستشفُّ من ظروف هذه الرواية ان "أريبـــوا" كانت من قبل تشكل جغرافياً جزءاً من "لوهوتي". وكانت تجسّد الوصاية الپاتينية على هذه المنطقة المتميزة. مهما يكن من أمر، فإن قساوة المجابهة فريدة طوال هذه الحملة كلها. وعدم توفّر غنيمة جديرة بالذكر، وعدم الإشارة إلى سلالة ما، أو إلى عجلات حربية شبيهة بتلك التي كانت في حوزة "بيث بخياني" أو "بيث أديني" كل هذا يحدونا إلى التفكير في مجتمع ديني، حريص على حريته، ولكنه ما يزال غير منظم على مختلف الصُعد: السياسية والإقتصادية والعسكرية. وهذا ما يتجاوب حسنًا مع الصورة التي تمثلناها عن الشعوب الآرامية الأولى.

يصعب علينا تحديد موقع "لوهوتـــي" التي يرد ذكرها في عهد آشورناصربال. واجتياز هذا الملك الآشوري نهر الأورونت (العاصي) إنطلاقًا من "كونولوا" يوحي إلينا انه يتّجه نحو الجنوب. وجبل "يراقو" الذي يحاذيه في طريقه، سيكون أيضًا جزءاً من مسيرة شلمناصر الثالث من امانوس إلى مملكة حَماة. ويمكننا تشخيص هذا الجبل "بجبل بريشا". أخيراً يسمي آشورناصربال النهر "سَنغورّا"، وقد يكون لهذا الاسم شيء من الشبه باسم "جسر الشغور".

وكان على الملك الآشوري أن يقطع ثلاث مراحل في سبيل الوصول إلى "أريبوا". وهذا كله يوجهنا نحو نقطة في وادي الأورونت، في السهل

الخصيب الذي يقطعه من الشمال جبل "زوية" الذي تجتازه الطريق التقليدية بين حَماة وحلب.

لا بدَّ أن "لوهوتـــي" كانت منطقة واسعة، إذ سيسميها شلمناصر الثالث بدوره، في مجمل غزواته الذي يحتوي على بلاد بعيدة مثل دمشق، ولكنه لا يذكر "حَماة". من الواضح، في منظور هذا النص، ان "لوهوتي" تمثّل حَماة أيضًا. وهذا قد يوحي إلينا أن البلدين مرتبطان. وهذا الإرتباط يُستشفّ أيضًا من قصة زحف الملك شلمناصر إلى قرقر. فبعد أن ترك الملك حلب، استولى على ثلاث مدن من ملك حَماة، ومن بينها، في الأقل، "مدينة ملوكية"، وذلك قبل بلوغه إلى قرقر. وبالرغم من عدم الدقة في ذكر مواقع المدن في هذا النص، فالانطباع يبقى أن الإعتداء على حَماة كان يبتدئ في "لوهوتي". وهكذا نرى عدم استقرار هذه المنطقة في القرن التاسع قبل الميلاد. فبعد أن فرضت "پاتينا" سيطرتها عليها جزئيًا، بترها آشورناصربال. أما ما تبقى، فقد تشبّث بحَماة، أو طالبت به حَماة، إلا انه إنتُزع منها على يد شلمناصر الثالث، لكي يعود فيقع في حالة مرتبكة حينما ضعفت سلطة الآشوريين في غربي الفرات لمدة ربع قرن. ولم تنتهِ هذه التأرجحات سريعاً!

كتابة زكّور ومضامينها الجغرافية

إن نصب النص الآرامي لزكّور، وهو أثر إكتُشف في "تل أفيس"[٢] ويمكن تحديد تاريخه في السنوات العشر الأولى من القرن الثامن قبل الميلاد، يوحي إلينا أمورًا ثلاثة :

١- إن هذا النصب أُقيم في أو قرب مدينة مهمة تسمى "حزرك".

٢- إن حزرك كانت في قلب بلاد تُدعى "لُعُش" في هذا المصدر عينه[٣].

٣- إن حزرك كانت تقع شمالي سوريا، ولكن جنوبي "بيث أغوشي".

وهناك من يرى أن "حزرك" كانت في موضع تل أفيس الحالي، إذ أن هذا التل كان في العصر الحديدي أهم موقع مسكون في المنطقة التي تقع حزرك ضمنها.

تل أفيس والتنقيبات الآثارية في لُعُش

إن وصف "لوهوتي" كمنطقة ريفية يسكنها آراميون يتناسب مع معطيات علم الآثار عن المنطقة الواقعة بين الأورونت وقويق، شمالي "غاب". فمن حلب حتى افامية، يخلو السهل من آثار حثية ــ حديثة. إنه يحتوي على أطلال عدة مدن قديمة، مثل "تل مرديخ" (إبلا)[٤]، و"تل طوقان"[٥]. إلا أن عدد سكانه كان قد قلَّ كثيراً في العصر البرنزي الحديث، بعد أن بلغ

---

[٢]- يقع هذا الموضع على مسافة نحو ١٢كم في الجنوب الشرقي من "أدلب"، وعلى نحــو ٤٠كم في الجنوب الغربي من حلب.

[٣]- تظهر لُعُش أيضاً على ظهر قطعة عاج من نمرود (كالح). وكانت قطعة أمامية في طقم فرس، وكانت القطعة مزيّنة بنقش بارز.

[٤]- تقع " إبلا " على مسافة نحو ٥٠كم في الجنوب الغربي من حلب، على ١٠كم جنوبي تل أفيس.

[٥]- يقع تل طوقان على مسافة نحو ٤٥كم في الجنوب الغربي من حلب، وعلى ١٠كم في الجنوب الشرقي من تل أفيس.

ذروته في العصر البرنزي الوسيط ولكن لم تكن هناك عادة سوى قرى صغيرة أو تجمّعات مثل "تل مرديخ". لا شك أن "تل أفيس" إزدهرت كثيراً، حتى انها غطت مساحة ٣٢ هكتارا"[٦].

إن التنقيبات الآثارية التي أُجريت في السنوات ١٩٧٠ و١٩٧٢ و١٩٧٨، والتي ما تزال مستمرة منذ سنة ١٩٨٦، ترى أن "تل أفيس" كانت مسكونة منذ النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد، وإن هذا الموقع اجتاز في العصر البرنزي الوسيط بفترة من التمدّن، وأُقيم سور عظيم حول المدينة. وبدأ العصر الحديدي هناك في القرن الثاني عشر، بدون قطيعة حقيقية مع العصر البرنزي الحديث[٧]. وتُظهر بدايات العصر الحديدي بالطبع علامات الافتقار، إلا أن استمرارية التقليد السيرامي مع الماضي مدهش، وإذا كانت الخزفيات تختلف عمّا في الجنوب، فإن المخازن الخاصة بالعصر الحديدي الأول كثيرة هنا، شأنها في فلسطين.

ولكن لا شيء في هذا الاستعراض لثقافة "تل أفيس" المادية ولما يجاورها من المواقع يتيح لنا بالتأكيد أن نشخص هذا الموقع بمدينة "حزرك". ومع ذلك، فنحن لا نشك في أن "تل أفيس" كانت تشكل جزءاً من "لوهوتي – لُعُش"، لأن المعطيات التي قدمناها تُظهر أن هذه المنطقة كانت تقريبًا خالية من الحياة المدنية في نحو سنة ٨٧٠ ق.م، وانها لم تعرف استعماراً حثياً - حديثاً رصيناً، وأن الحياة المدنية لم تتأكد فيها إلا في عهد متأخر، في القرن التاسع، وان رئيسها كان آنذاك يتكلم الآرامية.

---

[٦]- وهي تقرب من مساحة زنجرلي، ولكنها أقل من كركميش مثلاً.

[٧]- حتى لقد وجدوا في أحد القطاعات بيتاً من العصر الحديدي الأول قد أُقيم فوق بيت من العصر البرنزي الحديث، بدون تغيير في مخططهما.

إن النمو الذي عرفته تل أفيس في ذلك العصر لم يكن بغير صلة مع الأحداث التي يرويها نصب "زكّــور". فطوال الأزمنة التي فيها ضعفت الغزوات الآشورية، بعد سنة ٨٣٨ ق.م، فإن لُعُش التي أهملتها الإمبراطورية التي كانت قد إنتزعتها من "حَماة"، لا بدَّ انها إجتذبت "زكّور" فاستقر فيها. وإذا كانت "تل أفيس" هي حزرك حقًا، فإن توسع هذا الموقع وتحصّنه كانا من عمل هذا الزعيم الطموح الذي أراد أن يضمن الأمن في أراضيه الشمالية إزاء مملكة "أرباد" التي كانت في ذروة ازدهارها. مهما يكن من أمر، فلا شيء يشير إلى أن "لُعُش" كانت مملكة منظمة قبل "زكّور".

عهد زكّــور

أصل زكّــور

لقد افتتح عهد زكّور حقبة جديدة في تاريخ "لُعُش". وبما أن زكّور هو أيضاً أول ملك آرامي لحَماة، فإنه سيحظى من الآن باهتمامنا الخاص.

والسؤال الأول يدور حول أصله. فعلى النقيض من الكتابات الملكية السامية الغربية لا تسمي KAI و٢٠٢ أبا الملك. أما الملوك الذين حكموا حَماة قبله في القرن التاسع قبل الميلاد، فإنهم كانوا يحملون أسماء حورية. ويتفق المؤرخــون على اعتباره مغتصبًا آراميًا وضع حداً للسيطرة الحثية ــ الحديثة على حَماة.

إن الإشارة الوحيدة التي لدينا عن أصل زكّور هو تقديمه نفسه مثل "إش أنه" في السطر الثاني من كتابته. إلا أن ترجمة "أنه" بــ"المتواضع" لا تتجاوب مع أسلوب الكتابات الملكية ولا مع بقية النص. "أنه" تمثل بالأحرى مدينة "أنه" (عانة) (بالأكدية خناتو) الواقعة على الفرات الأوسط.

الإستيلاء على السلطـة

إن "عانة" وطن زكّور كانت أحد المراكز الرئيسية لمقاطعة "ســوحو". والطبقة السائدة في البلاد كانت بابلية، وكانت البلاد رسمياً خاضعة للإمبراطورية الآشورية في نحو سنة ٨٠٠ ق.م. إلا ان السهب المحيط بها كان مسكونًا بالآراميين. ونستطيع أن نتصور زكّور مثل زعيم فرقة آرامية في الفرات الأوسط استولى على حَماة واقتطع له مملكة صغيرة في سوريا الوسطى، مثلما استولى داود على أورشليم، أو رازون الذي احتلّ دمشق. لكن المسافة التي يجب قطعها كانت كبيرة في حالة زكّور. إلا أن إمكانية القيام بمثل هذه المغامرة لها ما يؤيدها في الغزو الآرامي الزاحف إلى "لاقــو" بقيادة رجل من حَماة. ونجد روايات عديدة لهذا الحدث في كتابات "تينورتا - كودورّي – اوصور"، حاكم سوحو بعد مجيء زكّور إلى حَماة بنحو ثلاثين سنة.

من الصعب أن نعرف البلاد التي أصبحت وسيلة لاكتساب بلاد أخرى. ولكنها من الأرجح أن تكون حَماة. فإن الطريق الإعتيادية للفئات الآرامية من الفرات الأوسط إلى سوريا الغربية كانت تمر إما بجبل بشري وتدمر كما في عهد تغلاتفلاصر الأول، وإما بمضايق بيث أديني السابقة. وكانت الطريق الأولى تؤدي ليس إلى "لُعُش" بل إلى حَماة. أما الطريق الثانية فكانت أكثر اعتيادية للقوات الكثيرة، ولكنها كانت في نهاية القرن التاسع في قبضة "شمشي – ايلو". فسواء أظهر زكّور انه من الموالين للآشوريين أم لا، فإن لُعُش لم تكن آنذاك تحت سيطرة الآشوريين، وكان لمبادرة زكّور فائدة وهي إضعاف التناسق السوري، و"تورتان" الماهر ما كان ليتصدّى لعبوره.

إن التشديد على "حزرك" في KAI و٢٠٢ والتجانس المفترض بين زكّور وثقافة آرامية مثل ثقافة "لُعُش"، قد تدفع إلى الإعتقاد ان عهده في غربي الفرات كان قد بدأ هناك، وانه كان قد جعل "حزرك" عاصمة دويلاته. إلا أن هذا الإفتراض ليس أكيدًا، لأن "زكّور حَماة" دون ذكر لحتاريكا أو لُعُش هو الذي سيظهر مع نصب انطاكيا الذي كُتب في نحو سنة ٧٩٠ قبل الميلاد. ويكون هذا المعطى ملائمًا بقدر ما تطال المقاسمة التي قررها "شمشي – ايلو" الجزء الشمالي من دول زكّور.

ردّة فعل البلـدان المجاورة
العدوان الذي أثاره صعود زكّـور

لو سار زكّور رأساً إلى لُعُش، لاقتضى الأمر منه أن يجتاز أو أن يلتفَّ حول الجنوب الشرقي من ممتلكات "أرباد". فإن الوسائل كانت محدودة لدى "عطار ــ سمك" بعد فشله سنة ٨٠٥/٨٠٤ ق.م، ولما استطاع أن يمنع زكّور من الدخول إلى لُعُش من خلال أراضيه، ولما كان يستطيع مقاومة هجمة زكّور لو أتته من الجنوب إنطلاقاً من حَماة. ومع ذلك فقد كان لملك أرباد أطماع في لُعُش التي كانت شاغرة نوعاً ما سياسياً. وكان حقده وقلقه كبيرين حينما رأى أن هذه المنطقة انتُزعت منه، وكانت واقعة في الامتداد المباشر لتوسعه نحو الجنوب.

ولم يكن "عطار ــ سمك" وحيداً في الاستياء من صعود زكّور. فطوال الربع الثالث من القرن التاسع، لم يكتفِ حزائيل الدمشقي بالاحتفاظ باستقلاله تجاه الإمبراطورية الآشورية والسيطرة على جيرانه في الجنوب، بل قد تدخل في شؤون "اونقي ــ پاتينا"، وحتى تجاوز قليلاً إلى ما وراء الفرات. ولما كانت هذه العمليات ممكنة بدون بعض التعاون من حَماة، ولا

شك أن شلمناصر كان قد أفلح في نحو سنة ٨٤٢ ق.م. في إخضاع هذه البلاد. فالملك "اورهيلينا"، الذي كان أولاً روح المقاومة، إنتهى بدفع الجزية للإمبراطورية الآشورية. وفي عهد خلفه، تطلعنا رسالة على ان ابنه "اوراتاميس" كان في علاقات تجارية مع "مردوخ ــ ابلا ــ اوصور" ملك سوحو الذي أدى الجزية لشلمناصر الثالث بين سنة ٨٤٢ ق.م. وسنة ٨٣٢ ق.م. وكان حزائيل قد أفلح في قلب هذه السياسة وفي إخضاع حَماة لخططه، وإلاّ لما كانت عملياته الحربية في شمال سوريا ممكنة. ولم يكن في استطاعة وريثه "بر – هدد" أن يظل غير مبالٍ أمام نهضة حَماة ــ لُعُش التي كانت تُسيء إلى ما كان والده قد أنجزه، سواء أكان ثمة اصطدام مع الإمبراطورية أم لا، فإن اتساع حَماة الذي يؤكد نمو لُعُش كان نذيراً لتحررها من دمشق، وكان يستطيع أن يسمح لها بإبرام إتفاقات تجارية على حسابها الخاص[٨].

التحالف ضد زكّور

تروي لنا الأخبار ان "أدد ــ نراري" الثالث كان منشغلاً في الشمال وفي الشرق من سنة ٨٠١ حتى سنة ٧٩٧. وكانت هذه فرصة أتاحت لعطار ــ سمك وحُلفائه الحثيين ــ الحديثين أن يستردوا قواهم بعد فشلهم في "باكاراهوبوني" وفي حزرك، لكي ينضمّوا إلى التحالف الكبير الذي كان "بر هدد" يُعدّه ضد زكّور. لا شك ان أرباد هي التي دفعت "قوِي" وعمق" (پاتينا)

[٨]- كانت دمشق، بسبب موقعها الجغرافي، تسيطر على جزء هام من "طريق الملك"، وكان اقتصادها يتعلق بمبادلاتها الدولية. وهناك، في الكتاب المقدس، ما يشير إلى أهمية هذا العامل في علاقات دمشق / إسرائيل (راجع ١ ملوك ٢٠/٣٤).

و"كركم" و"سمأل" و"ميليد" (ملاطية) إلى الإنضمام إلى الممالك الست عشرة التي خيّمت جيوشها حول حزرك. غالبًا ما يفترض البعض أن الرغبة في مقاومة الإمبراطورية الآشورية كانت وحدها قادرة أن توحد جميع هؤلاء الملوك، وأن تجتذب مشاركين بعيدين عن حزرك، مثل "قـــوِي" و"ميليـــد". وربما استهدفت حرب حزرك إضطرار زكّور إلى الإنضمام إلى هذا التحالف.

ويبدو أن هذا التحالف لم يكن موجّهاً ضد الإمبراطورية الآشورية، إذ إن "أدد – نراري" الثالث لا يظهر انه مارس انتقامًا ضد حلفاء الشمال. للحصول على العمليات الحربية الآشورية ضد أرباد وحُلفائها، يجب الإفتراض أن دمشـــق والمجموعة الشمالية إتّحدوا حالاً بعد معركة "باكاراهوبوني" (سنة ٨٠٥)، وان هجومهم على حزرك عوقب بالحملات الآشورية ضد "حزازو" (سنة ٨٠٤) و"بعلو" (سنة ٨٠٣). ولكن من الصعب الاعتقاد أن "بر هدد" استطاع الاعتماد على بلدان الشمال، وان هذه قامت بالحملة حالاً بعد فشلها. ثم أن "بر هدد"، وهو معاصر ليوآش ملك إسرائيل، لم يكن على عرش دمشق منذ سنة ٨٠٤/٨٠٥ ق.م.

نجاة حـــزرك

كيف يمكننا أن نشرح فشل هذا التحالف الكبير؟ إن كتابة زكّور، في حالتها المبتورة، لا تنسب نجاة حزرك إلاّ إلى "بعل شماين". وكان من شأن الأعجوبة أن تتلبس أشكالاً أخرى، ولكننا أمام هذا الحدس، قد يسعنا أن نشرح نجاة حزرك بتدخل آشوري. ويذكر التاريخ حملة قام بها الملك الآشوري "أدد – نراري" الثالث يمكن أن تطابق مع رفع الحصار عن حزرك.

فبعد أن أفلح "أدد – نراري" في قمع أرباد وحلفائها في الشمال، وانشغل في مواضع أخرى، من سنة ٨٠١ حتى سنة ٧٩٧، عاد إلى سوريا سنة ٧٩٦ ق.م. ثم توجّه إلى "منصواة"، وهي منطقة يمكن تحديدها حول بعلبك في الشمال الغربي من دمشق. وبالرغم من هذا الاتجاه الغامض، كانت حملة سنة ٧٩٦ ق.م. تبدو الوحيدة التي يمكن تشخيصها (تمثيلها) مع الحملة التي قام بها "أدد – نراري" حتى دمشق والتي أخضعت لسلطته الدول الواقعة جنوبي سوريا.

في هذا الزمان، يدّعي الملك الآشوري انه أخذ جزية باهظة من "ماري"[٩] وذلك "في دمشق مدينته الملوكية، داخل بلاطه". وحالما نميز الانتصار على دمشق عن الحملات على سوريا الشمالية في سنة ٨٠٥/ سنة ٨٠٤، لا يبقى لنا سبب لنفترض أن "ماري" هو حزائيل. فالتاريخ يميل بالأحرى إلى وريثه "بر هدد" الذي يجعله نصب "الرماح" والعهد القديم معاصراً ليوآش ملك إسرائيل.

وهكذا قد يتسنى لنا تخيّل الأحداث التي جرت إبان نجاة حزرك. بينما كان الحلفاء أمام أسوار المدينة، أوعز إليهم "أدد – نراري" بالتفرّق ــ فامتثل معظمهم هذا الأمر. وسواء أظهر "بر هدد" العناد، أو أن أدد - نراري انتهز هذه الفرصة الرائعة لكي يفرغ حقداً قديماً، فإنه سار ضد إبن حزائيل، وانتصر عليه في "منصواة"، في البقاع الدمشقي، وقد يكون الملك الآشوري الأول الذي دخل إلى دمشق.

[٩]- قد يكون "ماري – مري" لقبًا لملوك دمشق في ذروة عظمتهم، وهناك من يرى فيه اسم علم لأخي "بر هدد" يكون قد سبقه على العرش فترة وجيزة.

حَماة - لُعُش بعد حرب حـزرك

لم تدم حظوة زكّور لدى أدد ــ نراري الثالث مدة طويلة، سواء ان زكّور لم يظهر ولاءً كافياً نحو البلاد الآشورية، أو ان الملك الآشوري فضّل مراعاة بيث أغوشي، لاسيّما أن موقع هذه البلاد الأخيرة الاستراتيجي كائن في مفترق الطرق بين سوريا الشمالية وبلاد الأناضول وكان من ثمة يضمن له تأثيرًا مستمرًا في جيرانه ويجعل تعاونه مرغوبًا. ويشير نصب أنطاكيا ان أدد ــ نراري حكم لصالح ملك أرباد في خصام حدودي بين عطار ــ سمك وزكّور، في شأن مدينة "تخلسي" الواقعــة بالقرب من الأورونت. ان هذا الحادث متأخر بالتأكيد عن سنة ٨٠٥، إذ خلافًا للاحتكام بين كوموخ وكركم، يظهر شمشي - ايلو طرفًا معنيًا، وسمو ــ رامات لا تُذكر من بعد، كذلك تسوية "تخلسي" يجب أن تكون متأخرة بضع سنوات عن حرب حزرك، لأن أدد ــ نراري كان حذرًا من أرباد، بعد تدخل سنة ٧٩٦، مثلما بعد حرب سنة ٨٠٤/٨٠٥.

لا بدّ ان حدود أرباد ــ حَماة كانت وعرة شأن سائر الحدود، والامتيازات التي أُعطيت ههنا لأرباد قد لا تكون نافذة إلا لوقت محدود، بالقرب من المنعطف الكبير لنهر الأورونت، الذي ترك القسم الكبير من مجراه في سلطة زكّور. وهذا ما توحي به لوائح القرن الثامن، لوائح المدن الأربادية التي ذكرناها، وكذلك لوائح المقاطعات التي ألحقها بها تغلاتفلاصر الثالث في سنة ٧٣٨ ق.م. وهذه الأخيرة لا تضم "الجبل الأقرع" و"جبل بريشا" فحسب، بل كذلك حزرك باسمها الآشوري "حتاريكا"، والمدن الواقعة أكثر إلى الشمال، مثل "إليّتاربي" (وهي تريب الواقعة على مسافة ٣٠كم غربي حلب) و"زيتانو" (زيتان الواقعــة على بعد ٢٠كم في الجنوب الغربي من حلب). وبما إن هذه اللوائح تتضمن أيضًا مناطق ساحلية مثل "سيميرّا"

و"أسنو" التي كانت ما تزال مستقلة في زمان حرب قرقر، وربما في زمان زكّور أيضًا، فعلينا أن نحسب أيضًا جملة من التوسعات الحدودية لحَماة - لُعُش نجهل تاريخها، وانه لمن المدهش أن يكون "أدد – نراري" قد انتزع حزرك من زكّور. إلا أن مدنًا أخرى، مثل ايليتاربي وزيتانو، قد لا تكون وقعت تحت سيادة حَماة إلا في وقت لاحق، في القرن الثامن، أو أنها قد انتُزعت من زكّور في زمان نصب أنطاكيا، قبل أن تُعاد إليه أو إلى أحد خلفائه.

مملكة حَماة الآرامية

جغرافية حَماة

حينما استولى زكّور على مقاليد السلطة في حَماة، لم تتلاشَ فيها الكتابة الهيروغليفية المستعملة في القرن التاسع بين ليلة وضحاها. فبالإضافة إلى نصبه الآرامي، هناك كتابات أخرى باللغة عينها تؤكد حلول توازن ثقافي جديد.

إن دراسة جغرافية حَماة كان يجب أن تنطلق مبدئيًا من زمان "اورهيلينا" الذي عرف أن يكتسب لقضيته قسمًا كبيرًا من الدول السورية ضد الاحتلال الآشوري في السنوات ٨٥٣ و٨٤٩ و٨٤٨ و٨٤٥، وقد أقامت سلالته "الحيَّ الملكي" في القسم الجنوبي من قلعة حَماة الحالية. وكانت المملكة في ذلك الزمان تحدّها من الشمال پاتينا ولُعُش، ومن الشرق الصحراء السورية، ومن الجنوب مملكة دمشق، ومن الغرب سلسلة طويلة من دويلات ساحلية، معظمها في الجهة الشرقية، يحاصرها "جبل انصارية".

إن هذه الحدود مبهمة، ولا ندري أي جزء من السهب الشرقي كانت حَماة تطالب به. وهذه القضية تبدو غير منفصلة عن قضية حدود حَماة -

دمشق التي لم تؤدِّ البحوث عنها حتى الآن إلى نتائج ثابتة. وفي الجنوب الغربي كانت تنفتح فتحة حمص الواسعة. وحكمت حَماة هذه المنطقة في نحو منتصف القرن الثامن. وفي أزمنة أخرى، وقعت الهجمة انطلاقًا من الساحل، أمورو في العصر البرنزي الحديث، وارادوس (أرواد) بعد غياب حَماة. ومدّت هذه الدول سيطرتها من الساحل نحو الداخل. ولا بدّ أن هذه الحدود كانت متحركة في العصر الحديدي. إلاّ أننا لسنا مطلعين بكفاية على تقلّباتها.

إن اللوائح القديمة للمدن، لوائح سنة ٧٣٨ ق.م. وتلك التي يدّعي شلمناصر الثالث انه احتلها سنة ٨٥٣ أو سنة ٨٤٨، لا تتيح لنا حقًا أن نرسم حدود حَماة كما كانت قبل عهد زكّور. وفي سبيل تحديد النواة الأولى لحَماة نعتمد اكتشافات كتابات في جنوبي حلب وفي منطقتها أكثر من اعتمادنا اللوائح القديمة للمدن. فخمس من هذه الكتابات هي من حَماة، وواحدة أخرى من أفامية (قلعة المديق)[١٠]، وغيرها من "مخارد" وسيفار[١١]، وكتابة أخرى مماثلة لكتابة "المديق" وُجدت قرب "رستان"[١٢]. وتأتي هذه الأنصاب من "اورهيلينا" ومن ابنه "اورتامي"، وكلها تقريبًا تطري المنشآت الملكية. إنها في مواقع استراتيجية حسنة للسيطرة على الجزء الأفضل من وادي الأورونت. وكانت أفامية تسيطر في آن واحد على الجنوب الشرقي من "غاب" وعلى السهل ذي المناخ الصحي الممتد شرقًا وجنوبًا. ويكتنف الأورونت سيفار من جانبيها، مثل حَماة. وهذان الموقعان، إضافةً إلى "رستان"، يشغلان نقاط الملتقى بين الطرق الرئيسية لوسط سوريا والأورنت. أما "تل اشارنة"، فلا بدّ

[١٠]- افامية الإغريقية والرومانية، على ٤٥ كم في الشمال الغربي من حَماة.

[١١]- مخارد قرية كبيرة تقع شرقي الطريق المؤدية إلى حَماة، على مسافة ١٤كم في الشمال الغربي من حَماة. أما "سيفار" أو شيزار فتقع على شاطئ الأورونت الأيمن، على مسافة ٢٣كم في الشمال الغربي من حَماة.

[١٢]- تقع "رستان" على الشاطئ الشمالي من الأورونت، عند منتصف الطريق بين حمص وحَماة.

انه كان يشكّل جزءاً من شبكة النقاط المحصَّنة. إنه يسيطر على معبر هام من الأورونت وعلى طريق تجتاز بجبل أنصارية. إنه تل ضخم يضاهي حجم قلعة حَماة، وقد أقام فيه سرجون الثاني نصبًا حينما وضع حدًا لمملكة حَماة سنة ٧٢٠ ق.م.

إن هذه المواقع تحدّد نواة حَماة التي تتمحور حول هذا الجزء من وادي الأورونت الذي ليس مغلقًا من الجهة الشرقية بالجبال، وحيث يبتعد النهر تدريجيًا عن جبل أنصارية. ويستفاد من مياه النهر للري بواسطة النواعير. وذلك لأن الأمطار لا تكفي لتأمين الزراعة التي تشكّل أهم مورد للسكان.

من الصعب تقدير الازدهار المادي لحَماة. ولقد عُثر في قلعة حَماة على أسلحة معدنية وأغراض كمالية، كما عُثر على آثار أخرى في هذه المملكة، وفي غيرها من البلدان أصلها من حَماة. وتُظهر هذه الاكتشافات ان المملكة كانت تنتج الأشياء نفسها مثل سائر الدول السورية. وكان لها مدارس للمهنيين. ويدهش المرء حينما يلاحظ ان عاصمة هذه المملكة كانت أقل إمتدادًا من عاصمة مملكة سمأل الصغيرة.

تاريخ حَماة بعد زكّور

علاقات متوترة مع الإمبراطورية الآشورية

إن تاريخ حَماة ــ لُعُش بعد زكّور غامض جدًا. ورأينا ان الإمبراطورية الآشورية، بعد بضع سنوات من حرب حزرك، كانت قد مالت إلى أرباد، أثناء خصومة حدودية بين عطار ــ سمك وزكّور، في شأن مدينة "نخلاسي" يبدو ان هذا التوتّر قد استمرَّ في عهد خلفاء زكّور الذين نجهل أسماءهم.

من المؤكد ان "شمشي - ايلو" قد اجتاز بحَماة، حينما زحف إلى دمشق سنة ٧٧٣ ق.م، ثم صعد بعد ذلك نحو "كوموخ". لا شك أنه يجب وضع هذا الحدث في صلة مع أولى من الحملات الثلاث ضد "حتاريكا" (حزرك) التي تحدّدها التواريخ بالسنوات ٧٧٢ و٧٦٥ و٧٥٥. وربما ان اجتياز الجيش الآشوري قد أثار في الشمال مظاهرات الحقد والكراهية، ظن الآشوريون إن من واجبهم معاقبتها. إن حَماة المركزية ظلت في الخفاء، في حين ان حزرك كانت في مجابهة آشور. وربما ان الناس في حزرك أكثر منهم في حَماة كانوا متأثرين بأرباد، جارهم القريب والعدو العنيد للإمبراطورية الآشورية. وهذا من شأنه أن يساعدنا في فهم حملات سنتي ٧٦٥ و٧٥٥. مهما يكن من أمر، فإن التضامن بين قطبي الملكية المزدوجة لا يبدو كبيرًا جدًا.

إلحاق الإمـارات الساحليـة

تجدر الإشارة إلى التوسع الحدودي الذي تشهد له نصوص عديدة من القرن الثامن. وقد لاحظنا في نهاية عهد زكّور، انه ضمَّ مدناً شمالية عديدة إلى لُعُش. وأسهل من ذلك هو أمر ضمّ دويلات ساحلية كانت تنعم بحكم ذاتي سنة ٨٥٣ ق.م. ونجدها بين "١٩ مقاطعة من حَماة" ألحقها تغلاتفلاصر الثالث سنة ٨٣٨. وبين الأعداء الذين جابههم شلمناصر الثالث في "قرقر"، نلاحظ خمس دول هي صومور وايرقاتو، وارواد، واوزاناتو وشبانو. ولا بدَّ انها كانت تشغل كل الساحل السوري اللبناني بين طرابلس واللاذقية. وهذه البلدان تشكّل هنا جزءاً من لائحة من الدول التي تنعم بحكم ذاتي نسبي. ويُذكر ملكا ارواد وشبانو باسميهما الصريحين. ونعجب من إجماع هؤلاء الجيران في مساندة حَماة، ونشعر بأن هذه القوة كانت تنعم من الآن بتأثير

كبير في منشآت الساحل قبل الحالة التي تكشف عنها نصوص تغلاثفلاصر بوقت طويل.

نهايـة حَـماة

كانت حَماة قد امتدت كثيرًا منذ عهد زكّور، ولكنها انهارت بعد أقل من قرن بعده. وكانت نهايتها على مرحلتين غامضتين. فبعد فشل المعاهدة بين "سردور" الثاني و"متي – ايلو"، قام زعيم لا نعرف سوى اسمه (أز - ري - يا - ا - دَ بالمسمارية) بإثارة مناطق جنوبي أرباد وغربيها ضد تغلاثفلاصر الثالث. وكانت هذه المناطق على الخط الأول من التقدم الآشوري. فقاومت لُعُش السابقة والمقاطعات الساحلية لحَماة الملك الآشوري وقامت "اونقى" (پاتينا)، التي تقلّصت في الواقع إلى ما حول "كونولوا"، ولكن ملكًا خاصًا بها "توتامو" ما يزال يحكمها، بإضافة مقاومتها إلى مقاومتهم. وفي حملة نجهل تفاصيلها، تم سحق الحلفاء. وفي سنة ٧٣٨، أُحيلت المقاطعات الثلاث التي ذكرناها إلى مقاطعات آشورية يُشار إليها بمراكزها الرئيسة: كولّانيا (كونولوا سابقًا) وصيمرّا (صومور) وحتاريكا (حزرك). ومن الجدير بالملاحظة وبالأهمية لفهم البُنى السياسية الآرامية ان "ي - ني – ايلو" يُذكر كملك حَماة في لوائح الملوك الذين أدوا الجزية لتغلاتفلاصر سنة ٧٣٨ ق.م. وشأن "احوني" ملك بيث أديني في السابق أثناء حرب "كبرابو"، لقد ظل "ايني – ايلو" على هامش المعركة التي خاضها جزء من المملكة، ولم يلق المنتصر أي مسؤولية عليه.

لقد طال انتظار نهاية هذه المملكة المبتورة حتى سنة ٧٢٠ ق.م. وإذ ذاك قام الملك "يوبيعدي" بآخر معركة ضد آشور. وربما كان "يوبيعدي" مغتصبًا آخر. وسرجون الثاني الآشــوري الذي يعلنه "دون حق على

العرش" يسلخه حيًا. وكان قد لقي مساندة من المقاطعات السورية الملحقة حديثًا، من أرباد حتى السامرة. وقد اشتركت ارواد نفسها في هذه الانتفاضة الأخيرة. وأسفرت المعركة، الحاسمة عن الاستيلاء على قرقر التي يصفها سرجون مثل المدينة المفضلة لـــ"يوبيعدي". لكن التمرّد لَقي عقابًا صارمًا أيضًا في المقاطعات المخالفـــة الأخرى، وهي أيضًا، مثل حَماة، تعرضت للسبي. فتعرضت قلعة حَماة للدمار والنهب. وقد خلّد سرجون انتصاره هذا على نصب أقامه في "عشارنة".

وقد استمر موقع حَماة محتلاً في عهد السرجونيين وفي العهد البابلي ـــ الحديث. ولكن بعد انهيار المملكة، لا تُذكر حَماة من بعد حتى مثل مقاطعة. فهنا، كما في سائر سوريا، كانت المواقع المدنية والنشاط الاقتصادي يتمركزان أكثر من أي وقت آخر في المناطق الساحلية.

الفصل السابع

دمشق وجنوبي سوريا

أتناول الآن موضوعًا مهمًا جدًا يتطرق إلى حياة الدويلات الآرامية. لأن دمشق كانت تشكل قلب الدويلات الآرامية النابض. وقد لعبت هذا المنطقة دوراً كبيراً في الشرق الأوسط، وكانت علاقاتها تمتد إلى جميع الآراميين المنتشرين في أعالي بين النهرين وحتى في المناطق الوسطى منها والجنوبية. وكان وجودهم يزعج الإمبراطورية الآشورية، ويسبب لها مشاكل كثيرة. وقد أسهموا، مع دول أخرى، ولاسيما الدولة البابلية الحديثة، في القضاء على الإمبراطورية الآشورية سنة ٦١٢ ق.م.

اسم المملكة

بين الدول المشرقية المعروفة نسبياً، كانت دمشق وحدها تختص عادة باسم "آرام". وهذا هو الاسم الذي تحمله في كتابات "زكور" وفي سفر

الملوك من العهد القديم، في حين أن الكتاب المقدس يحتفظ باسم "دمشق" للعاصمة. كذلك تمييز النصوص الآشورية التي تذكر هذه المملكة بين اسم البلاد واسم عاصمتها. ولكن منذ الاصطدام الأول بين الأمتين في عهد الملك شلمناصر الثالث الآشوري، تستبدل النصوص اسم "آرام" بتسمية يبدو أنهم هم الذين صاغوها، وهي "كور- شا – ايميريشو"، وتعني حرفياً "بلاد حميرة "[1].

الدولة الآرامية الجنوبية قبل تأريم دمشق

إن وضع مملكة دمشق مثل "آرام" باختصار، أو مثل قوة آرامية، ليس أقدم من الانتفاضة التي قام بها رازون، وهو ضابط منشق على مملكة "صوبة " طوال شيخوخة الملك داود، أو في عهد ابنه سليمان (١ ملوك ١١: ٢٣ ــ ٢٥). إلا أن الحضور الآرامي في جنوب حماة لم يكن جديداً. فمنذ سنة ١١٠٠ ق.م، كانت القبائل تعتاد الفرار من أمام وجه تغلاثفلاصر الأول نحو الغرب عبورًا بتدمر. وهناك تقليد عن يعقوب (تكوين ٣١: ٢٢-٥٤) لا يضع سوى مسيرة عشرة أيام بين بلاد لابان الآرامي (حران) وبين موقع جلعاد حيث لحق لابان بختنه يعقوب.

من المتفق عليه أن داود ملكَ في بدء الألف قبل الميلاد. وينسب سفر صموئيل الثاني إليه انتصارات باهرة أحرزها على آراميي بيث رحوب وصوبة، وكانت تساعدهما أولاً جيوش من طوب ومعكة (٢ صموئيل ١٠: ٦ ــ ١٤)، ثم جيوش أمثالهم في ما وراء الفرات (الآية ١٥ ــ ١٩). من

[1] - يرى البعض أن الأشوريين كانوا يرفضون منح دمشق اسم "آرام" الذي كان تقليدهم يربطه بالأحرى بمناطق من سوريا الشرقية ومن بين النهرين التي كانت قد انضمت الى إمبراطوريتهم، فصاغوا اسم "بلاد حميرة" أو "بلاد الحمارين" استنادًا إلى شهرة دمشق كمركز لتجارة هذا الحيوان المفيد للقوافل.

الصعب تنسيق هذه الأحداث المتعلقة برواية داود وأبيشالوم بموضوع الحملات العمورية مع (٢ صم ٨: ٣ ــ ٨) الذي يعطي جزءًا من سلسلة معلومات عن انتصارات داود على الصعيد الدولي. فإن مناسبة الخلاف ومسرح العمليات يختلفان في (٢ صم ٨: ٣ ــ ٨ عن، ١٠: ١٥ــ١٩)[٢] ولكنه من غير المقبول تاريخيًا أن يكون هدد عزر بن رحوب ملك صوبة قد استطاع تنظيم حملة جديدة ضخمة بعد الهزيمة النكراء التي مُنيَ بها والمذكور في (٢ صم ٨: ٣ ــ ٨ أو في ١٠: ١٥ ــ ١٦)، مهما كان الترتيب الزمني الذي يُعطي لهذه الحروب. وبما أن الروايتين تخصان العدو نفسه[٣]، ولهما هدف مشترك هو هدف الآراميين ما وراء الفرات، فيمكن القول إننا ههنا أمام روايتين مختلفتين للحرب نفسها. هناك تفاصيل واقعية في (٢ صم ٨: ٣ ــ ٨)، مثل أسماء المدن والغنيمة، وردة فعل ملك حماة بعد انتصارات داود، تحملنا على الاعتقاد أن هذه الرواية هي أقرب الى الأحداث من (٢ صم ١٠: ١٥ ــ ١٩).

مهما يكن من أمر، فالتقليد الكتابي يرقى بصعوبة إلى القرن العاشر قبل الميلاد[٤] وبحسب هذا التقليد، كانت هذه الدولة تنعم ببعض السلطة على آراميي بيث رحوب وعلى أهالي طوب ومعكة، وعلى آراميين مستقرين ما وراء الفرات. إن نصوص العهد القديم لا تُطلعنا مباشرة على وضع صوبة الجغرافي.

[٢] - يختلف الأمر إذا ما قبلنا أم شهادة: ١ أخبار ١٨: ٣ عن منطقة حماة كمسرح الخلاف الوارد في (٢ صم ٨: ٣ ــ). أما معركة حيلام (١٠: ١٥-) فيبدو أنها دارت في موضع يقع عبر الأردن.

[٣] - أي هدد عزر. وتجدر الملاحظة أن هذا الشخص لم يذكر اسمه في (٢ صم ١٠: ٦ ــ ١٤).

[٤] - ١ صم ١٤:٤٧ الذي يرقى بنا إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، يذكر ملك صوبة "بين الأعداء الذين انتصر شاول عليهم" – ويبدو انهم نفس أولئك الذين انتصر داود عليهم (٢ صم ٨).

إن المنطقة المحيطة بمركز المستقبل هليوبوليس (بعلبك) وكلسيس، كانت ستصبح مقاطعة "منصورة" الآشورية. ولكن لا شيء يشير إلى أن منصورة كانت تتميز منذ ذلك عن "صوبة" في عهد هدد عزر. والمصدر الذي يذكر "بيروتاي" (٢ صم ٨: ٣ ــ ٤ ، ٧ ــ ٨) يسمى هدد عزر.بن رحوب، ولكنه لا يذكر بيث رحوب بصورة منفصلة. وحتى ٢ صم ١٠: ٦ ــ ٨، الذي يذكر بيث رحوب، يربط هذا الموضوع بصوبة. وبشيء من التوافق نستطيع القول إن هدد عزر كان أصله من شعب رحوب، وكان يحكم البلدين... قد يكون من الأفضل أن نضع الحدود بين صوبة وبيث رحوب قليلاً نحو الجنوب بالقرب من "منصورة"، وهذا ما يوحي به سفر القضاة (١٨ ــ ٢٨).

مهما يكن من أمر، فإن صوبة كانت شمالي بيث رحوب، ويجب أن ننسب إليها ليس الوادي وحسب، بل جبال أنتيلبنان. أما سكوت نصوص العهد القديم عن ذكر هذه البلاد بعد انتصارات داود، والأهمية التي اكتسبتها دمشق منذ عهد سليمان، فهذا لا يعني الزوال الفوري لصوبة وسلالتها. ونعتقد اننا نراها من جديد سنة ٨٥٣ ق.م، في نهاية تعداد القوات المشرقية المضادة للملك شلمناصر الثالث في "قرقر" وأن الاسم المستعمل في النص الآشوري وما ورد في (١ ملوك ١٥: ١٨ ــ ٢٠) قد يمكّننا من الافتراض أن صوبة السابقة ما يزال يحكمها رجل من بيث رحوب، ولكنها كانت قد فقدت الكثير من نفوذها وأراضيها، ويبدو أن سياستها وقعت تحت سيطرة دمشق، كما كانت دويلات الساحل تحت تأثير حماة.

دمشق ومملكة آرام ـ قضايا جغرافية

دمشق وواحتها

بعد انتفاضة رازون، تحول مركز الثقل نحو دمشق، في السهل، نوعاً ما تحت إبط أنتيلبنان. وإذ كانت الأمطار قليلة في دمشق، فإنها تعالج وضعها الصحراوي بالأنهار التي تنحدر إليها من منطقة الزبداني، ولاسيما بنهر بردى الذي كان يُسمى "أمانة"، مثل الجبل الذي منه يستمد ينبوعه. فالمدينة نمت في واحة هي الغوطة. وكان الري يغنيها بالنباتات التي أثارت غضب الملك شلمناصر الثالث وتغلاثفلاصر الثالث. إن المدينة العصرية لم تُتِح لعلماء الآثار أن يكشفوا عن مخطط العصر الحديدي وعن آثاره. نعرف فقط انه في القرن الميلادي الثالث، كان معبد لجوبيتر الذي كان يشغل مركز المدينة، والذي ما تزال جدرانه قائمة حتى الآن، لا سيما من الجهة الغربية ومن الجهة الجنوبية من الجامع الحالي، هو آخر شاهد سابق للعهد المسيحي لمعبد هدد المذكور في العهد القديم (٢ ملوك ٥: ١٨).

الأراضي الأخرى

أطراف الصحراء وحوران

إن الركيزة الاقتصادية الصلبة التي كانت الغوطة توفرها لدمشق، كانت تُضاف إلى وضعها الاستراتيجي في منحدر "طريق الملك" وتجعل منها مركزاً ممتازاً للقوافل. وقد حددها هذا الوضع إلى توسيع مدى نفوذها أكثر ما أمكن. إن التأريم كان يتيح لها أن تستوعب بسهوله الشعوب التي كانت من قبل تتميز بوضوح عن المدينة القديمة، والضربات التي وجهها الملك داود إلى قوة صوبة وفَّرت لدمشق فرصة رائعة للاستحواذ بسرعة على بقية الآراميين في الجنوب. فكان بعض من هؤلاء قد تشتتوا على أطراف

الصحراء، حيث كانت الآبار تتيح لهم العيش بحسب حياة الرعاة والقوافل. إلى الجنوب أكثر، بين حرمون وجبل الدروز والحوض الأعلى ليرموك، كان السكان أكثر كثافة وهم على ثقافة حضرية تساعدهم الأمطار وأرض بركانية خصبة، وكانوا يملأون حوران (باشان العهد القديم) التي سيجتاحها شلمناصر الثالث مرتين : في سنة ٨١٤ ق.م و ٨٣٨ ق.م. لكن آثار العصر الحديدي غير منظورة فيها، بالمقارنة مع الحقب الآثارية الأخرى. ولم يحظَ جنوب سوريا بالتنقيبات العلمية الكافية. وآثار التأثير الحثي ــ ما يزال يَسِم حوران في عهد ملوك آرام.

جشور ومعكة

في غربي حوران تشير المعطيات الاثارية الى أن جشور، على الشاطئ الشرقي من بحيرة طبرية، عرفت تغييرات مهمة جعلتها على طابع آرامي، في نحو مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. ونعتقد أن معكة الواقعة شمالي جشور، كان لها المصير نفسه قبل ذلك، وربما قبل أن تتجاوز إلى جانب صوبة والعمونيين ضد الملك داود. وإذا كان هذا النمو قد تجسد على الصعيد السياسي أم لا بخضوع هذه البلدان لدمشق، قبل إلحاقها التام بها، فإن غزوات بن هدد في شمال الجليل بحسب (١ ملوك ١٥: ٢٠) تميل إلى وجود اتحاد وثيق بين معكة وجشور ودمشق. والسكوت السائد حول حضور هاتين الدويلتين في قرقر، كأنه يفرض أنهما في سنة ٨٥٣ ق.م كانتا قد فقدتا كل حكم ذاتي ووطني، وكانت آرام تمتد إذ ذاك على طول الحدود الشمالية لإسرائيل.

آرام جارة إسرائيل

لكان من المهم لو أننا استطعنا أن نوضح إلى أي مدى كانت سلطة دمشق تمتد باتجاه الجنوب، شرقي نهر الأردن، قبل غزوات حزائيل في هذه المنطقة، وهي أقدم منطقة خلاف تذكرها النصوص هو راموث جلعاد[٥]، حيث تجابه حزائيل ويورام بن آحاب، وذلك في نحو سنة ٨٤١ ق.م. وفي لائحة محافظي سليمان، الدائرة التي سلمت إلى "جبار" (١ ملوك ٤: ١٣) أعطت شكلاً من الأساس لأسطورة الغزو والاستقرار في باشان (حوران)، كما في التثنية٣. ولكن هذا الفصل والنصوص المتعلقة بدخول إسرائيل إلى عبر الأردن الشمالية، لا تتيح لنا أن نوضح ظروف هذا الدخول ولا كثافته السكانية ولا مدته. في (١ ملوك ٢٢: ٣)، يتكلم ملك إسرائيل وكأنه يريد أن يحطم خمول رجاله تجاه خسارة قديمة قد اعتادوها. وقد ترقى سيطرة الآراميين على راموث جلعاد إلى ما وراء الحرب بين آسا وبعشا، لأن لائحة الغزوات الآرامية التي سببتها هذه الحروب (١ ملوك ١٥: ٢٠) لا تذكر عبر الأردن.

التاريخ السياسي لمملكة دمشق

آرام وإسرائيل بعد رازون

بعد الحرب الباردة التي تبعث ادعاءات داود على دمشق، آرام وإسرائيل غيرتا حكامهما بر هدد (ابن هدد بحسب الكتاب المقدس) الذي نجده على عرش دمشق في منعطف القرن التاسع قبل الميلاد ليس رازون أباه ولا

[٥] - قد تكون "الحصن" على بعد ١٦ كم في الجنوب الغربي من "رامتا"

جده[٦]. أما ابن سليمان، فقد رفضه الجزء الشمالي من مملكته (١ ملوك ١٥) الذي أطلق عليه اسم إسرائيل والحدود الآرامي. إن القادمين الجدد إلى الحكم لم يكونوا مرتبطين بخصومات أسلافهم، فعقدوا السلام، ومن ثمة المعاهدة التي ورد ذكرها في (١ ملوك ١٥: ١٩). ولما اشتد على آسا ملك يهوذا ضغط جاره بعشا، اشترى نقض هذه المعاهدة وحصل على التدخل الآرامي في مؤخرات جيش إسرائيل. ويربط العهدى القديم بهذا الحادث الغزو الذي قام به بن هدد للجليل كله وشمالي وادي بيث نتوفة (١ ملوك ١٥: ٢٠). ومن الأرجح أن معبد "دان" هُدم آنذاك. وربما يمكننا أن نضع في هذه الفترة نفسها ترك ١٩ موقعاً من ٣٦ موقعاً في الجليل الأسفل.

كان التراجع الإسرائيل مؤقتاً، إذ يمكن أن تؤرخ في عهد آحاب تجديد "دان" وتحصينها، وكذلك إعادة بناء "حضور" بناية أوسع (يشوع ١١: ١٠). ولا بدَّ أن زحف آشورناصربال نحو البحر المتوسط بين سنة ٧٨٠ق.م ٨٦٦ ق.م قد أثار حكام الجنوب في سوريا لكي يتحدوا. وإن تقاربًا بين آرام وإسرائيل قد يرقى إلى عهد "عمري" (٨٨٥ ــ ٨٧٥ ق.م). وتظهر حكمة هذا الموقف حينما قضى شلمناصر الثالث، على المقاومة غير المتناسقة جيداً التي أبدتها دول سوريا من الشمال، دمرَّ بيث أذيني (٨٥٨ ــ ٨٥٥ ق.م). وحينما طلب أورحميلينا المساعدة سنة ٨٥٣ ق.م، أفلح ملك آرام، هدد عزر، في تنظيم تحالف أنجح بكثير من ذلك الذي كان قد ساند "أحوني".

[٦]- بحسب ١ ملوك ١٥: ١٨، بن هدد هو ابن طبريمون بن حزيون ملك آرام. وتجدر الاشارة إلى أن اسم أبيه مأخوذ من لقب إله العاصفة.

هدد عزر وتحالف الإثني عشر

الحُلفاء السوريّون الإثنـي عشر

إن كتابات شلمناصر الثالث تزودنا بمعطى ثابت، وهو أن الحلفاء السوريين كانوا اثني عشر. إلا أن اللائحة الوحيدة التي لدينا، وهي لائحة "كورخ" تعدّ ١١ أميراً معاديًا فقط. وبحسب هذا المصدر، كان خصوم ملك آشور:

- هدد عزر(آرام)
- آحاب (إسرائيل)
- ملك صومور (بدون إسم)
- متان - بعل (ارواد)
- ادون بعلي (شيانو)
- بعشا بن رحوب (أمانة)
- أورهيلينا (حماة)
- ملك بيبلوس (بدون اسم)
- ملك إرقانا (بدون اسم)
- ملك اوساناتو (بدون اسم)
- حنديبو (بلاد العرب)

ويعددّ المصدر قوة كل ملك وما قدمه للحرب من الرجال والخيل والمركبات الحربية.

القوات المجنَّدة في قرقر

إن القوات التي زجّها المتحالفون في المعركة تبدو مقبولة، ولو أن الآشوري يبدو وكأنه يبالغ في بعض أرقام القوات المعادية لتبرير فشله. مهما يكن من أمر، فإن حماة ودمشق وإسرائيل ألقوا بثقلهم في الميزان، وان الجيش السوري يبدو متفوقاً على جيش شلمناصر الثالث في مركبات الحرب، وربما في الفرسان والمشاة أيضاً.

موقف الإمارات الساحلية

إن غياب صور وصيدا، وهما شريكان فعّالان لإسرائيل ودمشق في التجارة، لأمرّ يدعو إلى الاستغراب. لكن له ما يشرحه. حينما كان آشورناصربال قد بلغ إلى منافذها الشمالية قبل نحو عشرين سنة من هذا التاريخ، كان الفينيقيون قد قدموا له خضوعهم. وهذا لم يكن موقف حماة وجيرانها الجنوبيين. وفي سنة ٨٥٨ ق.م كانت المدن الساحلية قد جددت هذا الخضوع لشلمناصر الثالث. فإذا ناضل الصيداويون الآن ضد الإمبراطورية الآشورية، فلربما أعتُبر موقفهم بمثابة تمرّد يستحق قمعاً صارماً.

وكانت بيبلوس (جبيل الحالية) وأرواد وغيرها قد قدمت الخضوع هي أيضاً لأشورناصربال، ولكن كان عليها أن تحسب حساباً لحماة المجاورة التي كان شلمناصر الثالث يهدّد مصالحها تهديداً مباشراً. وضعف العناصر التي أرسلها معظم هذه الدول هي نسبية مع واقعها الديمغرافي. ولكن ربما هذه الدول قد حسبت حساباً للرجعة، خوفاً من ابن آشورناصربال، وفي الوقت نفسه كانت غير قادرة على مقاومة ضغط القوى المجاورة لها.

دمشق والعرب

إن فرقة الخيالة التي أرسلها "جنديبو" لأمر جديد في الوثائق التاريخية. فالعرب، مثل الفينيقيين كانوا ظاهرياً قد ارتبطوا بالشبكة التجارية التي تسهلها "طريق الملك" وفي هذا المضمار، كانت دمشق تحظى بوضع متميز. ومن الجدير بالاهتمام، أن نعتبر في هذا السياق ختماً من القرن التاسع قبل الميلاد، مكتوباً بالآرامية، ويحمل رموزاً نجومية ويكرم "عطار ـــ شماين" وهي ألوهة شعبية بنوع خاص عند العرب.

نتيجة المعركة

رأينا سابقاً كيف أن الملك الآشوري، قبل اصطدامه بالجيش السوري الكبير، كان قد وطَّد سيطرته على حلب، واستولى على مدن كثيرة كانت في الظاهر جزءاً من لعش، ولكنها كانت من الآن خاضعة لملوك حماة، وهدم قرقر "المدينة الملكية" الحماتية. ولكنه من الواضح والمعترف به عامة أن انتصار شلمناصر الثالث لم يكن باهراً إلى الحدّ الذي يدعيه. وإذا كانت مجزرة الأعداء التي يفتخر بها غير وهمية، فإن النتيجة الهزيلة اضطرته إلى التوقف. فلو كان إنتصاره حقيقياً، لكان عليه أن يواصل زحفه نحو الجنوب. إلا أن معظم روايات الحملة السادسة تتوقف في قرقر، ووثيقتان تشيران إلى انه بلغ الساحل. ولو أن الخسائر الآشورية لم تكن جسيمة، لبدأ شلمناصر هجوماته من جديد في الفصل اللاحق المناسب، كما كان قد فعل سابقاً في نضاله ضد "بيث أديني". أما الآن، فلم يحدث شيء من ذلك[٧]. وكان هدد عزر قد أنقذ أورهيلينا!.

إصطدامات جديدة مترددة، انحلال المعاهدة

حينما أعاد شلمناصر الثالث الكرّة في السنوات ٨٤٩، ٨٤٨، ٨٥٤ ق.م[٨]، جابه المقاومة نفسها كل مرة. ولن تُذكر من الآن اللائحة المفصلة لملوك الأعداء. ولكن يبدو أن التحالف ظل غير متغير. وكانت مجابهات تجري بصورة اعتيادية في الأراضي الحماتية. إلا أن موضع هذه المجابهات لا يُذكر، ما عدا في الحملة الحادية عشرة (سنة ٨٤٨ ق.م)، حيث أعلن عن

[٧]ــ لم يعد شلمناصر الثالث إلى سوريا قبل سنة ٨٤٩ ق.م وحملته المهمة الأولى بعد سنة ٨٥٣ ق.م جرت في ٨٥١ ق.م، على طلب ملك بابل، ولم تحرز إلا نجاحاً محدودًا.

[٨]- وهذه هي حملاته العاشرة والحادية عشر والثانية عشرة.

الاستيلاء على مدينة "أشتماكو" الملكية، وعلى ٨٩ مجموعة أخرى. وفي سنة ٨٥٤ ق.م ربما كانت المصادمة أقوى من أي وقت آخر. في هذه الحملة فقط يشير شلمناصر إلى عدد جنوده، أي ٦٢٠ ألف جندي. وإحدى روايات هذه الحملة تتكلم عن خمسة عشر عدواً عوضاً عن اثني عشر.

لكننا نفهم إرهاق حماة الذي حملَ ملكها على طلب السلام في نحو سنة ٨٤٢ ق.م. وحينما عاد شلمناصر الثالث إلى سوريا في حملته الثامنة عشر (٨٤١ ق.م) كان الخصم الوحيد الذي التقاه هو حزائيل الآرامي. وبعد ذلك، في السنة نفسها، تلقى جزية ملك إسرائيل، ياهو بن عمري. وبالإضافة إلى هزيمة حماة وضعت هزيمة إسرائيل حداً للحلف الإثني عشري.

لم يعد شلمناصر الثالث إلى سوريا قبل ٨٤٩ ق.م وحملته المهمة الأولى بعد سنة ٨٥٣ ق.م جرت في ٨٥١ ق.م، على طلب ملك بابل، ولم تحزر إلا نجاحاً محدوداً.

سنوات حزائيل الأولى

كانت دعاية الأعداء ترى في حزائيل مغتصباً للعرش. ومن الصعب ألا تربط انهيار الجبهة السورية باحتفاء هدد عزر الذي عرف دوماً أن يصون وحدة التحالف. إلا أن غموض الوثائق يحجب عنا تسلسل الأحداث الدقيق. ويُفترَض عادة أن حزائيل أطاح بهدد عزر، ربما باغتياله، أن حُلفاءَه الرئيسين، إذ شعروا بكونهم محرّرين من وعودهم، فضّلوا الانسحاب، سواء لعدم ثقتهم بالمغتصب أو لأن ثقل الجزية ظهر لهم أخف مما هو عليه وقت حرب لا تنتهي.

ويبدو أن موت هدد عزر ومجيء حزائيل إلى الحكم قد سبقا النزاع بين آرام وإسرائيل، بما أن يورام ملك إسرائيل وحليفه ملك يهوذا صعدا ضد

حزائيل إلى راموث جلعاد، بحسب ٢ ملوك ٨: ٢٨ و١ ملوك ٢٢. إلا أن ظروف موت هدد عزر ومجيء حزائيل وخضوع حماة للإمبراطورية الآشورية تبقى غامضة. أما الوثائق الآشورية، فإنها تنظر إلى سلطة حزائيل على دمشق مثل أمر واقعي. وهناك وثيقة واحدة تقدم حزائيل بصفة مغتصب. ففي نظر معظم شراح الكتاب المقدس، القصة التي تروي الاستشارة التي طلبها الملك بن هدد من النبي أليشع (٢ ملوك ٨: ٧ ــ ١٥) تقول لنا كيف وضع حزائيل حدًا لحياة خصمه المدنف. إلا أن هذا النص نفسه لا يجعل بنوع صريح حزائيل قاتل سلفه.

شرعية حزائيل بحسب كتابة تل دان

إن حزائيل هو بالتأكيد صاحب الكتابة التذكارية الآرامية القديمة التي اكتُشف في تل دان (إسرائيل) في سنة ١٩٩٣، ويبدو أنه يتكلم فيها عن الملك سلفه مثل "أبيه"، إلا أن هذه الوثيقة ناقصة. ومن الظاهر أنها كتبت لتمجيد صاحبها، مما يجعلنا نتّخذ منها موقف الريبة والحذر.

إن نسبة هذا الأثر إلى حزائيل مبررّة قبل كل شيء لأن الكاتب آرامي وهو يعلن إنتصاره على ملك إسرائيل وينتهي اسمه بـــ"رم". لا يمن أن يكون إلا "يورام" بن آحاب. وإذا كان يورام حليفًا أمينًا لهدد عزر في الأقل حتى سنة ٨٤٥ ق.م. فإنه ناضل بعد ذلك ضد حزائيل. فكنل نتوقع إذًا أن نجد في بداية الكتابة عبارات تعلن عن سوابق هذا الأمير. ولكن للأسف فإن السطرين ١ ــ ٢ هما مخرومان كثيرًا. وحتى لسنا متأكدين من أن يكونا السطرين الأولين من الكتابة... ويستشف من هذه الكتابة أنها تطرح، برغم كل شيء، صلة أكيدة بين ارتقاء صاحبها إلى الملوكية وموت أبيه، وتدعونا إلى الاعتقاد أن حزائيل كان ابن ملك آرام الراحل، ولكن سيطرته على الحكم

كانت عسيرة. لكن الدعاية المعادية أخذت معضلة الخلافة هذه وشوهتها، وجعلت من حزائيل مغتصباً. وتتقصنا المعطيات المحايدة لكي نرى صحة الأحداث، ونميّز بين رواية الأعداء ورواية حزائيل نفسه إلى شرعية حكمه.

خلاف مع يورام ملك إسرائيل

إن كتابة نصب تل دان المشوَّهة تؤكد لنا وقوع الحرب مع يورام. وهذا في الواقع أول خلاف تروية هذه الكتابة. وقد لا يكون من المستحيل أن نتعرف، في السطر الثامن، إلى اسم ياهو وإلى دوره في اغتيال يورام. وحسب ما نستشف من الكتابة أن صاحبها يكون هو الذي هزم يورام أو جرحه. لكن خادمه ياهو هو الذي قضى عليه بهمجية، وبذلك أثار انطلاق حُلفائه سكان اليهودية. ويظهر مما يلي هذا النص أن خلافات صاحب النصب مع الممالك الجنوبية لم تتوقف عند هذا الحد. إلا أن بقية الكتابة لا تتيح لنا التعرّف إلى أي حدث آخر.

حزائيل – في العزلة - حملة سنة ٨٤١ ق.م

إن الخلاف مع إسرائيل كان الأول الذي نشب بين حزائيل وجيرانه. ويمكننا الافتراض أن حماة كانت قد انسحبت بدون ضجة من تحالف الاثني عشر.

في سنة ٨١٤ ق.م، زحف شلمناصر الثالث، ولم يكن الآن ما يمنعه من ذلك منذ سنة ٨٤٣، إلى دمشق من خلال حماة. إذ كان ملك آرام قد فقد حُلفاء أبيه، فإنه تصرّف بدهاء، فأخّر تقدّم الآشوريين، إذ تحصّن في جبل "سانير" وهو قمة من قمم انتيلبنان. وما إن تمَّ احتلال هذا المعقل، حتى التجأ إلى عاصمته التي لم يكن لعدوه الوقت الكافي ولا الوسائل الفعالة لاحتلالها

عنوةً قبل نهاية ذلك الفصل. ومن هناك شاهد اجتياح الواحة المجاورة وجنوب البلاد. فان شلمناصر خرب "مدنًا لا تحصى" قبل أن يغادر حوران للذهاب إلى الجبل الواقع على الساحل المقابل لصور، حيث ترك نقشًا بارزاً لتخليد هذه الذكرى، قبل العودة إلى الشمال. إن صور وصيدا اللتين دفعتا الجزية مع يهوذا في هذه المناسبة، لم تشهرا السلاح قط ضد آشور. أما الدول الواقعة نحو الشمال، فلا بدّ أنها تبعت ملك حماة في استسلامه، كما كانت قد تبعته سابقاً في مقاومته.

وما لم يكن ذكر صور تخمينًا مبهمًا، وان شلمناصر الثالث قد بلغ الساحل من الجهة الشمالية[٩]، فإن نقاط الوصول الأرجح هي رأس الناقورة جنوبي صور ومرتفع الكرمل. وهكذا يكون الجيش قد اجتاز أراضيَ إسرائيلية. ويمكننا الاعتقاد أن الأمر قد جرى بدون مقاومة. وكان ملك آشور يدري أن إسرائيل كانت في حرب مع ملك آرام الجديد، ولا بدَّ أن ياهو كان قد وعد بأداء الجزية قبل مثوله شخصياً أمام شلمناصر.

إن حملة سنة ٨٤١ ق.م كانت قد أوقفت النضال لأجل راموث جلعاد. وقد أصبح هذا النضال معلقًا طوال بضع سنوات. والخسائر التي تكبدها حزائيل، والهلع من عودة الآشوريين لم تسمح له بأن يعاود الهجوم ضد إسرائيل. ولكنه كان ما يزال من القوة بحيث يستطيع أن يصدَّ الطريق بوجه ياهو الذي كانت مملكة قد ضعفت ليس بسبب الانقلاب الدموي (٢ ملوك ١٠) فحسب، بل أيضًا بعداء "عتليا" في اليهودية وعداء "ميشا" في موآب.

---

[٩]ـــ قد يترتب علينا، والحال هذه، أن نواجه نهر الكلب، على بعد ١٥ كم شمالي بيروت. هناك علماء كثيرون يرجحون ان احد النقوش البارزة الممحوة كثيراً في هذا المضيق هو عمل شلمناصر الثالث.

حملة سنة ٨٣٨ ق.م

لم ينعم حزائيل طويلاً بهذا الهدوء. ففي سنة ٨٣٨ ق.م، سار شلمناصر الثالث على درب الجنوب. ويبدو أن حزائيل ودمشق أفلتتا منه مرة أخرى. وهذه المرة، بدل أن يفتخر الآشوري باجتياحات غير محدّدة، يستطيع أن يسمي أربعة مراكز من الدرجة الأولى في نشوة انتصاره، ولم يُحفظ منها سوى إسمين: دانابو وملاخو. والاشارات التي في حوزتنا لا تتيح لنا أن نحدّد باليقين المطلوب: هل كانت هذه المدن واقعة في منطقة دمشق أو في حوران. وإذا كانت "المدينة الملكية" ملاخو في حوران، سيتسنى لنا أن نفهم الأهمية التي أبداها شلمناصر لهذه المنطقة منذ سنة ٨٤١ ق.م، والعناد الذي به حزائيل وخلفُه نافس إسرائيل عليها.

الهيمنة المستعادة

لم يعد شلمناصر الثالث من بعد إلى جنوب سوريا قط بعد الحملة التي قام بها سنة ٨٣٨ ق.م. فطوال ما تبقى من هذا العقد، ركَّز جهوده على بلاد الأناضول. بعد ذلك، في عهده وعهد شمشي أدد الخامس (٨٢٣ ــ ٨١١ ق.م)، حظيت السياسة الداخلية بجلّ الاهتمام، على حساب الغزوات التي ابدأت قبل ذلك بقرن. وقد أتاح ركود الإمبراطورية الآشورية لملوك آرام أن يستعيدوا الهيمنة على سوريا، بل أن يفرضوا سلطتهم إلى أبعد.

التوسع نحو الجنوب

إن التوسع الآرامي نحو الجنوب معترف به في عدد من النصوص في "العهد القديم"، من بينها: (٢ ملوك ١٠: ٣٢) يتسم بأفضل الضمانات. ولا

عجب إذا كان معبد "دير علاّ" الواقع شمالي مصب وادي زرقا (وهو يبوق الكتاب المقدس) نشِطًا في ذلك الموسم. وكان هذا المعبد يعود إلى شعب متعدد الآلهة، كان يحتفظ بأقوال الرائي بلعام المكتوبة بلهجة آرامية قديمة وهامشية. إن التصنيف اللغوي لهذه النصوص ليس اجتماعيًا، ولكن تجدر الإشارة إلى أن كتابتين بطابع إداري هما آراميتان من دون شك. وحتى إذا ظل أصل الكتابات البلعامية لدير علاّ غامضًا، فإن ازدهار مثل هذه الجماعة في أرض تطالب بها إسرائيل مبدئيًا لا يشكل معضلة إذا ما عرفنا السيطرة الآرامية على جلعاد في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد.

وبحسب (٢ ملوك ١٣: ٣ ــ ٢٤)، لقد دامت سيطرة آرام على إسرائيل طوال عهد يوحاز كله، بعد عهد ياهو[١٠]. نعلم أيضًا أن حزائيل قد مد غزواته نحو ساحل البحر المتوسط حتى مدينة "جتّ" في فلسطين، وسلب خزائن يوآش ملك يهوذا إذ هدّده باجتياح مملكته (٢ ملوك ١٢: ١٨ــ). وهناك نصب في تل دان يشهد لحكمه على شرقي الأردن.

حزائيل يجتاز الفرات

لقد أظهرت الاكتشافات بُعدًا جديدًا لعهد حزائيل. فعلى الجبهة الشمالية، لم يكتفِ الملك آرام بالبقاء خاملاً بعد الهجومات الآشورية، بل اتخذ موقفًا هجوميًا بدوره، وزحف إلى ما وراء الفرات.

من الأرجح أن حملة حزائيل هذه جرت خلال السنوات الأخيرة من حكم شلمناصر الثالث، أو في عهد ابنه، إذ كانت بلاد آشور ذاتها في ثورة وغليان. ونتذكر أنه في عهد شمشي أدد الخامس، يتكلم أدد ــ نراري الثالث

[١٠]- لم يبقَ ليواحاز سوى ٥٠ فارسًا وعشر مركبات وعشرة آلاف رجل، وهذه الأمور تذكّرنا بما جرى لآحاب في معركة قرقر.

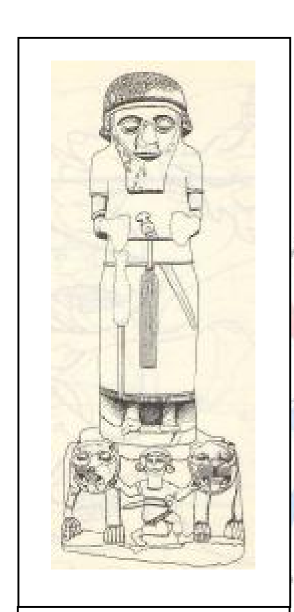
عن تمرد يجري على الفرات. ولا نستبعد تاريخًا أقدم، لأن الحملة الأخيرة لشملناصر في سوريا، التي أثارتها الإطاحة بملك "عنقي" المخلص للإمبراطورية الآشورية، جرت نحو سنة ٨٣١ ق.م. وربما أن حزائيل لم يكن غريبًا عن هذه الأحداث، وأن تدخّل شلمناصر المحدود الذي وضع نقطة النهاية لعشر سنوات من الجهود في بلاد الأناضول، لم تكن سوى معركة مؤخرة الجيش.

النفوذ الآرامي المتنامي

لقد جعل حزائيل الشعوب تشعر بقدرة دمشق من شمالي سوريا حتى أبواب فلسطين، ولو أن اللغة والثقافة الفينيقيتين كانتا تتعمان بنفوذ كبير في قبرص وحول خليج أِلكسندريت. وأن العلامات الأولى للاستعمال الدولي للآرامية تعود إلى نحو قرن بعد عهد حزائيل[١١]. فإن نجاحاته الدبلوماسية والعسكرية لا بدَّ أنها أسهمت في فتح الطريق أمام هذه الفترة من التاريخ الثقافي للشرق الأدنى[١٢].

[١١]- تجدر الإشارة هنا إلى انتشار اللغة الآرامية الدولية في نحو سنة ٧٠١ ق.م (راجع ٢ ملوك ١٨: ٢٦).
[١٢]- يعتقد الكثيرون أن الآرامية للقرون الأحدث نمت انطلاقا من لهجة كانت متداولة في ما وراء الفرات. وكان الآشوريون قد اعتادوا هذه اللهجة في عهد أسبق. وسهلوا انتشارها في إمبراطوريتهم.

حزائيل مؤلَّـه



الشكل (٢) الملك المؤلّه

لا شك أن في عهد حزائيل أتخذت العبارة الاعتيادية "سيدنا حزائيل" معنى جديدًا هو "الرب"، وسيحمل ابنه هذا اللقب. حتى إذا افترضنا أن هذا اللقب يمثل بر هدد، ابن حزائيل، وليس هدد ريان الوهة دمشق الرئيسية، فإنه يعطي الانطباع الذي خلفه في نفوس رعاياه هذا الخصم العنيد لشلمناصر الثالث. وكان تأثيره في الخارج، مثل تأثير ملوك أرباد وحماة، يجري من خلال شبكة معقدة من العلاقات، تشمل تواطؤات بسيطة بين الأمراء من الدرجة الأولى، كما تشمل التبعية الوثنية للدول الخاضعة.

بر هدد يفقد هيمنة آرام

هزائم في حزرك وفي منصواة

كان التأثير ما يزال في ذروته حينما خلف بر هدد حزائيل، في تاريخ غير محدود، لكنه قريب من تاريخ ارتقاء يوآش على عرش إسرائيل وفي منعطف القرن الثامن قبل الميلاد. وقد رأينا كيف استطاع ملك آرام الجديد، بمساعدة ملك أرباد وحلفائه الحثيين الحديثين، أن يصف جيوش ست عشرة دولة أمام حزرك، شمالي حماة، في محاولة تهدف إلى تحطيم قوة

زكور المتصاعدة، وكان حزائيل قد ظل محايدًا بفطنة، حينما كان أدد نراري الثالث، بعد أن استولى على زمام الملك، قد قمع أرباد وجيرانها (٨٠٥ ــ ٨٠٤ ق.م). إلا أن مغامرة حزرك عرَّضت بر هدد للنقمة الآشورية. وفي سنة ٧٩٦ ق.م، غُلب في البقاع، واضطرّ للمرة الأولى إلى أن يفتح للغازي أبواب عاصمته وخزائنها.

هزيمة أمام إسرائيل

لا يسعنا أن نحدد بالتأكيد أين تقع قضية زكور من سلسلة أخرى من الهزائم التي لحقت ببر هدد على الجبهة الجنوبية. وهناك صور كثيرة من سفر الملوك، ابتداءًا من (١ ملوك ٢)، تروي الخصومات الدائرة بين آرام وإسرائيل. وكالمعتاد نلاحظ عند آرام موقع القوة في البداية. إلا أن إسرائيل تنتصر في النهاية. وملك آرام، حينما يُسمى، هو بن هدد (أي بر هدد بالعبرية). أما ملك إسرائيل فهو آحاب أو ابنه يورام.

لقد قلنا سابقًا أن (١ ملوك ٢)، الذي يروي موت آحاب أمام راموث جلعاد، إنما يخص موت يورام بالأحرى، ومعظم المؤرخين يعتبرون (١ ملوك ٢٠)، وقصص الخصومات الأخرى بين بن هدد وبعض ملوك إسرائيل، وغالبًا أيضًا (١ ملوك ٢٢)، قصصًا تخص بالحقيقة خلفاء ياهو وليس أحاب.

ولكننا لن نستطيع تشخيص كل من الانتصارات الثلاثة التي أحرزها يواش بحسب (٢ ملوك ١٣: ١٩، ٢٥)، ولن يتم الاتفاق على طريقة تقليص حصارات السامرة التي يرويها (١ ملوك ٢٠: ١ ــ ٢١ و ٢ ملوك ٦: ٢٤ ــ ٧: ٢٠) في حصار واحد، مهما بدت هذه العملية معقولة. وقد يتسنى لنا

أن ننسب إلى عهد يوآش (نحو ٧٩٨ ــ ٧٨٣ ق.م) الأحداث التي تعكسها هذه الروايات.

وإذا كانت المصادر المعاصرة لهذه الأحداث لا تذكر اسم بر هدد في عهد آحاب، فإن الكتاب المقدس يشهد لوجود ابن لحزائيل اسمه بن هدد (راجع عاموس ١: ٤)، الذي ورث قوة تفوق قوة خلفاء ياهو، ولكن يوآش انتصر عليه. ويضع (٢ ملوك ١٣: ١٧) في "أفق" شرقي بحيرة طبرية انتصارًا حاسمًا أحرزه يوآش، وربما أن هناك كان آحاب قد انتصر، بحسب ١ ملوك ٢٠: ٢٦ ــ ٣٤. فيجب إذًا أن نعتبر انتصارات آحاب على بن هدد مثل انتصارات يوآش على بر هدد.

ويمكن أن نخلص إلى هذا الاستنتاج: أن بر هدد خلف حزائيل في نحو نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، والوضع المسيطر الذي ورثه ظل إلى نجاحات "زكور" المقلقة. والنفوذ الذي كان آرام ينعم به أتاح له أن يجر وراءه الدول الشمالية في هجومه على حماة ولعش. إلا أن ردة الفعل الآشورية، سنة ٧٩٦ ق.م، أدت إلى إذلال دمشق وسلبها بنوع لا سابق له. وأراد بر هدد أن يجدد موارده المالية على حساب جاره الجنوبي، المعتاد أن يرضخ لمطاليب أبيه. فحضر إذًا أمام السامرة مع الرؤساء الذين كانوا ما يزالون يطيعونه (١ ملوك ٢٠: ١). إلا أن الإفراط في مطاليبه اضطر يوآش إلى القيام بمقاومة يائسة. وإذا بالقوات الآرامية التي كانت قد نقصت من جراء الضربات التي تلقتها من أدد نراري، دُحرت بعيدًا عن العاصمة الإسرائيلية. وفي السنة التالية، دُحرت من جديد في "أفق"، أي جشور القديمة (١ ملوك ٢٠: ٢٦ ــ ٣٠).

انحطاط مملكة آرام وسقوطها

الغزو الإسرائيلي

بحسب ٢ ملوك ١٤: ٢٥ ــ ٢٧، يربعام الثاني (٧٨٣ ــ ٧٤٣ ق.م) هو الذي استرد حدود إسرائيل، "من مدخل حماة إلى بحر العربة (الميت)". قد يُنسب جزء من هذه المآثر إلى سلف يربعام. ولكن قد يكون التقدم الإسرائيلي محدودًا في عهد يوآش، وحتى في السنوات الأولى من عهد يربعام الثاني. إذ يبدو أن ملوك دمشق كانوا في سلام مع الإمبراطورية الآشورية بين سنة ٧٩٦ و ٧٧٢ ق.م. وكانت لهم قوات كافية للحفاظ على الجبهة الجنوبية. وإذا كانت "أفق"، حيث دحر يوآش جيش بر هدد، ويُحدّد موقعها في "عين گيف" في حشور، فليس من الواضح هل ظلت هذه البلاد الصغيرة في أيدي إسرائيل. فلقد اكتُشفت كتابات آرامية تعود إلى القرن الثامن في "تل حدر" وكذلك في بيت صيدا، شرقي مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية.

ولكن منذ سنة ٧٤٣ ق.م، تعرضت إسرائيل لانقلابات عديدة بعد مقتل زكريا بن يربعام الثاني، ودب الضعف في هذه الدولة. وفي السنة نفسها، قام تغلاُتفلاصر الثالث، الذي استولى على الحكم سنة ٧٤٥ ق.م، بتوطيد سيطرة آشور على سوريا، إذ هاجم أرباد وبقية الحلفاء في أورارتو. إلا أن هذا لم يمنع الآراميون والإسرائليين من الإقتتال، وأظهر الآراميون بعض التفوق على الإسرائيليين المنشغلين بالفتن الداخلية. وسيقول إشعيا النبي بعد سنوات قليلة: "أثار الرب عليهم خصمهم "رصين" وسلَّح أعداءَهم الآراميين من الشرق والفلسطينيين من الغرب ليلتهموا بني إسرائيل بملء أفواههم" (إشعيا ٩: ١١).

في سنة ٧٣٨ ق.م، تقدم تغلاثفلاصر خطوة نحو الجنوب وقضى على تحالف جديد كان يتمركز في جنوب حماة وغربيها. فاضطرت الممالك الكائنة غربي البلاد الآشورية إلى إظهار استعداداتها الحسنة. وتزودنا حوليات تغلاثفلاصر سنة ٧٣٨ ق.م والوثائق الموازية لها بلائحة الذين يدفعون الجزية، ومن ضمنها آرام وإسرائيل. وبلغ الملك الآشوري إلى البقاع انطلاقًا من حماة. وهذا ما جعله يمر بالسفح الغربي من دمشق، خلال منطقة ربما لم تتخلَّ عنها إسرائيل حتى الآن[١٣].

المعاهدة السورية الأفرائمية

إن منحيم الذي أدّى الجزية للملك مع "رضيان" ملك دمشق[١٤]، توفي بعد مدة قصيرة، وخلفه إبنه "فقحيا". وهذا أيضًا لم يبقَ على العرش مدة طويلة. ففي سنة ٧٣٧ ق.م، ثار عليه فقح بن رمليا قائد حرسه، وهاجمه مع خمسين رجلاً من بني جلعاد، في برج قصر الملك في السامرة، فقتله وملك مكانه (راجع ٢ ملوك ١٥: ٢٥). ويبدأ فقح على الفور حتى قبل موت يوثام (٧٤٠ ــ ٧٣٦ق.م)، لمعاهدة يهوذا بالاتفاق مع ملك آرام (٢ ملوك ١٥: ٣٧). وحينما خلف آحاز الملك الراحل يوثام، إستحال هذا الضغط إلى اجتياح حقيقي (٢ ملوك ١٦: ١ــ٥؛ إشعيا ٧: ١ــ٢). فلا بد أن آرام وإسرائيل كانتا تريدان دفع يهوذا إلى الإنضمام إليهما ضد آشور. ويبدو أن مصلحة هاتين القوتين قد تبعت صعود تغلاثفلاصر الثالث. فكان فقح قد أطاح بعائلة ملكية خاضعة للإمبراطورية الآشورية. فدعا آحاز تغلاثفلاصر

١٣- لم يبقى ليواحاز سوى ٥٠ فارسًا وعشر مركبات وعشرة آلاف رجل، وهذه الأمور تذكّرنا بما جرى لآحاب في معركة قرقر.

١٤- قد يكون "رضيان" شخصًا اغتصب عرش دمشق. وليس لدينا معلومات كثيرة عنه.

إلى مساعدته (٢ ملوك ١٦: ٧). واعتبر الملك الآشوري كلتا المملكتين آرام وإسرائيل، متمردتين[١٥].

وبعد العداء الناشب بين دمشق والسامرة منذ حزائيل، لا بد أن المعاهدة الآشورية ــ الأفرائمية اقتضت تصفية الأراضي بما يرضي الطرفين. لكن النصوص المتعلقة بالغزو الآشوري لسنة ٧٣٣ ــ ٧٣٢ ق.م لا تحتفظ بأثر من الحضور الإسرائيلي في البقاع.

أسباب الحرب السورية ـ الأفرائمية

إن كتبة الحوليات الآشورية وكتبة "العهد القديم"، الذين يوجهون جلّ اهتمامهم إلى يهوذا، لم يشرحوا لماذا آرام وإسرائيل نبذتا خلافاتهما واستعدتا لمجابهة مولاهما الآشوري، في حين أن هذا الأخير قد برهن عن قدرته وتصميمه في الشمال. ويبدو أن الجواب هو على الصعيد الاقتصادي. فإن ملوك سوريا الجنوبية كانوا مصرّين على الاحتفاظ بالأرباح التجارية من الجزيرة العربية، التي كانت الإمبراطورية الآشورية تهدد بأخذها منهم إذا ما امتدت إلى أبعد نحو الجنوب. ويستند هذا التأويل من جهة إلى أهمية تجارة القوافل للمسيطرين على "طريق الملك" والمدن المينائية لفلسطين، ومن جهة أخرى، على الخطة العسكرية التي تبناها تغلاتفلاصر الثالث الذي احتل أولاً الموانئ الفلسطينية، وأخضع المملكة العربية "سمسي" التي كانت غنية بالجمال والمنتوجات الكمالية، وسلم إلى زعيم عربي آخر مراقبة الحدود المصرية. فما كان في وسع الجهة المشتركة لبلدان الجنوب أن تسامح

[١٥]ــ دمر مملكة آرام وقتل ملكها رضيان الذي يسميه سفر الملوك (٢ ملوك ١٦: ٩) "رصين". لكن الملك الآشوري اكتفى بتقطيع مملكة إسرائيل التي تخلصت في الوقت المناسب من "فقح" والتي كانت منذ ياهو، فقد أظهرت غالبًا استعدادها لخدمة المملكة الآشورية.

الموقف المخالف عند يهوذا التي كانت تحظى بموقع فريد بين البلاد العربية وفلسطين[١٦].

غموض التواريخ واختزال الحوليات

إن غموض التواريخ الواردة في العهد القديم عن هذه الحقبة والطابع الجزئي لحوليات تغلاثفلاصر الثالث وكتاباته نُخفي عنا مجرى التدخلات التي تحكمت بسير الحرب السورية ــ الأفرائمية. من الواضح أن الملك الآشوري قام في عام ٧٣٤ ق.م بحملة على طول الساحل حتى غزة. ولكننا لسنا متأكدين من أن هجوم المتحالفين الحاسم ضد يهوذا كان قد حدث قبل ذلك، وأنه كان قد أدى إلى التقدم الآشوري.

إن الرهانات الاقتصادية قد تجعلنا نفترض أن تغلاثفلاصر كان قد زحف للاستيلاء على المصارف الفلسطينية، حتى قبل أن يُعلن عن محور دمشق ــ السامرة. وقد نستطيع أن تصور أن العصاة ظهروا إذ كفوا عن تأدية الجزية. إلا أن كلا الافتراضين ليسا مرضيين، إذ يصعب علينا التفكير في أن آرام وإسرائيل استطاعتا زجَّ قواتها في بلاد يهوذا، بعد أن علمتا باقتراب الملك الآشوري أو بعد أن تحدّيتاه. فمن الأفضل التفكير في أن المتحالفَين هاجما يهوذا إذ كان العدو ما يزال بعيدًا، وان تغلاثفلاصر لم يباشر الحملة إلا بعد أن اطلع على مبادرتهما بواسطة مبعوثي آحاز أو بواسطة معتمديه. واختياره زحفًا سريعًا على طول الساحل أفضل من هجوم مباشر ضد دمشق سيكون قد هدف إلى صدّ كل إمكانية تدخل مصري.

[١٦]ــ تكفي هذه الاعتبارات لفهم ما جاء في سفر الملوك (٢ ملوك ١٦: ٦) عن التدخل الآرامي في "أيلة"، ولو أن سفر الملوك يقول وأن ملك أدوم هو الذي استردَّ ألية وطرد منها بني يهوذا. ولكننا هنا أمام إلتباس بين آرم وأدم!

تصفية مملكة آرام

لقد انتظر الغازي حتى سنة ٧٣٣ ق.م ليضرب مباشرةً آرام وإسرائيل. ولكنه لم يستطيع أن يحرز نصرًا تامًا حاسمًا منذ الموسم الأول. لقد غُلب رضيان في دمشق حيث حاصره الجيش الآشوري ٤٥ يومًا. لكن دمشق لم تسقط إلا سنة ٧٣٢ ق.م وسُبي سكانها، ودمّرت البلاد تدميرًا رهيبًا.

دمشق في الإمبراطورية

لقد استُبدلت مملكة آرام بسلسلة جديدة من الأقاليم الآشورية، وأربعة منها في الأقل مذكورة في الوثائق، وهي في الغالب في علاقة مع أسماء حكامها: دمشق نفسها، في الغرب منصواة وصوبيت، في جنوب "قرتيني" المتمحورة على شيخ سعد في حوران. وربما شرقي حوران كان يشكل إقليم حورينا، إلا أن وضعه، مثل وضع جلعاد، ليس مثبتًا جيدًا. إن مشاركة ما تبقى من سكان مملكة آرام في ثورة "يوبيعدي" في حماة، هذه الثورة التي سحقها سرجون الثاني سنة ٧٢٠ ق.م ولم تُمثل إلا بذكر دمشق بين الثوار. في عهد آشور بانيبال، سيشكّل الموقع الجغرافي لدمشق بينها محورًا للعمليات الإمبراطورية في العالم العربي. إن منافع هذه المدينة كانت كبيرة بحيث إنها لم تفقد قط مكانتها في قلب الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية في الشرق الأدنى، على النقيض من "المدن الملكية" الأخرى في سوريا في العصر الحديدي.

اللغة الآرامية في البلاد الآشورية

لقد انتهت الدول الآرامية بفقدان هويتها الخاصة بها على أيدي الآشوريين. ولكن ربما أن سكانها أصبحوا يشكلون العنصر السائد في الإمبراطورية، وانتشرت لغتهم في كل مكان. وبقدر الوحدة السياسية في الإمبراطورية الآشورية والنظم التي تبعتها، هذه سهلت سيادة اللغة الآرامية هذا المزيج من الأعراق والثقافات، الذي يسم ما بقي من الألف الأول قبل الميلاد، وفي الواقع كل ما بقي من التاريخ القديم.

لقد استعرضنا في الصفحات السابقة، وتكلمنا عن ازدهار اللغات ذات الكتابة الأبجدية، بدءًا بالفينيقية، بعد تراجع العلامات المسمارية في الشرق. وطرحنا الفرضية أن ربع القرن من الانتصارات العسكرية التي أحرزها حزائيل أسهم إسهامًا فعالاً في زيادة نفوذ اللغة الآرامية. ولا يمكننا أن نشك في أن سياسة السبي التي اتبعها الملوك الآشوريون ساعدت هي أيضًا في ترسيخ انتشار اللغة في المناطق التي سيطروا عليها.

في شأن السبي، كما في شأن السلع اليهودية والخيرات الواردة عن طريق الجزية ليست معطيات الكتابات الملكية الآشورية كاملة بالتأكيد. والكثافة السكانية لمختلف مناطق الإمبراطورية ليست مثبتة جيدًا لكي يتسنى لنا أن نحسب بدقة مدى تأثير السبايا في أوطانهم الأصلية وفي نطاق وصول هذه الشعوب المنقولة. والأحداث التي نحن مطلعون عليها تتيح لنا مع ذلك أن نبدي بعض الملاحظات.

من الزاوية التي تهمنا ههنا، نلاحظ قبل كل شيء أن السبي الذي قامت به القوات الآشورية مرات عديدة لم يمس آراميي سوريا بصورة جذرية مثل بعض الشعوب الساكنة في الجنوب وفي شرق الإمبراطورية الآشورية، وبالمقابل، إن آراميي جنوبي بين النهرين والكلدانيين الذين كانوا

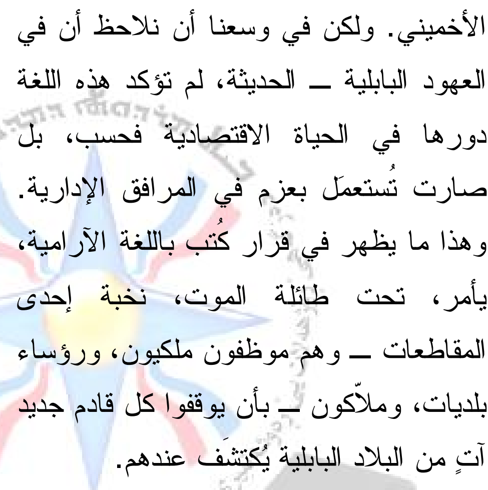
قريبن منهم لغويًا، ليسُوا بأعداد كبيرة نحو مناطق أخرى من الإمبراطورية، وغالبًا إلى النواحي الشمالية الغربية. وهناك كانوا يمتزجون بشعوب آرامية تقليديًا، مثل الكميوليين الذين جيء بهم إلى الجزيرة، أو كانوا يُنقلون إلى بلدان لم تكن فيها اللغة الآرامية مجهولة، مثل كلدانيي "بيث ياقين" الذين جلاهم سرجون الثاني نحو الأراضي القديمة في "كوموخ" و"ميليد" (ملاطية)، واستخدام لهجات اللغة نفسها لم يكن يساعد على خلق علاقات حسنة تلقائيًا بين الشعب العريق وبين القادمين الجدد. ومع ذلك فإن هذه الحالة كانت تسهم في تغيير التوازن اللغوي لصالح اللغة الآرامية، وكانت تسرع في استيعاب المسبيين ذوي لغات أخرى.

إن ارتقاء أشخاص من أصل آرامي في السلّم الاجتماعي الآشوري يُلاحَظ بوضوح خلال القرن الأخير من الإمبراطورية. فأسماء الأعلام الآرامية لم تعد محصورة في عالم التجار والجنود وصغار القوم، بل تظهر أيضًا في أعلى طبقات المجتمع، حيث نجد مثلا بين جمهور من علْية القوم، الكاتب الشهير "أحيقار"، ونقيعة زوجة سنحاريب، وأدد ـ كوپي والدة نابونيد ملك بابل.

وتقدم اللغة الآرامية يدهش أكثر. فإن أهميتها تزداد في قلب الإمبراطورية. وهذا الأمر لا يمكن شرحه بمجرد ازدياد الشعب من جراء السبي أو من جراء التجنيد. فالكلمات الآرامية تغزو المفردات الأكدية. وبجانب بطاقات وجيزة أو موجزات وضعت لمساعدة الكتبة، نجد في الغالب عقودًا مكتوبة بكاملها باللغة الآرامية. وبالتأكيد تُعد شرعية على حالتها. وفي حالة "ألواح بروكسل" التي يمكن متابعة التغيير فيها خلال معظم أجزاء القرن السابع، فإن نسبة النصوص المكتوبة بالآرامية فقط تزداد، على ما يبدو، على مر الزمن، فتزداد أسماء الكتبة الآراميين. وفي منتصف القرن السابع، هناك

رسالة طويلة موجهة إلى شخص آشوري ذي منصب رفيع، ومرسلة من بابل، من قبل رفيق له، تظهر كم أن استخدام اللغة الآرامية من شأنه أن يبسِّط الحياة[١٧].

ولا يسعنا هنا أن نتابع تاريخ ازدهار اللغة الآرامية في العهد الأخميني. ولكن في وسعنا أن نلاحظ أن في العهود البابلية ــ الحديثة، لم تؤكد هذه اللغة دورها في الحياة الاقتصادية فحسب، بل صارت تُستعمَل بعزم في المرافق الإدارية. وهذا ما يظهر في قرار كُتب باللغة الآرامية، يأمر، تحت طائلة الموت، نخبة إحدى المقاطعات ــ وهم موظفون ملكيون، ورؤساء بلديات، وملاّكون ــ بأن يوقفوا كل قادم جديد آتٍ من البلاد البابلية يُكتشَف عندهم.





الشكل (٣) تمثال الملك عموني

من "آرام" إلى "سوريا"

بينما كانت اللغة الآرامية تفرض ذاتها على مناطق تزداد اتساعًا، كان الانتصار السياسي للغزاة سيؤثر في مفردات اللغة الآرامية. ومع تغيير طفيف، سيبقى اسم "آشور" مرتبطًا بالبلدان الآرامية إلى هذا اليوم[١٨].

[١٧]ــ يجب مقابلة هذه الحالة بتلك التي تعكسها رسالة فيها يزجر سرجون الثاني "سين ايدينام" عميله في أور، على تردده في المراسلة باللغة الأكدية.

كان الملوك الآشوريون قد ألغو حتى أسماء الممالك القديمة. فلم يبقَ لهم سوى أقاليم يشار إليها بأسماء مدنها الرئيسية. فكانت التسمية الإمبراطورية تدعو جميع سكان الإمبراطورية باسم "شعب آشور". وتظهر دومًا وثائق جديدة حيث تستمر بلدان المشرق وسكانها في حمل اسم آشور حتى عهود إمبراطوريات لاحقة. فنلاحظ مثلاً الكتابة العيلامية لداريوس في "شوش". فإن هذا النص يدعو "أش ــ شو ــ را ــ إيب" مواكب من وراء الفرات كانوا ينقلون إلى شوش عوارض من أرز لبنان.

إن اتّساع آشور وشموله الأراضي الآرامية القديمة ساد منذ نهاية القرن الثامن ق.م، حينما ازدادت التبادلات بين المدن الهلينية والساحل الشرقي للبحر المتوسط. إن كلمة "آشور" وتطبيق هذه التسمية على بلاد آشور ونينوى لم تختفِ تمامًا. إلا أن الاستعمال الشائع لدى الإغريق بسَّط كلمة "آشور" بـــ"سوريا"، والنقول الأوربية للكتاب المقدس التي حددت لغة المسيحية وانتهت بتسمية "الآراميين" بـــ"السريان" حتى الروايات المتعلقة بعهود سابقة للإلحاق الآشوري.

[١٨]ــ لقد أقنعت هذه الطريحة عددًا كبيرًا من المؤرخين. ولكن بعد محاولات عديدة، لم يُعرض أي بديل مَرضٍ.

الفصل الثامن

طبيعة الدول الآرامية

نواصل حديثنا عن الآراميين الذين قاموا بدور مهم جدًا في الشرق الأوسط وفي منطقة بين النهرين بنوع خاص. لعلنا نلقى جذورًا تربطنا قليلاً أو كثيرًا بهؤلاء الناس الذين استطاعوا، برغم قلّة تنظيمهم على الصعيد السياسي، أن يتغلغلوا في الدول الكبرى، ويمارسوا عليها بعض الضغوط، وأحيانًا أن يرجّحوا كفة الميزان لهذه الدولة أو تلك.

التماثل آرام - إسرائيل

في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، كما في العهود السابقة، كان المجتمع الآرامي لا يختلف كثيرًا عن المجتمع الذي يطلعنا عليه العهد القديم والتنقيبات الأثرية في بلاد فلسطين. فإن رواة الكتاب المقدس، الذين كانوا يلجأون حتمًا إلى كلمات مقترضة من حديثهم عن مصر أو عن الآشوريين والبابليين، قد اكتفوا بمصطلحاتهم المألوفة عند تعلق الأمر بالآراميين.

وكان التشابه بين هذين المجتمعين واضحًا على صعيد بُنى الدولة. والآشوريون الذين غالبًا ما تدخّلوا في تاريخهم، كانوا على وعي بذلك، وكانوا يطبّعون تركيب الجمل نفسه على ممالك فلسطين وما يُستعمل عِبر الأردن من اللغات العِبرية أو ما يقرب منها، وعلى الدول الآرامية في الجزيرة وفي سوريا الغربية. وسنتناول النقاشات التالية: أولاً تركيب الجمل لدى الآشوريين. والشهادات عنه كثيرة. ولكن مما لا شك فيه إن الكلام نفسه كان متداولاً في العالم السامي الغربي. فإن استعمال تعابير من نموذج "بيت ــ ×" في شأن مملكة أرپاد معروف منذ أمد طويل. "بيت غش" تُقرأ على النصبَين الأولَين من أنصاب "سفيرة". وما يقابله "برغش" (بكلمة واحدة) يستخدمه زكور كلقب ملك أرپاد. والكتابة الآرامية التي اكتُشفت في دان سنة ١٩٩٣ ترينا الآن أن صاحبها (وهو حزائيل دون شك) كان يسمي أيضًا مملكة يهوذا "بيث داود"، ويبدو ان معاصره "ميشا" ملك موآب استخدم التعبير نفسه.

المصطلح الآشوري

إنطلاقًا من القرن التاسع، لا تتكلم النصوص الآشورية عن "الآراميين" بنوع عام، كما كان قد فعل في القرن الحادي عشر تغلاثفلاصر الأول وآشور بل كالا. فإن شلمناصر الثالث يتكلم عن "ملك آرام" كان قد انتزع "پيترو" و"موتكينو" من أحد أسلافه. ولكننا نعتقد ان شلمناصر إنما يعيد هنا كلام مصادره. وفي لائحة تحمل أسماء الذين أدّوا الجزية سنة ٧٣٨، يسمي الملك الآشوري "بلد آرام" بين بلدان "حتي" و"قيدار بلاد العرب". إلا أن هذا الوصف الشامل تتبعه أسماء أكثر وضوحًا.

في تركيب الجُمل الذي يستقر في القرن التاسع قبل الميلاد، غالبًا ما نلقى صيغة "بيث ــ ×" وهي تشير إلى بلد ما، كما نقول "بيت فلان". وهكذا فان "غوزان" تعود إلى "بيت ــ بخياني". وأرپاد إلى "بيث ــ أغوشي"، ولو أن مملكة دمشق غالبًا ما تُدعى "مات ــ ايمريشو ــ بلد حميرِه"، وذلك منذ ظهورها الأول في النصوص التي ترقى إلى عهد شلمناصر الثالث، فقد انتهوا إلى تسميتها "بيث ــ حزائيلي" بحسب ملكها الأشهر. ومن جهة ممالك فلسطين وعِبر الأردن، تُدعى إسرائيل "بيث همري" (عمري)، وتُدعى عمون "بيث عمّانا".

وللإشارة إلى رعايا هذه الدول، كان الآشوريون يستخدمون صفات مثل "أرپادي" و"دمشقي" (إيمريشو ــ إن) و"سمألي" و"إسرائيلي". ولكنهم كانوا في الغالب يفضّلون تسميتهم "بر ــ ×"، وهي لفظة متضمنة في "بيت ــ ×". وهكذا فان ملك بيت أغوشي يُسمى "إبن أغوشو" (غوش)، وياهو ملك إسرائيل يُسمى "إبن همري" (عمري).

ان الأشخاص الذين يسمون هكذا "إبن ــ ×" في الكتابات الآشورية هم عادة من القادة. ولكن قد تشير هذه التسمية أحيانًا إلى جماعات "أبناء أديني" الذين أرسلوا قردتين إلى "أدد ــ نراري الثاني" سنة ٨٩٩ ق.م، و"أبناء بخياني" الذين زوّدوا آشور ناصربال الثاني بقوات في نحو سنة ٨٧٠ ق.م، وفي الآرامية "بني غوش"، رعايا الملك أرپاد الذين كانوا يتقاسمون مسؤولية معاهدات "سفيرة". لكن المفاهيم الإقليمية قفزت إلى الواجهة وصارت "ابن ــ ×" تشير بالأحرى إلى عائدية الشخص الجغرافية أكثر منها إلى أصله العِرقي أو إنتمائه السياسي.

كيـانـات قبليـة

القبـائل

إن الكتابات الآشورية لا تطبّق تركيب الجمل المرتكز على "بيت ــ ×" على قبائل ما بين النهرين الشرقية. وبالمقابل فهي تواصل وصفهم مثل "آراميين" حتى نهاية الإمبراطورية. وكانت تشير إليهم بمقطع "لــو". وكما كان الشأن سابقًا مع العموريين، فإن بعض هذه الأسماء يبدو مأخوذًا من أسماء المكان. إلا أن معظمها غامض.

إن هذا الإختلاف بين المصطلحات المستعملة للآراميين في الغرب وللآراميين في شرق بين النهرين قد يجد شرحه في المستويات المتفاوتة لديها على صعيد النمو السياسي. صحيح أن بعض الكتابات المتّسمة باسم من نموذج "بيت ــ ×" كانت جزءًا من تشكيلات سياسية أكثر تعقيدًا، مثل "بيت ــ حالوبي" عند مصب نهر الخابور، وكانت تعود إلى "لاقو". وهناك أخرى لم تترك على الخارطة سوى ظل طارئ، مثل "بيت ــ ياحيري" أو بيت "شابايا". وبرغم ذلك، فقد توصل آراميو سوريا في الغالب إلى تأسيس ممالك، في حين أن آراميي بين النهرين الشــرقية، حتى الذين ينتمون إلى القبائل الكبيرة، ظلوا دومًا هامشيين قليلاً بالنسبة إلى الجماعات المتحضرة.

الرؤســاء

لم يكن رؤساء هذه الفرق ملوكًا (ملك ــ شَرّوم)، بل شيوخًا (نزيكو)[1]. وليس لدينا معطيات كافية عن سلطات هؤلاء القادة ومَهَمَاتهم. إلا

[1]- إن لقب "نزيكو" كان يُعطي أحيانًا لشيوخ العرب. ولكننا نجده في الأغلب يُعطى في كتابات السرجونيين للرؤساء الآراميين في البلاد البابلية الجنوبية.

ان ثمة نصبَين لآشور ناصربال الثاني يُظهران لنا الدور الكبير الذي كانوا يقومون به لدى نشوب بعض الخلافات.

إمارات حضارية أو دول إقليمية؟

على النقيض من "تزيكاتي" (نزيكو)، كانوا يطلقون في ذلك الزمان تســمية "الملوك" على قادة الدول من نوع "بيت ــ ×". ماعدا سمأل "بيت كبّاري"، لم يكن هؤلاء الملوك يحكمون مجرد إمارات حضرية. وكان كلٌّ من هذه التشكيلات يحمل إسم نواته الحضرية الوحيدة التي لم يكن لها سوى أراضٍ محدودة، ولم تكن تفكر في ابتلاع مراكز حضرية أخرى، ولو أن الخصومات الحدودية لم تكن نادرة. وكان تناسقهم متمحورًا على التبعية السياسية نحو الملك الوريث الذي يعتبرونه سيدهم (ادون الفينيقية) أكثر من تمركزهم على الروابط من الطبيعة العرقية.

صحيح أن الآراميين، مثل الإسرائيلين، والموآبين، ...إلخ، اختصوا بجزء كبير من القيم التي كانت الإمارات الحضرية من العصر البرُنزي قد طوّرتها، لكنهم تبنّوا الملوكية الوراثية ورموزها، وتحضّروا وتعقّدت تركيبتهم السياسية وتصلّبت.

وعلى النقيض من الإمارات الحضرية، كانت الممالك الآرامية تمتد قدر استطاعتها، مع أنها كانت أحيانًا تكتفي بِهَيمنة محدودة قبل أن تضمَّ إليها تمامًا الدول الصغيرة المحيطة بها، وكانت منها تضمُّ "مدنًا ملكية" عديدة، إضافة إلى "مدنها المحصّنة" وبعض الضيَع والقرى المتواضعة. وفي زمان الحرب، لم يكن فقدان مراكز من الدرجة الأولى يُعَدّ فاجعة للملك، كما يكون الاستيلاء على نواة إمارة حضرية.

النزعة إلى التوسّع

لا يمكننا الاستناد إلى "الإمبراطورية" التي ينسبها العهد القديم إلى "هدد – عزر" ملك صوبة (٢ صموئيل ٨/١٠)، ولا على مثل "بن هدد" بحسب ما جاء في (١ ملوك ٢٠)، الذي يُفترض انه كان قادرًا أن يقود اثنين وثلاثين ملكًا ضد السامرة، ثم أن يقيلهم ويستبدلهم بمجرد حكام. وبرغم ذلك، فإن استعراضنا التاريخي للعالم الآرامي أظهر تعقد ممالك العصر الحديدي الثاني وجهودَها لاستيعاب عناصر جديدة. فرأينا مثلاً أن اتحاد "لاقو" يمتد نحو الشمال ويدمج معه مؤقتًا "دور ــ كتليمو"، وأن "بيت أديني" تختص بإمارة "مسواري" (تل بر سيب)، الحثية ــ الحديثة، وأن "بيت أغوشي" تدمج مع نفسها مملكة حلب القديمة وجزءًا من پاتينا. ورأينا أن الآرامي زكور يضمّ تحت صولجانه "لعش" ومملكة حماة التي كانت سابقا حثية حديثة. وشاهدنا أن المملكة، التي تكوّنت هكذا، كانت قد امتدت إمتدادًا أوسع، وسيطرت على الإمارات الساحلية

التحالفات

ما وراء هذه التوسعات عن طريق ائتلاف واتحاد تحت صولجان واحد أو إلحاق، كانت الممالك الآرامية في العصر الحديدي مستعدة لتشكيل تحالفات مهمة غالبًا مع أطراف من الصعيد نفسه. ولا ندري حقًا هل أن "آرام الأعلى" و"آرام الأسفل" المذكورَين في نصب "سفيرة" الأول، لم يكونا يمثلان سوى منطقة نفوذ "أرپاد"، أو أن هذه كانت تضمّ سوريا كلها. ولكننا لا نشك في النزعة الدائمة لدى الدول السورية إلى الإتحاد، بعضها حول

"أرپاد"، وأخرى حول دمشق. وعلى سلم أصغر، نتذكر تضامن "بيت زماني" مع بلدان أخرى من "نائيري"، وتضامن "لافو" و"هندانو" مع "سوحو".

دول إقليمية أو دول قومية؟

لقد احتفظ الآراميون، من أصولهم القبلية وحتى النهاية، بشيء من الشعور الخاص بالدول ــ القوميات.

يجب أن نعترف أن الدول السورية المعروفة ــ سمأل، أرپاد، حماة، دمشق ــ كانت، حتى القرن الثامن في الأقل، تقوم على أسس إقليمية أكثر منها عرقية. وكانت تتقاسم صفات عديدة للإمارات الحضرية ولدول أخرى إقليمية من العصر البرنزي. وما عدا حالات بيث أديني وحماة، كانت تتمحور حول العواصم بنوع واضح. وما عدا حالة أرپاد (بيث أغوشي) كانت أسماؤها من النماذج "بيث ــ ×" أقل استخدامًا في الظاهر من أسماء مثل سمأل أو آرام "شا إيميريشو" ولاسيّما لأن في أغلب سكانها كانت عناصر قوية من الأصول الآرامية، ولم يتسنَّ لها أن تهضمها دومًا. وكانت حماة، مثل سمأل، دولة حثية ــ حديثة، وتمكنت من أن تضم إليها إمارات ساحلية كان تجانسُها فينيقيًا أكثر منه آراميًا. فكانت "بيث أغوشي" قد ابتلعت جزءًا من پاتينا الحثية ــ الحديثة، وكذلك مملكة حلب القديمة.

ونستطيع القول إن الشعور العرقي لم يكن له بُعد حاسم في السياسة الخارجية للممالك الآرامية. وهذه السياسة كانت تمليها غايات نفعية، ولم يكن الملوك ليستنكفوا من التحالف مع جيرانهم الحثيين ــ الحديثين، أو حتى من المراهنة على الخارطة الآشورية، كما جرى أحيانًا لسمأل وحماة. هل يجب

الذهاب إلى أبعد والافتراض إن العامل العرقي لم يكن له موضع في وجدانهم؟

من المهم أن نشاهد أن الآراميين لم يحفظوا لنا أي تقليد ملحمي عن أصولهم، سواء كانت آرامية شاملة أو قبلية. وانفتاح الآراميين المثير لكل أنواع التقابسات الثقافية من الشعوب الأخرى لا بدّ انه أثّر في بعض العوامل الأساسية من وعيهم القومي. ففي المضمار الديني مثلاً، لم يكن الآراميون يختلفون بعمق عن الساميين الآخرين في الغرب، وفي داخل العالم الآرامي، كانت الفرق المتنوعة تتميز الواحدة عن الأخرى بخصوصيات دينية وباللهجة. ففي سوريا الغربية، تتأكد أولوية إله العاصفة من سمأل حتى دمشق. إلا أن الآراميين في حرّان كانوا يولون الإله القمر أهمية أكبر. وعلى طول الفرات الأوسط، ربما أخذ "أفلاداد" الأولوية على حساب أبيه، حتى قبل نهاية العصر الحديدي.

آثار الوعي العرقي

نرى أن الممالك الآرامية لم تكن دولاً - قوميات شأن بيت إسرائيل وبيت داود أو أبناء عمّون. ولكن سيكون من الخطأ أن ننكر كل أهمية للعامل العرقي في منظورهم.

أجل، علينا إلا نغضّ الطرف عن تأصّل الآراميين في المجتمعات المجزّأة. فأصلهم الفعلي لا يظهر من تركيب الألفاظ من "بيت ــ ×" فحسب. فهناك علامات أخرى كثيرة، مثل ارتباطاتهم الجغرافية واللغوية بالقبائل العمورية، وتوسّعهم على حساب انحطاط الممالك في العصر البرنزي الحديث، وزيٌّ محاربيهم القديم كما يبدو في الصور التي تعود إلى مطلع

القرن التاسع قبل الميلاد، وتبعية بُناهم السياسية، وثقافتهم المادية تجاه بُنى الحضارات الأقدم منها عهدًا، والاستمرارية في العيش حياة الرعاة عند العديد من قبائل الفرات الأوسط والبلاد البابلية، والدور الذي قامت به فرق أخرى تجاه المجتمعات الحضرية، مثل مجتمع "جيدارا" في نائيري، الذي كان الآراميون يحمونه من دون التمثّل به.

لقد ظل دومًا شيء من هذا التراث. والافتخار بالكيان الآرامي يظهر في النصوص، ليس عند الفرق "المستوحشة" فحسب، مثل العصابة التي انقضّت على "لاقو" في نحو سنة ٧٧٠ [٢]، بل كذلك عند سلاطين أهم الممالك، الذين كانوا يأخذون لقب "ملك آرام"، أو الذين كانوا يهتمون بمفهوم "آرام بكامله". ويجب ألاترى ثمة مجرّد تعابير جغرافية. إن هذا التعلّق بإسم "آرام" يجد أجمل شرح له في بقاء بعض شعور عرقي [٣].

[٢]- إن المنتصر عليهم، نينورتا - كودورّي - أو صور من سوحو، ينسب إليهم هذا الخطاب: "لا أحد من حكام سوحو، أجداده، تجاسر قط أن يجابه ألفاً من الآراميين. والآن، سيكون لهذا شأن مع ألفي آرامي!".

[٣]- بلغة هذه النصوص، يمكن مقابلة عبارة "ملوك العرب" الواردة في النصوص المسمارية، ويُعطى هذا اللقب بنوع خاص لملوك قيدار. ويمكننا هنا التفكير أيضًا في شخص آخر هو "أمرؤ القيس" الذي سُميَّ "ملك جميع العرب" في العهد الروماني.

الملكية عند الآراميين

ملكية وراثية

إن الدول الآرامية التي نعرف شيئًا عن تركيبتها الداخلية ـــ غوزان، سمأل أرپاد، حماة، دمشق ـــ كانت كلها أنظمة ملكية وراثية. وأصحاب الكتابات، غالبًا ما يسمّون الملك أباهم ويقولون إنه يجلس على عرش أبيهم. ويحدث لهم أنهم يشكرون الآلهة على أنها اعطتهم ذرية. وهناك نصب من "زنجرلي" قد يمثّل الملك "كولاموا" يتبعه وريثه. وبعد قرن، نلاحظ أن معاهدات "سفيرة" التي تنظم العلاقات بين (K T K) الغامضة ومملكة أرپاد الآرامية، تكرر دون انقطـــاع انها تلزم ليس الملك وحده، بل ابنه أيضًا وحفيده وأعقابه. وهناك معاهدة آشورية مع المملكة نفسها تمتد هي أيضًا، بنوع صريح، إلى أولاد الملك وأحفاده.

أما "زكور"، المغامر الذي استولى على السلطة في حماة في نحو سنة ٨٠٠ ق.م، على حساب السلالة القديمة، فهو القائد الآرامي الرئيس الذي نجهل روابطه العائلية جهلاً تامًا. فلا كتابته الشهيرة، ولا أي نص آخر، يذكر سوابقه. فثمة فجوة في الوثائق بينه وبين الملك "ايني ـــ ايلو" الذي كان يحكم في عهد تغلاثفلاصر الثالث. ومع ذلك فليس ما يدعو للشك في ان زكور نفسه قد بحث، وربما أفلح في بحثه عن تأسيس سلالة، وان ملوكيته قد شابهت ملوكية الرؤساء الآراميين المعروفين أكثر.

إن سوابق "أحوني" أيضًا غير معروفة. وقد رأينا انه أمضى بعض الوقت في سبيل توحيد "بيث أديني" تحت سلطته. وربما أن هذا الزعيم من

النصف الأول من القرن التاسع لم يكن يمثّل سوى فترة إنتقال، فيها كانت المملكة تتكوّن من كيانات صغيرة عديدة، من القبائل ومن الإمارات القبلية. وقد لاحظنا أيضًا أن الملكين الأولين لسمأل لم يخلفهما أبناؤهما على العرش. ويبدو أن نظام الخلافة لم يكن قد تم تحديده بدقة داخل الأسر الملكية. فكان الأخ يخلف أخاه، وكانت الاحتجاجات قد تثور بين أبناء ملك متوفى. فيبدو أن الملكية الوراثية لم تفرض ذاتها على الدول الآرامية إلا في سياق يعتوره بعض الصعوبة.

جلالة الملك

تمجيد الملك في الفن

كما هو الشأن لدى جيرانهم الآشوريين والحثيين ــ الحديثين، كان شخص الملك يحتلُّ مكانًا متميزًا في فن الآراميين. ففي السياق الديني، يُمثَّل الملك واقفًا في الغالب، سواءً أمام الآلهة أسياده، أو لكي يتلقى الإكرام الذي يقدمه له خلفاؤه. وأحد النقوش البارزة يرينا "بر ركيب" ملك سمأل على عرشه، وهو يتحدث مع وزيره. وفي مواضع أخرى، نرى ملوكًا وهم يصطادون الأسد أو الأرخُص (ثور بري) وهم على مركباتهم. وهناك مشهد للبلاط أُعيد تكوينه من قطع كثيرة من متاحف إسطنبول وبرلين، قد تكون له سمات جنائزية. هذا المشهد يرسم ملك سمأل وهو جالس في وليمة، وحرس مسلحون يقفون وراء عرشه، وموكب من الموسيقاريين يعزفون بآلاتهم ويدنون منه.

في النصوص

يشغل الملك أيضًا مقدمة المشهد في مجموعة نقوش الدول الآرامية. وأقدم مصدر، وهو تمثال "تل فخيرية" محبط للآمال قليلاً في شأن موضوعنا هذا. فان التأثير الآشوري سائد فيه، والرخاء الشخصي لصاحبه يهيمن على الطلبات المصوغة في السطور ٧-١٠ و١٣-١٥. وتطلعنا كتابات سمأل بنوع أفضل، وتأتي كتابات زكور و"سفيرة" لتؤكد شهادتها وتغنيها.

لا شيء يشير إلى أن الملوك الآراميين أُلّهوا وهم أحياء، ولا تحتوي كتاباتهم على أيّ لائحة من الألقاب المجيدة، شأن ما كان يجري لملوك ما بين النهرين، أو لدى الملوك الحثيين ــ الحديثين، وإنْ على درجة أقل. وحتى لقب "الرب" (مري) لا يرد كلقب ملوكي آرامي سوى في دمشق.

إن أوضح الوثائق الصورية التي تزوّدنا بها سمأل لا تنسب إلى الملوك الآراميين زيًا أو زينة مختلفة جدًا عما لدى عظماء المملكة. فإن شـــال بر ركيب وغطاء رأسه يشبهان ما يحمله أشراف مملكته. وكذلك كراسي (عروش) الملوك شبيهة بما لدى العظماء الذين تمثّلهم الأنصاب الجنائزية الحثية ــ الحديثة والآرامية. وانه لَمِن الالتباس التكلم عن "العروش" في شأنهم[٤].

إلا أن النصوص الآرامية تعظّم، مثل البلدان المجاورة، شأن الملكية، وتُطري عظمتها. فحوليات أدد ــ نراري الثاني حفظت لنا وثيقة نادرة ونفيسة عن الملكية الآرامية في مطلع القرن التاسع، في مقطع صعب يستحق دراسة عميقة. فإن أدد ــ نراري يذكر باختصار إحتفالاً به يكرم نور ــ أدد،

[٤]- قد نتساءل هل تكون هذه الحشمة في الثياب الملكية في القرن الثامن نتيجة السيطرة الآشورية. فأقل من قرن قبل ذلك كان "كولاموا" لا يكتفي بالثياب والمظاهر البسيطة، بل كان لا يتردد في الإقتداء بزي الملوك الآشوريين.

وهو أمير تيمـــاني من "نصيبينا" (نصيبين)، ذاك الذي انتصر عليه. فالآرامي يقدّم ذبائح وسكائب، وتُرتَّل أُنشودة فيها يذكّر الشرح الآشوري الموجز "بإنشودة صهيون". ونحو قرنين بعد ذلك، نلاحظ أيضًا الطابع الإجلالي للملكية في أمثال أحيقار التي يبدو أن نواتها ترقى إلى أزمنة سابقة للعهد الآشوري. وإليكم حكمتين من هذه المجموعة:

مهذّبٌ هو كلام الملك
ولكنه يقطع أكثر من شفرة ذات حدّين.
كيف يمكن للحطب أن يقاوم النار، وأن يقاوم اللحمُ السكين والإنسان الملكَ؟

الملك وآلهته.

إذا كانت الايدولوجيا الملكية الآرامية لا تضع الملك على منتصف الطريق بين الآلهة والمائتين، فإنها، مع ذلك، كانت تنسب إليه علاقة خاصة بالألوهة. فإن الملوك الآراميين، مثل أبناء أعمامهم الآشوريين والحثيين الحديثين والموآبيين والعمّونيين كانوا يشرحون ارتقاءَهم السلطة ونجاحاتهم بحظوة من الآلهة. فالآلهة هي التي تُجلس على العرش "ملكًا" على عرش أبيه، وهي التي "تضع الصولجان بيده" أو ببساطة "تجعله ملكًا". وكانت الآلهة هي التي "تقوم بجانب" الملك في الوقت المناسب، أو "كانت تسير أمامه" في حملاته.

وبالمقابل، كان من واجب الملك "أن يجلس على العرش" "في بيوت" (معابد). وكان رخاء الدولة منوطًا بعلاقات الملك الحسنة مع الألوهة. وكانت الآلهة تتقبل الذبائح "من يديه". أما رفضها، فكان يعني حدوث كارثة قومية.

وبالطبع كان الملك نفسه يتلقى كل شيء من آلهته. ولا عجب أن يسمي "پاناموا" إبن "قوريل" هذه العلاقات المتبادلة "حلفًا" أو "عهدًا".

ولقد خصص الملوك الآراميون آثارهم بآلهة عديدة ومختلفة، ولكن يبدو ان بعضًا منهم استندوا إلى ألوهة خاصة، يقولون إنها قامت إلى جانبهم أو إنها سارت أمامهم. فكان "هدد" الإله الحامي للملك "پاناموا" ابن " قوريل" ولصاحب نصب تل دان. أما الملك "زكور"، فكان "بعل شماين" هو إلهه الحامي. ونعلم ان هذين الإلهين كانا يحظيان بالدرجة الأولى من العظمة في العالم السامي من الشمال الغربي، وان "هدد" كان يتصدر دومًا لائحة أهم آلهة سمأل.

إن الموضع الأول الذي يحتله الإله هدد في كتابة "پاناموا" ابن قوريل، وفي نتف تل دان ليس لأن هدد كان الإله الشخصي للملوك أصحاب هذه الكتابات، إنما يعكس بالأحرى شأن إله العاصفة في رأس مجمع آلهة سمأل ودمشق أيضًا. فما وراء الإله الشخصي، كان الملك مسؤولاً تجاه الإله الرئيسي للمملكة، وبالطبع هذه العلاقة هي التي تبرز في رواية ذات طابع سياسي.

إن هذا الشرح لا يحلّ جميع المعضلات. ومن الغريب أن "پاناموا" أمر بأن يُحتفل بعبادته الجنائزية أمام تمثال هدد وليس أمام أثر شخصي أكثر. ثم ان ثنائية "بعل شماين" الذي يقدم له زكور الإكرام على انه أنقذ "حزرك"، و"ايلو ــ وير" الذي يخصص به كتابته، لأمرٌ مدهش حقًا. ربما نشك بأن يكون "ايلو ــ وير" الإله الرئيسي لحزرك أو لعش، وكان لهذه الألوهة أصول قديمة وقوية في بلاد الفرات الأوسط التي منها كان أصل زكور. أما حماة فان ألوهتها الرئيسية لم تكن "بعل ــ شماين"، بل "بعلت"

(سيدة) التي حُفظ لقبها في شكل "ياخالا ــ تيس" في بعض الكتابات. فهل كان الناس يلتفتون نحو "بعل ــ شماين" حينما كانوا يحتاجون إلى إله محارب؟

ماذا كان الملوك يطلبون ؟

إن ما كان الملوك الآراميون ينتظرونه من آلهتهم لا يختلف عن تطلعات ملوك سوريا الآخرين المعاصرين لهم. فإضافة إلى الصحة وطول العمر اللذين تشدّد عليهما كتابة تل فخيرية، تسلّط المصادر الأضواء على الحاجة إلى الحماية التي يشعر بها هؤلاء الملوك ذوو السلطة المحدودة والمحاطون بجيران رهيبين ومهدَّدين بالتحالفات، وهم غير متأكدين من أمانة رعاياهم. وتكشف لنا النصوص عن الأحلام بالتوسع والشوق إلى القصور المدهشة المليئة بالذهب والفضة. وموجز القول، إن جهود الملوك الآراميين مثل صلواتهم كانت كلها تهدف إلى هذه الأمور التي تدفع الحكمة سليمان إلى عدم إلتماسها من إله إسرائيل [٥].

الملك الحاكم

مسؤوليات اجتماعية ــ اقتصادية

إضافة إلى أحلام العظمة والغنى، تفتح نصوص زنجرلي ــ سمأل أمامنا منظورات حول مسؤوليات الملك في ممارسة واقعية لسلطاته الإدارية. وهذه المعطيات مهِمّة بخاصة لأنها، وإن كانت مذكورة عند الأمم المجاورة، نادرة بالأحرى في النصوص الآرامية الأخرى. فبين انشغالات الملك، تعطي كتابات زنجرلي الأولوية للسلام بين المواطنين والازدهار الاقتصادي. في

[٥]-حياة طويلة، والغنى، ورأس أعدائه ــ راجع (١ ملوك ٣/٧).

مواضع أخرى، بالعكس (تل فخيرية ــ سفيرة) فإن هذه القيم لا تُمثَّل سوى بنوع غير مباشر، باللغات الشرطية التي تحوم حولها.

إن التقدم الاقتصادي والاجتماعي لطبقة MSKBM المحرومة هو في قلب النصف الثاني من كتابة "كولاموا"، ويُشار إلى أهميتها بالمكان الذي يحتله التهديد بالخلافات بين MSKBM وBRRM في اللغات الشرطية التي ترمي إلى حماية هذا الأثر. أما الكتابات الكبيرة لملوك سمأل في القرن الثامن فتُبرز من جهتها دور المبادرة الملكية في تأسيس مجمّعات جديدة وتنظيم كوادرها، في سمأل كما في المجتمعات المعاصرة[٦].

تقلّبات السوق

تحتوي الكتابات أيضًا على مقاطع تتناول صعود أو هبوط الاقتصاد القومي. بحسب "كولاموا"، سبَّبت تصفية خلافة مع "ادانا" في خفض قيمة سوق العبيد. فيمكنهم من الآن أن يشتروا شابة بسعر خروف، ورجلاً بسعر ثوب. ويُطري "باناموا" بن قوريل النشاط الزراعي في عهده في مقطع مخروم جدًا، ثم يسلّط الأضواء على ازدهار "يعدي ــ سمأل" بكثافة الشغل في الأراضي.

هناك عبارات كثيرة أُستُخدمت في هذه النصوص، ولكنها لم تُحفظ جيدًا. وما تبقّى منها يكفي لكي يتسنى لنا مقارنتها مع لغة الشعوب الشرقية الأخرى للعصر الحديدي الثاني. فنلاحظ ان الأمر يتوقف على عبارات مقولبة تعكس مُثلاً اعتيادية جدًا في ذلك الزمان. فإن سبب تقلّب الأسعار أمر

[٦]- تصف لنا نصوص سوحو على الفرات الأوسط تأسيس مركز حدودي في السهب، وتأسيس مدينة على الفرات، زوَّدها الملك بآلهة وبحكومة ومستوطنين.

اعتيادي قديم في الشرق الأدنى. والمثل الوارد في كتابة "كولاموا" قصير جدًا. والأمثلة الواردة في KAI ٢١٥ (كتابات كنعانية وآرامية) مخرومة إلى حد كبير، ومفرداتها غامضة لا تساعدنا لإعادة تكوين الظروف الاقتصادية التي ترويها. ولكن من وجهة نظر الاحتكاكات بين الثقافات، تكشف لنا عن خلفية حثّية خاصة اندمجت بمقوّمات بينهرية وآرامية.

الملوك الخاضعون لآشور

تابعون ولكنهم ملوك

إن الملوك الآراميين، بعد قبولهم بأداء الجزية للإمبراطورية الآشورية، كانوا يحتفظون بلقبهم. فكانوا دومًا يعتبرون أنفسهم ملوكًا في كتاباتهم. ولم يكن جيرانهم يرفضون عليهم هذا الشرف. وعديدة هي الأمثلة على ذلك في كتابات القرن الثامن في منطقة غربي الفرات. وفي زمان أقدم، في الجزيرة. نرى أن "هدد ــ يتعي" من غوزان، الذي لم يكن سوى حاكم، بحسب نصه الأكدي، كان "ملكًا" في النقل الآرامي. وثمة أمر ذو دلالة، لأن ملوك آشور، مثل الفراعنة في عهد العمارنة، كانوا يميلون إلى الاحتفاظ بلقب الملك لذواتهم ولعدد قليل من العظماء من صنفهم.

عند الغزاة النيو ــ آشوريين الأوائل، نلاحظ أنهم يميلون إلى تسمية ذواتهم بــ "شيخ ــ نزيكو"، حتى عظماء الدول الآرامية الذين لهم بعض الأهمية. وخير مثال هو "بيت زماني" حيث قلّد آشور ناصربال "إيلانو" منصب الرئيس، بعد مقتل أخيه "عمي – بعلي". وكانت "بيت زماني" مع ذلك دولة صغيرة ولكنها مزدهرة جدًا، ومنها حصل ملك آشور في هذه المناسبة على غنيمة دسمة جدًا. وحينما يمنح الآشوريون لقب الملك لمرؤوسين، ــ

ويفعلون ذلك للآراميين أكثر مما يفعلونه للحثيين الحديثين، فانهم يميلون إلى استعماله في شأن فئه بكاملها أكثر مما يفعلون ذلك لأمراء أفراد. فالملكية لا يُعترف بها غالبًا إلا عن طريق الاشتراك. إذ يذكرون، مثلاً، أسر الطبقة الملكية لفلان، ضمن لائحة الغنائم.

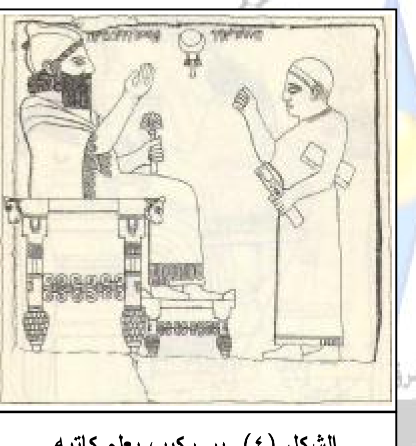
حماس بر ركيب

إن العلاقة بين ملك آشور وأمير يؤدي الجزية يُرمَز إليها بعلاقة "السيد" و"العبد" في نصوص زنجرلي (سمأل). وليس ثمة ما يحملنا على الشك في أن تكون الحالة مختلفة في الأماكن الأخرى. ونلاحظ أن بر ركيب يتواضع، في أحد نصوصه، حتى أمام الكوادر العليا في الإدارة الآشورية، "خدام البلاط" عند سيده. وهذا الأمير نفسه يعترف بما هو مدين به نحو تغلاثفلاصر الثالث. انه يفتخر بالإكرامات الخاصة التي منحها الآشوري لأبيه بعد موته، كما في حياته، مكافأة على خدماته المخلصة، وهو يشكر تغلاثفلاصر على قدم المساواة مع الإله "ركيب ـ ايل" لأجل ارتقائه إلى العرش. ويعلن سعادته لكونه استطاع أن يركض بجانب مركبة سيده ملك آشور.

لقد أثارت هذه العبارة الكثير من الفضولية، وأعطت المجال لشروح مختلفة جدًا، ليس فيها ما يفرض ذاته حقاً بدون نقاش. ويرى البعض أن هذه العبارة قد تعني أن هذا المليك كان له امتياز وهو أن يقود مركبته جنبًا إلى جنب مع مركبة سيده. ويمكن العودة، في هذا الصدد، إلى كودورّو للملك نبوخذ نصر الأول (١١٢٥-١١٠٤ ق.م) الذي كان يكرم زعيمًا كشيًا كانت مركبته واقفة إلى الجانب الأيمن من مركبة سيده، ولم يكن يظل في الأخير.

إلا إن التساوي مع عبارة "بر ركيب" ليست واضحة تمامًا. وإذا أردنا أن نمثّل الحالة واقعيًا، وَجَب أن نتذكر أن "بر ركيب" قال إنه قاسَمَ هذا الحظ مع "ملوك قديرين" كثيرين.

وهناك شرح تقليدي يقول إن بر ركيب وأقرانه كانوا يركضون ماشين بجانب المركبة الإمبراطورية أو أمامها. ولكن هل يجب النظر إلى هذه المَهَمَّة مثل شرف أو مثل مذلّة ؟ وفي الحالة الثانية، سيكون حماس بر ركيب غير مفهوم.



الشكل (٤) بر ركيب يعلم كاتبه

ربما أن القبول الحماسي، الذي أبداه بر ركيب تجاه السيطرة الآشورية، كان أمرًا وحيدًا في الدول الخاضعة. ولكن منذ عهد توكَولتي نينورتا الثاني (٨٩٠-٨٨١ ق.م)، تروي لنا الحوليات الآشورية أيضًا أمثلة عن متعاونين غيورين، مستعدين أن يكشفوا للملك جميع المؤامرات التي يطّلعون عليها. كما أننا نعرف أن هناك أمراء غير راضين[٧] وعصابات من المتمردين[٨] الذين لم يترددوا في طلب تدخل الآشوريين في بلدانهم.

---

[٧]- مثل "پانامو ا" ابن بر - صور والد بر ركيب.

[٨]- مثل رعايا "جيعمّو" في وادي البليخ الذين تخلصوا من سيدهم، حينما بدأ شلمناصر الثالث زحفه إلى سوريا الغربية سنة ٨٥٣، ومثل مواطني "عناة" على الفرات، حينما رفضوا سلالات سوحو التقليدية في نحو نهاية القرن التاسع.

ولكننا لا ننفي من حيث المبدأ، إمكانية تفاهم ومبادلات نزيهة بين رجال الدولة من أمثال تغلاثفلاصر الثالث والملوك الخاضعين له. إن كتابة بر ركيب على تمثال "پانامو ا" ابن بر ــ صور تسرد حالات نفي قام بها هذا الملك، ويوحي السياق بأن هذه الأمور جرت لخدمة الإمبراطورية الآشورية. فإن "پانامو ا"هذا خدم في الجيش الكبير لتغلاثفلاصر مع ملوك آخرين خاضعين، ومات خلال الحملة التي وضعت حدًّا لمملكة دمشق[٩] ويكون جزء من مكافأته توسيع أراضيه على حساب "كركم". إن هذه العلاقات التي نعرفها بفضل كتابات زنجرلي يكون لها ما يعاكسها في تاريخ مملكة "كوموخ" الحثية ــ الحديثة. فإن ملوك "كوموخ" ظلوا أمناء تجاه الإمبراطورية الآشوريه جيلاً بعد جيل، واستفادوا بالمقابل من حمايتها ومن الأراضي الجديدة التي أُضيفت إلى مملكتهم.

وطأة السلطة الآشورية

إن دخول دولة صغيرة في النظام الإمبريالي واشتراكها في مشاريعه كان يعرّض ملكها لمعاداة حلقة من "الملوك اخوته" الذين كانوا يعتمدون على أمانتهم وعلى الجهد المثابر للتميّز بين زملائهم في سبيل الوصول إلى تصنيفهم في الدرجة الأولى. ولكن لم يكن في وسع الجميع أن يحتملوا هذه المنافسة المستمرة.

إن سيطرة الملك الآشوري وضغط خدامه الآخرين لم يكونا سوى جزء من ثمن "السلام الآشوري". وبغضّ النظر عن المجازر والإجتياحات

[٩]- وفي وقت أسبق من هذا القرن، كان العهد الذي قطعه "متي – ايلو" مع آشور - نراري الخامس يلزم ملك أرپاد بالخروج مع قواته الخاصة والعمل مع الجيش الآشوري... وفي نهاية الإمبراطورية الآشورية، سينظم آشور بانيپال لائحة الملوك الإثني عشر من الغرب، يكونون قد رافقوه في حملته على مصر.

التي كانت ترافق غالبًا دمجًا إجباريًا في الإمبراطورية، فإن الإسهامات الإعتيادية، في المناسبات التي يطالب النظام بها كانت ترهق كثيرًا اقتصاد الخاضعين. والجبايات لم تكن تقتصر على الجزية وعلى التأديات الأخرى التي كانت معتدلة والتي كانت تقتضيها الجزية، بل كان عليهم أيضًا أن يزوّدوا الإمبراطورية الآشورية بالجيوش الضرورية لحملاتها العسكرية. وبالعمال لأجل مشاريعها الصيانية. وهكذا لم يكن في وسع أمير أن يُرضي الإمبراطورية الآشورية بسهولة دون التعّرض لحقد شعبه الخاص.

وكانت الثورات متواترة في البلدان الآرامية، فتبتدئ غالبًا بانقلاب ضد زعيم يرونه مواليًا بإفراط للإمبراطورية الآشورية، وكانت نتيجتها القمع الشديد. فان موضوع "الثورة – القمع" من المواضيع الاعتيادية لتبرير الحروب الإمبريالية. ويشير الواقع إلى أن المتعاونين مع الإمبراطورية أنفسهم، الذين وضعتهم هذه الإمبراطورية في موضع الثوار المغلوبين، قد تجاسروا غالبًا وخاضوا مغامرات خطرة، إذ أشهروا السلاح بوجه المحسنين إليهم. وهذا من شأنه أن يشير إلى أن السلطة الآشورية كانت تَظهر وكأنها لا تُحتمل[١٠].

الملك المتوفى

الرتبة الجنائزية في زنجرلي

إن كتابات زنجرلي التي تكشف لنا عن الانشغالات اليومية لدى ملوك سمأل، هي لنا أيضًا مصدر رئيسي للمعلومات عن مصيرهم في ما

[١٠] - في التاريخ حالات عديدة لهذه الانتفاضات على السلطة الآشورية. وبين أمثلة عديدة، يمكننا التفكير في هوشع ملك إسرائيل الذي تم تعيينه بموافقة تغلاثفلاصر الثالث، ولكنه ثار بعد ذلك على شلمناصر الخامس.

وراء هذه الحياة. فواجبات الأحياء نحو الملك المتوفى لم تكن تتوقف على حِداد منظَّم، مثل ذلك الذي يتبع موت "پاناموا" ابن بر ــ صور. ونتائج الرتبة الجنائزية كانت تتعدى أيضًا البركة التي وزّعها المتوفى الذي قد تكون حالته وسلطاته الخيّرة مرموز إليها بهذا اللوتس (نيلوفر) المنحني الذي يضعه الفنانون غالبًا في يده.



الشكل(٥) مسلة جنائزية "نيرب"

الشكل (٦) مسلة جنائزية "نيرب"

الأكل والشرب مع هدد

إن هدد، الذي يُعتقد إن ملوك سمأل مدينون له بسلطتهم، كان يُظن انه يسهر عليهم حتى بعد وفاتهم. فكان "پاناموا" ابن قوريل يصرّ على أن يذكره خلَفُه باحتفال، وأن يكون له حصة في التقادم التي يأتي بها إلى هدد. وقد نقش أوامره هذه في هذا الشأن على تمثال ضخم لهدد كان قد أقامه بالقرب من موضع دفنه. وبعض من تعابيره الأساسية ما تزال تُقرأ، وكان لها تأثيرها الدائم في الشرّاح. فان خلف پاناموا، عند تقدمة ذبيحته "لهدد"، كان عليه أن يعلن اسم الإله، وأن يضيف:

لتأكل معـــك روح (نفس) پاناموا

ولتشرب معك روح (نفس) پاناموا

وكل إهمال في هذا الموضوع يكون كارثة، إذ يضع حدًا للعلاقات الحسنة بين الملك الجديد وبين الإله هدد.

العبادة التي تؤَدَّى للتماثيل الملكية

تجدر الإشارة إلى أن العبادة الجنائزية لپاناموا توجهت إلى تمثال هدد وليس إلى تمثال الملك نفسه. ومع ذلك، فان مثل هذه التماثيل كانت موجودة. فتمثال ملكي لزنجرلي محفوظ في اسطنبول غير مكتوب وبأسلوب ما يزال قريبًا جدًا من الأسلوب المتَّبَع في كركميش، ولا بد انه يرقى إلى الأجيال الأولى من السلالة، قبل الاسلوب المائل إلى الطريقة الآشورية، كما نلاحظ ذلك في عهد "كولاموا". ومنذ اكتشاف هذا التمثال، لاحظ الآثاريون انه كان قد دُفن باعتناء واحترام.

إن كتابة بر - ركيب المخصصة لپاناموا ابن بر ــ صور منقوشة على تمثال لهذا الملك. وتنتهي هذه الكتابة برتبة جنائزية لم تُحفظ جيدًا.

وتذكر هذه الرتبة بين أمور أخرى كبشًا يترتب على الملك الحاكم أن "يخرجه" نحو قبر پاناموا. ولا يسعنا أن نوضح العلاقات بين القبر والتمثال في هذه الرتبة، ولا العلاقـــات بين الكبش والذكر الاحتفالي للمتوفى.

وعلينا هنا أن نقبل بأن هذه المعلومات المقتطَفة بين آثار ترقى من نحو سنة ٨٦٠ إلى نحو سنة ٧٣٠ لا يسهل جمعها في حصيلة متناسقة. إنها تطرح أكثر من سؤال.

الأجداد الملكيّون وغيرهم

علينا أن نتساءَل أولاً هل ثمة ما يشير إلى تأليه حقيقي للملوك المتوفين، وهل كان الناس ينظرون إلى مصير الملوك الآراميين على صورة ملوك "حتي" القدماء الذين كان الموت لديهم أن يصيروا آلهة. فهل كان الآراميون يتقاسمون في هذا الموضوع معتقدات الأوغاريتيين الذين، على النقيض من الحثيين، كانوا يستطيعون أن يُسمّوا بلقب إلهي أسماءَ الملوك القدامى، وأن يقدّموا لهم الولائم التعبدية أيضًا؟ أو أن معتقداتهم كانت تشبه ما لدى أهالي "ايمار" الذين يبدو إنهم استخدموا هذه العبارة "آلهتي وأمواتي" عند كلامهم عن أقاربهم المتوفين؟

في عالم حيث المعتقدات والممارسات المحيطة بالأناس الاعتياديين ليست معروفة لدينا معرفة جيدة، يمكننا أن نتساءل هل أن واجبات التقوى نحو الملوك المتوفين لم تكن مجرَّد تكثيف لما كان يجب على كل إنسان تجاه موتاه. وهكذا فالحداد العظيم للملوك كان يتّسم بعنصر "البكاء"، شأنه في ذلك شأن الأناس الاعتياديين. ويسعنا أن نتصور أن الطعام مع "هدد" كان له أيضًا ما يقابله في الممارسات الجنائزية لكل إنسان، وأن روح كل غائب كانت

تريد أن تأكل وتشرب مع الألوهة، أقل شأنًا من هدد دون شك، التي كانت تسهر عليه وعلى ذريته.

إلا أن إله أجداد پاناموا، إله سلالته، لم يكن "هدد"، بل "ركبعل". لا بدَّ أن هناك ما حدا الملك إلى مقاسمة التقادم المقَّربة لتمثال "هدد". فأن يكون الملك المتوفى هكذا مشتركًا مع رئيس الآلهة بالأحرى من اشتراكه مع إله سلالته الخاص، فهذا أمر قد يشير إلى أنه، حتى بعد موته، تبقى رتبته أرفع من سائر المائتين.

تقليد آرامي أو حثّي؟

السؤال الرئيسي الآخر الذي يطرحه موضوع زنجرلي هو طابعه الممثّل تجاه سائر العالم الآرامي. فسمأل كانت شاذة في لهجتها، وشاذة أيضًا في موقعها الجغرافي، لكونها داخل مثل زاوية بين الممالك الحثية ـــ الحديثة.

وكانت "تل حلف"، مثل زنجرلي، مدينةً كثيرًا للحثيين الذين حُفظت بعض تقاليدهم لدى الحثيين ـــ الحديثيين ومقلّديهم. إذ كانت "كركميش" المدينة الحثية المُثلى في سوريا العصر الحديدي، ربما تؤلّه الرؤساء المتوفين. فإن "جدار النحت الكبير" الذي أُنجز في القرن العاشر، يقدّم لنا إشارة جديرة بالاهتمام، وإنْ لم تكن مقنعة تمامًا. إنه يمثّل مشهدًا فيه تجلس الملكة على العرش في نهاية سلسلة من الصور الإلهية، ولا شيء يفصل الملكة عنها ظاهريًا.

لا شك أن معطيات "زنجرلي" عن حالة الملوك المتوفين مهِمة، ولكنها قد لا تكون سوى نقطة من جبل جليدي عائم، إذ تتيح لنا أن نكتشف ظاهرة منتشرة جدًا في ممالك مماثلة. ولكنْ يبقى من الصعب أن نحدّد إلى أي مدى تمثل الأوضاع العامة، وذلك ليس لِما في النصوص من الغموض

فحسبُ، بل لأن هذه المعطيات قد تكون نتيجة التأثير الحثّي ـــ الحديث وموجودة في أعلى المنطقة الشمالية من العالم الآرامي.



الفصل التاسع

المجتمع المدني

في الصفحات السابقة تكلمنا عن المجتمع الآرامي بشكلٍ عام، وعن طبيعة الدول الآرامية وكياناتها وأعراقها وتحالفاتها. ثم تناولنا موضوع الملكية عند الآراميين والآلهة التي كان الملوك الآراميون يكرّمونها ويلوذون بحمايتها...

ونتناول الآن المجتمع المدني ونتكلم عن مكوّناته، ولاسيّما عن الملك وبِطانته. ونتناول أيضًا طبقات المجتمع والأسرة، ونسلّط الأضواء على وضع المرأة وعلى غيرها من المواضيع التي من شأنها أن تربط ذلك الماضي البعيد بالحاضر الذي نعيشه اليوم.

خدّام الملك

إخوة الملك

نلاحظ حول كلٍّ من الملوك الآراميين في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد عددًا من العظماء: رابوتي (أكدي)، رابين (آرامي). وهناك عبارات ينقلها لنا نصب "سفيرة" الأول: "الذين يدخلون بيت ملكي". وكانت هذه العبارة تشير إلى الطبقة الأرستقراطية التي كانت تدخل بسهولة عند الملك،

وبالفعل عينه كانت تشكّل خطرًا دائمًا على سلطته وعلى حياته[1]. ولكنه كان مضطرًّا إلى الإعتماد عليهم والإفادة منهم قدر المستطاع. ولدى كل تغيير في السلطة، كان على العاهل الجديد أن يسرع في "تأكيد سلطته"[2]، وهذا يعني أن يُحكِم سيطرتَه على الذين حوله.

وفي وسط هذه الأرستقراطية القريبة من العرش، يأتي أولاً "إخوة الملك". ففي الدول الآرامية، مثلما في غيرها في سوريا، كان الملك يستند أحيانًا إلى حلقة واسعة من "إخوة"، كان مصيرهم يرتبط إرتباطًا وثيقًا بمصيره. وفي زمان التوسّع الآرامي، كان هؤلاء "الإخوة" قد شكّلوا نوعًا من القبيلة (أسرة) حول الرؤساء والمؤسسين الأولين.

وتُعرف هذه الحلقة المحظوظة على ضوء ما جاء في القسم الأخير من كتابة "باناموا" المخصصة للإله "هدد" في بلاط سمأل "زنجرلي". إن هذه الفقرة من الكتابة ذات طبيعة قانونية وتبحث عن وضع حدّ لإراقة الدماء في العائلة المالكة، فإن باناموا يشجب أولاً كل استيلاء على السلطة بنوع همجي، حيث يعاقب الملك الجديد إخوته وخصومه[3] بقساوة وحشية، ثم ينظّم مجلسًا من "الإخوة" يرئسهم الملك نفسه، وهو مخوّل للحكم على الجرائم ومعاقبتها.

إن هذه النخبة المرتكزة على السلالة كانت ترقى بدون شك إلى الأصول القبلية للآراميين والدول التي أسسوها. إلا أن الصيغة القانونية التي

---

[1]- تجدر الإشارة إلى الدور الرئيسي الذي كانت تقوم به نساءُ الملوك وأولادهم في الانقلابات في ما بين النهرين، لكن هذا الدور لا يبدو جليًا في الوثائق المتعلقة بالممالك الآرامية

[2]- ونستشفُّ هذا في العهد القديم أيضًا: (٢ أخبار ١: ١٧، ٤: ٢١، ١: ٩، ١: ١٢، ٢١: ١٣، ٣: ٢٥...) ويمكننا أن نرى في (٢ ملوك ٥: ١٤) أن هذه العادة كانت ولا شك أقدم من كاتب سفر الأخبار.

[3]- وهذا ما يذكّرنا بما جاء في (١ ملوك ١٣: ٢-٢٥) حيث يتخلص سليمان من أخيه "أدونيا". أنظر أيضًا ما جاء في (٢ أخبار ٤: ٢١، ١٣) حيث يُتّهم يورام ملك يهوذا بأنه أباد بحد السيف جميع إخوته حينما احتلَّ العرش.

أعطاها "باناموا"، وهي الوحيدة في سوريا العصر الحديدي، قد تكون صدى للتقليد الحثّي.

كبار القوّاد في المملكةِ

بِطانة الملك

هناك أصحاب رُتَب عالية كثيرون كانوا يحومون حول الملوك الآراميين وأُسرهم، وكانوا يقاسمونهم مداهم الحيوي. وقد اكتشف علماء الآثار في قلعة "حماة" السورية ما يُعتَقَد انه كان غرفة الطعام. إذ يبدو أن هؤلاء الناس كانوا يتناولون طعامهم معًا. إنها كانت صالة مضاءة جيدًا ومزوَّدة بآنية جميلة، وكانت تُفضي إلى الدرج الكبير الذي يُصعِدِ إلى القلعة العليا من المدينة السفلى.

لا شك أن هؤلاء العظماء كانوا يُدعَون "خدام بيت الملك"، أو "خدام الملك" فقط. إلا أن هذه الألقاب لا ترد كثيرًا في الآرامية القديمة. فالكتابات الملكية الآرامية لا تحتوي على ما يماثل خدام الملكَين داود وسليمان، ولا تكاد الأختام تزوّدنا بشيء من العصر الحديدي الثاني. ولكننا نجد في المصادر ألقابًا قريبة من الألقاب المستعملة في الدول المجاورة. وهكذا نلقى في "حماة" القرن الثامن عبارة "سيد البلاط". وهناك مصادر أخرى تُطلعنا على وجود لقب "ساريس" في البلاطات الآرامية. ويبدو أن "ساريس" و"خادم" الملك لفظتان تدلاّن على وظائف متشابهة. إن تبعية اللفظة الآرامية تجاه التعبير الآشوري والتشابه بين النصوص لا يتيحان لنا أن نشكّ في أن تكون كلمة "ساريس" ولفظة "شا ــ ريشي" تشيران إلى خصيان حقيقيين.

وكان للكتبة أيضًا مكانهم الخاص في البلاط الآرامي. ونرى ذلك من خلال أسماء الكتبة وألقابهم، المكتوبة بالآرامية على مشاجب برنزية في "نمرود". وهناك أيضًا نصب من "زنجرلي"، يرقى إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، يمثّل الملك "بر ركيب" وهو يعطي تعليماته لأمين سرّه. كما أن هناك نتفًا مسمارية اكتُشفت في البناية الثالثة من قلعة "حماة" التي كانت في الأرجح تحتوي على المؤسسات العامة في الإدارة الحماتية. ومعظم هذه النصوص تتعلق بالسِحر والدين، وربما كانت من نتاج كهّان مثقفين. وكانت تحتوي أيضًا على رسائل، وأحسنها حفظًا تتناول العلاقات المتبادلة بين حماة وسوحو، وتظهر مكانة الكتابة المسمارية والمختصّين بها في إدارة مملكة آرامية.

أما المهمات البلاطية الأخرى المذكورة مباشرة، فإنها أكثر تواضعًا. فيُعرف وجود سقاة وطباخين من خلال كتابات على الجرار من القرن التاسع، وُجدت في مراكز إقليمية، واحدة في تل دان، وأخرى في عين (كيف) شرقي بحيرة طبرية.

رُسل الملك

إذا انتقلنا من بطانة الملك إلى الذين يمثّلونه في الخارج، رأينا استخدام مَهَمَّة أخرى في الآرامية، وردت في النصب الثالث من "سفيرة"، ويستخدم كلمة "ملأك ــ مِلاك" وتعطي هذه الوثيقة فكرة رفيعة عن سلطة هؤلاء المبعوثين (المرسَلين) الملكيين وعن دقة مَهَمّاتهم. لكننا لا نستطيع، إستنادًا إلى هذه الوثيقة، أو إلى أي مصدر آخر، أن نعتبر السلك الدبلوماسي منصبًا تخصصيًا حقًا في عهد العصر الحديدي الثاني. إذ علينا أن نفترض أن الأمراء الآراميين، شأنهم شأن الملوك الآشوريين، كانوا يَعهدون بالأحرى

بإرسالياتهم إلى مختلف أنواع الموظفين، الذين ما كانوا يُرسَلون إلى الخارج إلا في مناسبات خاصة.

الإدارة الإقليمية

هناك موظفون آخرون يمثّلون الملك في المراكز الثانوية من دولهم. فحسب المعطيات الآشورية، كانت الممالك الآرامية الرئيسية تنقسم إلى "ناجي" أو أقاليم. والقسم من "حمـــاة" الذي ألحقَه تغلاثفلاصر الثالث بإمبراطوريته (سنة ٧٣٨)، كان يضمُّ (١٩ إقليمًا). وكانت مملكة دمشق في الزمان نفسه تضمُّ (١٦ إقليمًا). ولا نعرف أسماء هذه التقسيمات بالآرامية، ولا اللقب الذي كان حكامهم يحملونه. ونلاحظ أن (١ ملوك٢٤: ٢٠) يتكلم عن عزل الملوك وعن تعيين قادة مكانهم. فقد يكون هذا الإجراء نوعًا من تبنّي الطريقة الآشورية.

الجهاز القضائي

إن التنظيم القضائي في الدول الآرامية لا يُمثَّل في المصادر إلا تمثيلاً رديئًا جدًا. فلسنا متأكدين حتى من أن إدارة العدالة كانت في أيدي المهَنيين المختصين بهذه المَهَمّة. وبما أن الخلافات الطفيفة كانت تُسوّى عن طريق "القدماء"، وأن القضايا الكبيرة كان يحكمها موظفون ذوو مسؤوليات أوسع (مثل الحكام أو القواد العسكريين...). وعند الحاجة، كان الملك بشخصه يتولى تسويتها.

إن النص الآرامي الوحيد القديم، الذي يُطلعنا مباشرة على المسائل القضائية، هو مقطع ورد في كتابة "باناموا" ابن قوريل، الذي ذكرناه في شأن

"إخوة الملك". وهذه الوثيقة لا تنطبق مباشرة سوى على حلقة من المحظوظين، ولكنها تتضمن مِيزَتين، كان يجب أن تكون شرعيتهما أعم عند الآراميين، لأنهما كانتا مشتركتين بالأحرى حتى في المواضيع الأخرى لدى القدامى: متَّهَم يدافع عن نفسه بقَسَم يرافق اللعنة يُرجَم حينما تتمُّ القناعة من ذنبه. ولكن من الممكن أن الآراميين قد استخدموا طرقًا أخرى للإعدام[٤]، وانهم نوّعوها بحسب المكانة الإجتماعية للمذنبين أو لاعتبارات أخرى[٥].

إن فعل "دين" كان من شأنه أن يزوّدنا بقسم من المفردات القضائية الآرامية. فهو يشير إلى محاكمة في أمثال "أحيقار"، ويُدعى الحكام "ديّان" في الآرامية المتأخرة، مثلاً في سفر (عزرا ٢٥: ٧)، وفي مملكة سمأل، كان أحد المغتصبين قد ملأ السجون قبل مجيء "باناموا" إبن برصور إلى الحكم. وكان لهذه البيوت بالتأكيد حراس، كما اكتُشِفَ ذلك في ختم عبري من القرن السابع.

إذا ما قابلنا أمثال أحيقار الحكيم بما يشابهها في الكتاب المقدس، حيث الاستعارات القضائية مشتركة، لاحظنا انه ليس عند أحيقار سوى مقابلة من هذا النوع. فالأثر الآخر الوحيد للحقائق القضائية التي نجدها في نَص آرامي قديم هو تطبيق استعارة "قبّال" (الشاكي والخصم) على الإله (هدد) في لعنة نجدها في السطر ١٢ من كتابة "تل فخيرية". إن هذا التعبير، الذي ليس منسوخًا على الأكدية "بيل – ديني" من الفعل الموازي، والذي سيظهر في

---

[٤]- هكذا بحسب بعض عقود آشورية من غوزان في القرن السابع، الإبن البكر للمخالف يجب أن يُحرق في الموضع المقدس لهدد. قد تكون هذه الطريقة من التراث الآرامي.

[٥]- هذا ما نستوحيه من المقارنة مع إسرائيل حيث كان الرجم مستخدما، ولكن حيث كان في وسع الملوك أن يقتلوا خصومهم السياسيين بحد السيف.

القرن الخامس في النصوص الآرامية من مصر، يمثّل بأصالة لغة الآراميين القضائية.

عدم ظهور نصائح الأقدمين

إن صمت مصادرنا حول وجود نصائح الأقدمين قد يكشف عن طابع ذي معنى للمجتمعات الآرامية في العصر الحديدي الثاني. فلا الألفاظ التي تشير إلى القدامى في اللهجات الأحدث عصرًا (شاب / ساب، قشيش) ولا الباقي من مفردات المؤسسات الإدارية، لا توجد في المصادر قبل الحقبة الفارسية، وذلك حتى في كتابات "سفيرة"، حيث وجدنا معظم الألقاب الأخرى، باستثناء محكمة "إخوة" الملك في كتابة "باناموا"، فالمصادر لا تحفظ أي مثل لهيئة استشارية أو لقرار متّخَذ جماعيًا.

إننا نتحفّظ بحق من برهان الصمت، لاسيّما أن مصادرنا محدودة. ومن الممكن أن تكون الكتابات الملكية تتباطأ عند أوطأ درجات الإدارة. ويبدو من الجائز أن نفترض إن نصائح الأقدمين كانت جارية بخفاء في القرى والأرياف، وكانت فيها تُواصل مَهَمّاتها الجليلة. وهذا ما يوحيه التماثل مع ما كان يجري في إسرائيل[٦]، وكذلك النمو الاعتيادي للمجتمعات التي خرجت شيئًا فشيئًا من تنظيم قبائلي.

إلا أن الملوك حاولوا فرض سيطرتهم حتى على هذا الصعيد المتواضع. ونعلم أن والد (بر ركيب) في سمأل كان قد اهتمَّ بتعيين رؤساء القرى، لا شك في سبيل أن يحسن التحكّم في الجماعات المحلية. إضافة إلى صمت النصوص على كل جماعة إدارية من أعلى الصعيد، فإن هذا المثل

[٦]- حيث شرائع سفر التثنية، ولاسيّما في الفصلين ٢١ - ٢٢، ما زالت تُعوّل على سير مثل هذه النصائح.

يُفسح لنا المجال لكي نرى نزعة اوتوقراطية، أزالت جزءًا كبيرًا من تراث المجتمعات الأكثر بدائية في العصر الحديدي الأول.

إن هذه النظرة، في مجملها، إلى البلاطات الآرامية وإلى البُنى الإدارية، تتلاءم جيدًا مع ما نعرفه بصورة عامّة عن بلاد المشرق في العصر الحديدي. فرؤساء قبائل ذوو بأس وشجاعة فسحوا لأنفسهم مجالاً حيويًا جديدًا تحت الشمس، أو وسّعوا أراضيهم التقليدية. عاجلاً أو آجلا، تبنّى خلفاؤهم الحضارة المدنية، وتلقوا أو نظّموا بُنى اجتماعية أكثر تعقيدًا، وهي موحاة في الغالب من الدول الحثّية - الحديثة، أو من الدول الفينيقية، حيث كانت ثقافة العصر البرونزي ما تزال حية. وقد لاحظنا استمرارية أخلاقية القبيلة لدى الجماعات القبائلية القديمة على أعلى الصُعُد في الحلقات الممتازة لـِ "الإخوة" و"الأخوات"، الذين كانوا يحيطون بالملوك. ويمكننا التكهّن بأنه في أوطأ الدرجات أيضًا، مع حرية مقيّدة إلى درجات متفاوتة، كان شيوخ القرية يؤدّون دومًا الخدمات نفسها كما في عصور ما قبل التاريخ.

طبقات المجتمع

(B’RRM , MSKBM) إذا اتفقنا على الكلمات، فإن المجتمع الآرامي قد استطاع أن يكون، نوعًا ما، متعادلاً في بداياته، قبل أن يتبنّى تمامًا النماذج التي جلبها الحثّيون ــ الحديثون أو ورثة آخرون للمجتمعات المنضّدة في العصر البرونزي. إلا أن الوثائق المكتوبة، المتعلقة بفترة أحدث، تكشف عن حالة مختلفة جدًا، حيث كانت طبقات الشعب تُنضَّد تنضيدًا عموديًا، وحيث كان الميلاد يتحكم بحقوق كل إنسان وتطلّعاته. مهما يكن من أمر، ففي سمأل، في نحو نهاية القرن التاسع، توضّح كتابة

"كولامواط تقسيم الشعب إلى طبقتين، تناسقهما ضروري للازدهار القومي، الـ (MSKBM) الذين اجتهدوا في تحسين أحوالهم، والـ (B'RRM) الذين لا يبدون في حاجة إلى حماية.

الملاّكون الكبار

بعد نصف قرن، في الدولة نفسها، تذكر القوانين القضائية لبانامو ا إبن قوريل ممتلكات "إخوة" و"أخوات" الملك وغيرهم من عظماء المملكة. وتتوضّح هذه التفاصيل على ضوء كتابات من آسيا الصغرى، تُظهر الامتيازات التي تَنعم بها طبقة من الملاّكين الكبار في المجتمع الذي صار نموذجًا للآراميين في العصر الحديدي. وليس من المستحيل أن يكون الفلاحون العديدون، الذين كانوا مرتبطين بالأرض في الممتلكات الكبيرة للضباط الآشوريين في القرن السابع في الشمال الغربي من بين النهرين، قد صار لهم من سبقوهم في الدول الآرامية. وفي هذه الحال، إن الممتلكات الكبيرة لـِ "إخوة" الملك ولأندادهم قد فُلحت من قبل (...). إلا أن أعضاء آخرين من هذه الطبقة نفسها كان لهم مزروعاتهم الخاصة بهم، إذا كان ذلك أساسًا للتقدم الاقتصادي الذي تصفه كتابة "كولاموا":

إن من لم يكن قد رأى بعينيه خروفًا، جعلتُه صاحب قطيع،
والذي لم يكن قد رأى بعينيه ثورًا، جعلتُه صاحبَ دواب،
أو صاحب فضة، أو صاحب ذهب،
والذي لم يرَ قط نسيجًا منذ طفولته، توشّح في عهدي بالكتّان الناعم!

فلاّحون صغار وعمّال آخرون

كانت الطبقات العاملة من المجتمعات الآرامية تتضمن بلا شك تنوّعًا كبيرًا من أناس مهنيين. ويمكننا القول أن معظم هؤلاء المِهَنيين كانوا يسكنون المدن. ونتمنى أن يسلّط علم الآثار يومًا بعض الأضواء على هؤلاء الناس، ويُطلعنا على أعدادهم وعلى ظروف حياتهم، بدون الاكتفاء بالتنقيب في قصور الملوك وفي المعابد.

وبحسب علمنا الآن، لا يظهر لنا أن في وسعنا أن نحدّد كم من هؤلاء الفلاحين "إكارو" (أكدي) في (أرباد) في القرن الثامن عشر، كانوا يشتغلون، بحسب كليشة معاهدة، في أراضي الكبار، وكم منهم كانوا يمتلكون مزارعهم الخاصة بهم. ولا نعلم إلى أي مدى كان تنضيد شبيه بتنضيد بعض المجتمعات السورية من العهد البرونزي الحديث، قد انتهى بأن يتفوق من جديد في العصر الحديدي.

كان في وسع العاملين في الأراضي الواسعة في القرن السابع أن يمتلكوا بعض وسائل الإنتاج. فهكذا نرى، بحسب لائحة الممتلكات والعمال رقم ٢ من منطقة حرّان، أن "هاني" إبن "باليتــو"، كان يمتلك ثورًا. وكان لعائلة أخرى ثوران. وكانت عائلة "أهابو" تمتلك ١٢ "ايميري" أي نحو ٢١ر٦ هكتارًا من الأراضي الزراعية. فهل كانت قابلية الامتلاك هذه شيئًا جديدًا؟ وهل نعمَ بها الفلاحون المرتبطون بالأراضي قبل التأثير الآشوري؟ لا نعلم!

عبيد لا مأوى لهم

من الأرجح، وليس من الأكيد، أن وضع هؤلاء العاملين في الزراعة كان مختلفًا عن وضع العبيد من الذكور والإناث الذين يُعتَبَرون مثل سِلَع

ترتفع أسعارهم أو تهبط شأن باقي الأشياء. وكان اسم سيدهم موشمًا على يدهم. وكان عملهم الخاص يتوقف على طحن الحبوب وإعدادها لخبزه. وفي أسفل السلّم، تظهر لنا لعنات كتابة "تل فخيرية"، منذ القرن التاسع، تنصبُّ على هؤلاء التعساء الذين كانوا مضطرّين إلى البحث في قمامات القرية ليجدوا قليلاً من الشعير، أو لكي يُمضوا فيها ليلتهم بحثًا عن شيء من الدفء.

الأسرة الآرامية ـ التركيبة الأبـويـة

تعاليم أمثــال أحيقار

عند الآراميين، كما في إسرائيل ويهوذا، تُدعى الوحدة العائلية "بيت أب ــ البيت الأبوي"، وسلطة الأب على عائلته شبيهة بسلطة الملك على بلاده. وبرغم رداءة الحالة التي وصلتنا بها أمثال أحيقار، فإن أربعة منها موجّهة بصورة واضحة إلى "إبني". ويحق، بل يجب على الأب أن يعلّم إبنَه الطاعة بكل الوسائل، ومن ضمنها العقوبات الجسدية. ولا عجب إذا كان هذا التعليم متبوعًا مباشرة بأوامر تتعلق بسلطة سيد على خدمه.

الوثائق المسحيّة لحران

إن الوثائق المسحية لمنطقة حران هي مصدرنا الرئيسي للإطّلاع على الأسرة الآرامية، إذ يبدو فيها التأثير الآشوري أكثر منه في أمثال أحيقار. وفِرَق العمال الزراعيين الذين تذكرهم ليسوا دائمًا مكوَّنين من آراميين. إلا أن لها فائدة مزدوجة، وهي أنها منظّمة بمنهجيّة، وأنها تصف الحقيقة المعاصرة لها أكثر من ذكرها للتقليد. إن شهادتها تطابق، إلى حدّ كبير، الشهادة التي وردت في كتابات أحيقار.

ففي هذه الوثائق، كما لدى أحيقار، تبدو التركيبة الأبوية للأسرة واضحة. فإذا نظم الكاتب لائحة بممتلكات إقطاعيّ كبير والعمال الذين في خدمته، يعدّد جميعَ الرجال، الأب والأبناء، قبل النساء، أي الأم والبنات. وبالمناسبة يذكر أيضًا والدة رب العائلة أو أخواته غير المتزوجات. وتجدر الملاحظة أن أسماء الذكور وحدها مسجّلة. أما النساء، فلا تُذكر أسماؤهن. ويشير الكاتب إلى مهنة رب الأسرة، وأحيانًا إلى مهنة أخرى كان في السابق قد تعلّمها ومارسها. ولا يُذكر إسم أي مهنة بالنسبة إلى أعضاء الأسرة الإناث.

عدد أفراد الأسرة

إن معطيات هذه اللوائح لا تتيح لنا أن نتحقق بدقة من عدد الأولاد الذين كانوا في أسرة واحدة. فهي لا تولي اعتبارًا سوى للذين ما يزالون يعيشون مع والديهم. وحينما يتزوجون، يُحسب أبناء وبنات العائلة الواحدة منفصلين، مع أولادهم. أما الذين يعيشون تحت سقف واحد، فعدد الأولاد عندهم لا يتعدى الاثنين، مع إضافة الأب والأم وربما الجدة أو العمة أو أحد الأعمام الصغار، كان عدد أعضاء الأسرة بين الأربعة والستة أشخاص. وكانت نسبة الوفيات عالية بين الأطفال، وهذا ما قد يشرح قلّة أعضاء العائلة الواحدة. وهناك اعتبارات أخرى، مثل الزواج في سن مبكرة، كانت تقلّص أيضًا عدد أفراد الأسرة.

الحياة العائلية

إن الطابع المكثّف المركّز على الإنسان، في هذه اللوائح، قد يكون نتيجة تشدّدهم على الإنتاجية الزراعية. وهذا ما يحمل الكتبة على تصنيف

الأولاد بحسب أعمارهم وكفاءآتهم للشغل. وعلى النقيض من الأسر المالكة في عهد الدول المستقلّة، فهذه النصوص من القرن السابع لا تتضمن أي مثل واضح عن تعدّد النوع. فمن المعقول أن نفترض أن هذه الأسر كانت متحدة بالاحترام والمودّة المتبادلين، كما كان الأمر لدى الأسر الآرامية التي كانت تعيش حول ممفيس طوال النصف الأول من القرن الخامس.

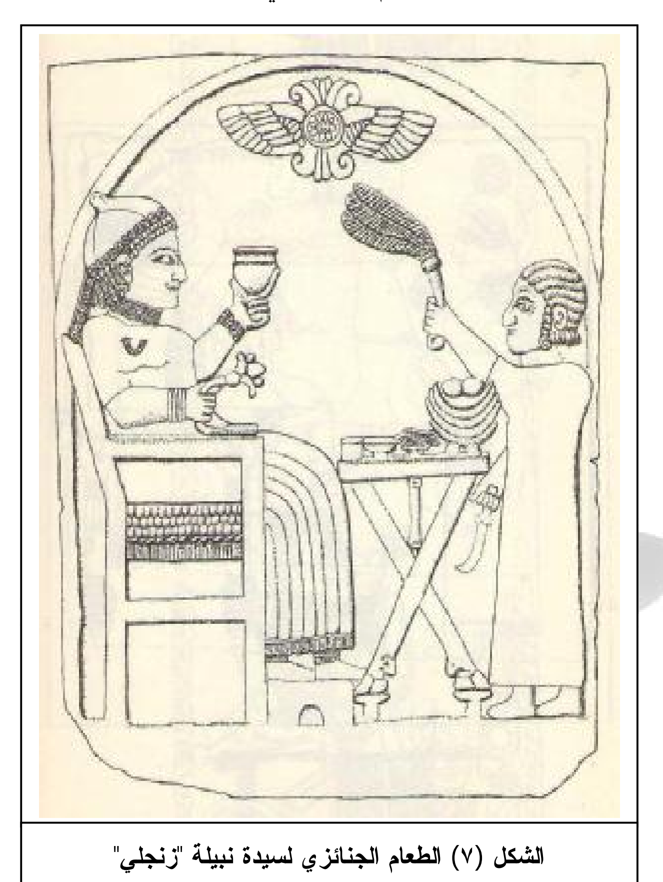
في مراسلة هذه الأسر المتواضعة، يدعو الرجل زوجتَه "أختي". ولغة الأخوّة هذه مستعملة كثيرًا بين الوالدين والأبناء البالغين. وتعابير الرسائل تفيض حنانًا تجاه جميع أعضاء العائلة، ولاسيّما تجاه الأولاد الصغار. ويبدو أن التعاون البسيط والطبيعي يسود بين الزوج والمرأة وسائر أعضاء العائلة، في كل ما يخص همومَ الحياة اليومية. ولم تكن الصرامة المبدئية في السلطة الأبوية تعيق أبدًا حرارة هذه العلاقات. وهذا ما يوافق المكانة المخصصة للأولاد في الفن الصوري للعصر الحديدي.

وضع المـرأة

تمثيلات فنية عديدة

إن النساء السوريات يمثّلن جيدًا في الفن الصوري الآشوري، كما في الفن الحثي ــ الحديث وعند الآراميين. ففي سوريا الشمالية، معظم الأمثال تعود إلى الفن الجنائزي. فهي تصف عادة واحدًا أو إثنين من الموتى جالسَين إلى المائدة، وقد قُدّمَ أو يُقدَّم لهما طعام. وهذا الموضوع لا يظهر على الأنصاب فحسب، بل كذلك على أغراض صغيرة، مثل مدالية ذهبية من القرن العاشر أُكتُشفت في زنجرلي. وقسم كبير من الأنصاب الجنائزية من هذا النوع تأتي من مرعش في كركم، وتمثّل بوضوح تقليدًا حثيًا - حديثًا. إلا أن الآراميين تبنّوا هذا التقليد مثل غيره. وهذا ما يمكننا مشاهدته في نصب

"أرباد" وفي النقش البارز الرائع من زنجرلي. فإن السيدة الممثَّلة هنا متوشحة بثياب فاخرة لا تقلُّ بهاءً عما يرتديه معاصرها "بر ركيب"، وخادمتها الصغيرة تمسك بمروحة، شأن خدام الملوك في نقوش أخرى.



الشكل (٧) الطعام الجنائزي لسيدة نبيلة "زنجلي"

إشارات أدبية نادرة

إن مصدرنا الأدبي الرئيسي، أمثال أحيقار، لا يتكلم سوى القليل القليل عن النساء، إذا قابلناه بسفر الأمثال في العهد القديم[٧]. وبالرغم من ذلك، إنه مثل هذا الكتاب، يوضع الأب والأم على قدم المساواة في حكمة وردت عن الإكرام الواجب تجاه إسم الوالدين. وهذا التفضيل يتناسب جيدًا مع موقف "كولاموا" الذي يُطلعنا على إسم أمه، والذي يدّعي انه تصرّفَ تجاه (MSKBM) مثل أب وأم وأخ، وانه أوحى إليهم بالثقة التي تكون عند يتيم تجاه والدته.

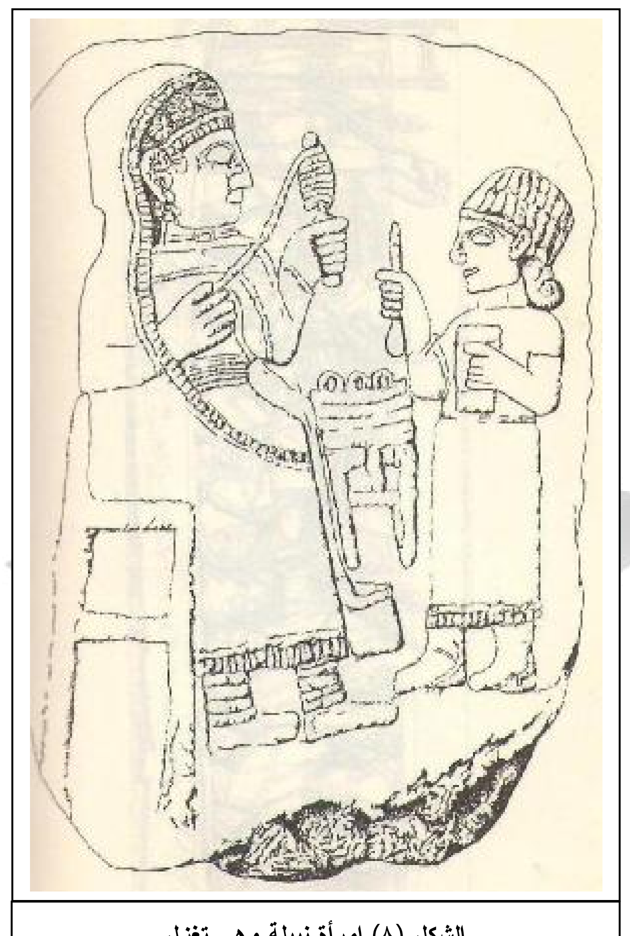
أشغال نسائية إعتيادية

ليس في المصادر سوى القليل عن الأشغال النسائية. والوثائق المسحيّة للمناطق المجاورة لحرّان لا تشير سوى إلى مِهنة أرباب العوائل، وهم الرجال دومًا. ولكن في الفصول عن النشاطات الاقتصادية، سنشير إلى وثائق أخرى آشورية تذكر موسيقاريات آراميات، لاسيّما من أرباد. ونستشف من بعض المصادر أن بنات كثيرات كُنَّ يدخلن منذ حداثتهن في خدمة الملوك والعظماء أما المرأة في المنزل، فالمماثلة تُطلعنا على الكثير من مسؤولياتها، وبعضها يظهر من اللعنات الشرطية الواردة في بعض المعاهدات أو في علم الآثار.

---

[٧]- إن أقدم المجموعات في هذا الكتاب (الفصول ١٠ ــ ٢٩) تحتوي على حِكم عديدة في المرأة الصالحة (١٦: ١١، ٢٢: ١٨، ١٤: ١٩)، وفي الزوجة المشاكسة (١٣: ١٩، ٩: ٢١، ١٩، ٢٤: ٢٤، ١٥: ٢٧)، وفي القضاء بين الزوجة الصالحة والشريرة (٤: ١٢). راجع أيضًا: (٢٢: ١١، ١٤: ٢٢، ٢٧: ٢٣،...).

إن كتابة "تل فخيرية" ونصب "سفيرة" الأول تصبّان كلتاهما على الفرقاء الخونة التهديد بكارثتين يشير إختيارهما إلى المهمات النسائية من الدرجة الأولى:



الشكل (٨) امرأة نبيلة وهي تغزل

في شأن الاعتناء بالأولاد

لترضع مئة إمرأة طفلاً واحدًا دون أن يستطيع أن يشبع (تل فخيرية، سطر ٢١) لتدهن سبع مرضعات أثداءهن ويرضعن طفلاً دون أن يستطيع أن يشبع (سفيرة١ ــ ٢١)

في شأن إعداد الأطعمة

لتخبز مئة إمرأة خبزًا في فرن، دون أن يستطعن مَلأه (تل فخيرية، سطر٢٢)

لتخبز بناته السبع خبزًا في...، دون أن يستطعن مَلأه (سفيرة ١ ــ ٢٤).

إسهامات علم الآثار

في إعداد الأطعمة، كانت الآراميات، شأن جاراتهن، يستخدمن الطاحونة (الجاروشة) والمهراس والهاون والمدقّ، والموقد والقُدور وأشكالاً متنوعة من الآنية الأخرى. إنها تشكّل مجمل ما اكتشفه علم الآثار في المواقع الآرامية، كما في المواقع الأخرى من سوريا وفلسطين. وبرغم شهادة النصوص عن الطابع الشاق لطحن الحبوب، فتواجد الطاحونة والمهراس في أفقر البيوت، الخالية من العبيد، يُظهِر أن هذا النشاط لا يمكن أن يُفصَل عن بقية الأشغال المطبخية المترتبة على ربّات البيوت.

ويسلّط علم الآثار ضوءًا ساطعًا على نشاط آخر رئيسي، تقوم به الآراميات، وهو إنتاج الأنسجة. فقبّانات الحاكة توجد بكثرة في كل مكان، وكذلك المغازل التي توجد اعتياديًا في البيوت وفي القبور في الشرق الأدنى. وتُضاف إليها المعطيات النقشية والصورية من التقليد الحثّي - الحديث، لكي تثبت الدور الرئيسي الذي كان الغزل يقوم به بين النشاطات النسائية. وفي نحو نهاية القرن الثامن، في الكتابة بلغتين من قره تبه، يُشار إلى أن في وسع

المرأة أن تتجول في كل مكان وبيدها المغزل كرمز للأمان في البلاد. وغالبًا ما يُظهِر الفن الصورَي السوري، من العصر الحديدي، نساء من الطبقة الرفيعة، وهن ماسكات مغازل بأيديهن.

"نساء الأعمال" الآراميات

ولأن الوثائق المسحيّة لمنطقة حرّان محدودة للذين يعملون في الممتلكات الواسعة بعد زوال الممالك الآرامية، فإنها حتمًا تترك في الظلام جوانب عديدة من المجتمع. ويمكننا أن نفترض وجود نساء محظوظات يسعهن أن يمتلكن خيرات وأن يشاركن في الاقتصاد بمختلف الأنواع. إلا أن الإشارات الإيجابية في هذا الشأن ليست متوفرة. فتذكر أن في سمأل كانت "أخوات" الملك يمتلكن أراضيهن الخاصة، بحسب "باناموا" الأول. والمماثلة مع مجتمعات أخرى معاصرة، من ضمنها إسرائيل، تترك إمكانية قيام بعض النساء بدور في الأعمال العامة. إلا أن المعطيات الآرامية لا تتوفر لدينا.

ضحايا مختارة للنفي في الأوقات الاعتيادية، كانت إمتيازات النشأة والثروة تضع الآراميات النبيلات في مأمن من الجوع والعمل المضني، ولكنها كانت تعرّضهن أكثر من أخواتهن لأهوال الحروب الأهلية الغريبة. وشأن السيدات الأنيقات في مملكة يهوذا[٨]، كانت السيدات في الممالك الآرامية معرّضات لأن يُنتزَعن من أناقة بيوتهن عند مجيء الغزاة. فالملوك الآشوريين كانوا يأخذون إلى الأسر بنوع اعتيادي النساء اللواتي يعشن بالقرب من ملوك البلدان التي أخضعوها عنوةً أو ألحقوها ببلدانهم. ولا بدّ أن

[٨]- أنظر تثنية ٢٨: ٥٦. وتظهر العبارة نفسها في (إشعيا ٤٧:١).

أصحاب البلدان المشرقية كانوا يفعلون كذلك أيضًا تجاه جيرانهم[٩]. إن عبارة "أخته، مع زينة جهازها، بنات عظمائه" صارت عبارة مُقَوْلبة في رواية الغزوات، حتى إن آشوربانيبال الثاني يستعملها آليًا وبصورة عشوائية في سياق لا يمكن أن يستهدف إلا أخت الأمير الخاضع له الذي يدّعي الانتقام له. إن نفي السيدات الآراميات يمثَّل بمزيد من التفصيل في الفن الآشوري كما في الوثائق المكتوبة. وبين هذه الوثائق، لائحة طويلة تحمل أسماء نساء البلاط من مختلف الأعراق، وحيث يمكن تمييز ٣٧ آرامية في الأقل. وفي اللعنات الأخيرة من نصب "سفيرة" رقم ١، تذكر النقوش الآرامية نفسها مشاهد العنف التي كانت تهدّد السيدات النبيلات في البلدان المجتاحة:

> "لتُنزَع ثياب نساء "متيعــل" وثياب ذريته، وثياب عظمائه بالطريقة نفسها (مثلما يأخذون إمرأة من شمع) ويضربونها على وجهها، ليأخذوا أيضًا نساء...".

[٩]- أنظر ١ ملوك ٢٠: ٢ و٧، حيث يقتضي ملك آرام الأمر نفسه تجاه ملك إسرائيل.

الفصل العاشر

الميدان العسكري

تكلّمنا عن المجتمع المدني في الدول الآرامية. فتناولنا الملك وحاشيته، وتطرّقنا إلى الجهاز القضائي. ثم تحدّثنا عن طبقات المجتمع، واستعرضنا أوضاع الملاّكين الكبار والفلاحين الصغار، ثم العبيد وأوضاعهم. وشرحنا أحوال الأسرة وتركيبتها، وسلّطنا الأضواء على المرأة لدى الآراميين. وفي هذا الفصل، ننتقل من المجال المدني إلى الميدان العسكري.

إنه لمن الصعب أن نجد شيئًا مميزًا عند الجيوش الآرامية في المصادر التي في حوزتنا. وهذه الملاحظة تصح قبل كل شيء عن المصطلحات العسكرية. فإن المدوِّنين الذين سجّلوا الكتابات الآرامية كانوا مشبَعين بثقافة دولية، وكانوا يعبّرون عن مفاهيمهم شأن جميع معاصريهم.

الوحدات العسكرية

يشار إلى الجيوش بلفظتين قريبتين من العبرية: "حيل ــ قوة" و"محنت". ولا ندري المفردات التي كانت مستعملة للوحدات العسكرية من مختلف الأحجام. ويمكننا أن نتصوّر ــ لا أن نبرهن ــ إن لفظــة "دكل" المذكورة في عهد الأخمينيين في "نكّف"، كما في جزيرة الفيلة (الفنتين) كانت

تُستعمَل للفِرق في العصر الحديدي، وإن الجيوش كانت مقسومة إلى فئات، كما كان الشأن في مملكة يهوذا (مثلاً في ٢ ملوك ١١). وعلى ضوء التعابير الآرامية في كتابات سوحو (في نحو سنة ٧٧٠ ق.م.) والاستعمال العبري والفينيقي، من الواضح أن الشرق الأدنى كله في ذلك الزمان كان زاخرًا بفرق مدعوّة "كودود". ومن الصعب أن نقول هل كانت هذه وحدات عسكرية أم مجرّد عصابات من المغامرين واللصوص.

الــرُتب

لقد وردت صفة لهدد في كتابه "تل فخيرية"، والمماثلة مع العبرية "كبور"، وهما توحيان أن المقاتلين النخبة كانوا يُدعون "كبار ـــ جبّار"، مثل أسماء الآراميين في سمأل. إلا أن التدرّج العسكري عند الآراميين ليس واضحًا كثيرًا. فلا نعرف حقًا، مثلاً، هل ان نشاط "فقد" لمعاهدات "سفيرة" كان يُمارَس في الجيش. إن "بعلي ركب" الذين يسميهم "باناموا" إبن برصور، كان كل منهم بالأحرى يقود مركبته وليس فيلقًا من العجلات العسكرية. ولقبهم يتناسب فعلاً في أصل الكلمة مع الأكدي "بيل نركبتي" (قائد مركبة)، وليس مع "رب كيصري" (قائد وحدة من المركبات)، وكان ضابط من رتبة "رب كيصري" يأمر مئة رجل مع مئة حصان. وتُظهر نصوص المسح الزراعي في حران ان كبار الملاّكين في القرن السابع، الذين كانوا يشترون ويبيعون القرى، كانوا في الغالب من فئة "رب كيصري".

عتاد المحاربين

تفضيل قديم للقوس

إن القوس "قشت قَشةِ"، المهمة في كل مكان في العصر الحديدي، ربما كانت السلاح المفضّل لدى الآراميين. فمنذ نحو سنة ٩٠٠ ق.م، هناك

محاربون يلوّحون بقسيّ قوية، كما تظهر على أنصاب "تل حلف"، ولاسيّما في التمثيل الأدقّ الذي يزوّدنا به نصبٌ من زنجرلي من القرن الثامن عن هذا السلاح الذي لعب دورًا في التحليل العصري للقوس المركّبة. وفي مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، كان "موقورو" التيماني، الذي دافع عن "جدار" في منطقة "خانيكالبات" ضد الإمبراطور الآشوري أدد نراري الثاني، يعتمد على قوسه القديرة، ويقول أدد نراري إنه التقط سهامًا من "تصيبينا"، وهي المركز التيماني الآخر الذي احتله. ويحتفظ الفن الصوري بأثر من الأزمنة القديمة حيث لم تكن القوات الآرامية سوى زمر من القوّاسين ورماة المقالع ومقاتلين آخرين نصف عُراة، ماسكين بالخنجر والحربة. وما يزال القوّاسون الآراميون يظهرون في روايات القرن الثـامن قبل الميلاد. وقد رأينا أن "تينورتا ـ كودورّي ـ أوصور" كان يصف مثل عصابة من القوّاسين واللصوص أولئك الذين انقضّوا على الخابور الأسفل في نحو سنة ٧٧٠ ق.م. ويذكر تغلاثفلاصر الثالث قوّاسين بين جنود آخر ملك من ملوك دمشق[1].

التسلّح في العصر الحديدي الثاني

التحديث

في ذلك الزمان، كان تسلّح الآراميين قد تعصرَن. فكانت لجيوشهم مركبات وفرسان، كما أن العتاد الشخصي كان قد تحسّن أيضًا. وهذا ما يمكننا أن نراه على نصب تهكّمي يظهر لنا ولدًا حدَثًا مدجّجًا بالسلاح. وقد كشفت تنقيبات "زنجرلي" تشكيلة كبيرة من البقايا العسكرية، من حديد وبرنز،

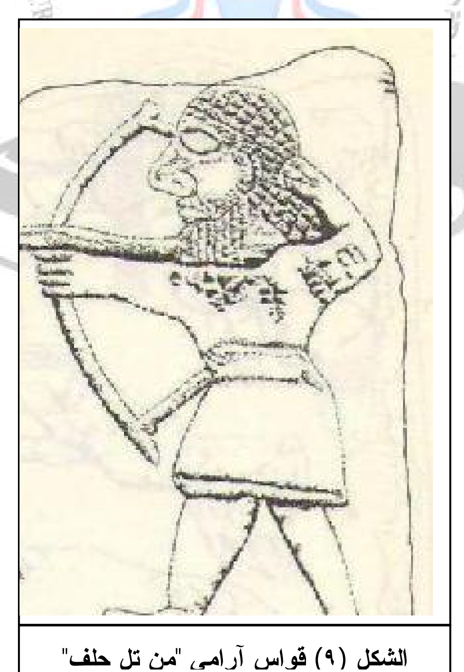
---

[1] - لقد ورد في سفر الملوك (١ ملوك ٣٤: ٢٢) أن جنديًا آراميًا أطلق سهمًا طائشًا، فأصاب ملك إسرائيل (آخاب) بين الدرع والورك إصابة مميتة.

وحدائد رماح، وأسنّة سهام ومقالع وخوذ وحراشف دروع، بغضّ النظر عن قطع من مختلف أنواع الأسلحة والمركبات. إن عُدد الحرب هذه، التي يمكن أن نضيف إليها المقلاع وقذائفه، لا تتميّز بسهولة عما لدى الآشوريين، الذين يسيطرون على معظم الدول الآرامية في الزمان الذي فيه صُنعت هذه الأدوات التي ورد ذكرها.

أهمية القوس المستديمة

إن أهمية القوس المستديمة في العصر الحديدي تظهر بغزارة في الفنون والرسائل. إنه رمز أوليّ للقوة والعنف في كتابات ذلك العصر، ويشكّل بانتظام جزءًا من الفن الصوري لمشاهد الحصار، التي تتضمن دومًا رماة السهام من كلا طرفَيّ الخلاف.



الشكل (٩) قواس آرامي "من تل حلف"

السيـف

لم يكن دور السيف بأقل أهمية من سائر الأسلحة الأخرى. ونقصد بالسيف السلاح السوري ــ الفلسطيني الذي كان قصيرًا وذا حَدَّين. وتدعوه النصوص "حرْب ــ حِربا". ويزوّدنا نحت ذلك الزمان بأمثلة عديدة عنه، منها ممتازة، وأخرى خرقاء. وتجدر الإشارة إلى المشهد الذي يمثّل ضربة السيف على الرقبة على نصب من "تل حلف"، وما يقابله على ختم من القرن الثامن في "حماة". وفي الكتاب المقدس مشهد يُظهر هذا النوع من استخدام السيف في المبارزة بين فريقين من ١٢ شابًا على بركة "جبعون" (راجع ٢ صموئيل ١٥: ٢). وهناك مشاهد كتابية أخرى كثيرة، وهي تؤكّد بالتفصيل أن "حرب" العبري كان السلاح نفسه الذي يُستعمل في سوريا الشمالية[٢]. أما المقلاع والرمح، اللذان نعرفهما عن طريق الفن الصوري وعلم الآثار، فهما غير ممثَّلَين بصورة جيدة في النصوص.

تصنيع الأسلحة وتخزينها

يبدو أن الحُكّام الآراميين خزنوا عتادهم العسكري في مخازن معيَّنة. وفي قلعة حماة، اكتُشف الكثير من مختلف أنواع الأسلحة العائدة إلى المستوى الذي تمَّ تدميره في سنة ٧٢٠ ق.م، في البناية المرقمة ٥ في الشمال الغربي من المجمَّع الملكي، منها أسنّة رماح ورؤوس سهام. وقد بلغ عدد هذه الأسلحة نحو ٦٠٠ قطعة. ويُعتقَد أن هذه الكمية المكدَّسة هناك كانت من جراء خزنها في ذلك الموضع، وليس نتيجة إحدى المعارك الأخيرة. ولا بدَّ أن مواد الحرب هذه قد صُنعت داخل القلعة ذاتها. وإذا اعتبرنا المعلومات

[٢]- راجع مثلاً سفر (القضاة ١٦: ٣)، (٢صم ٢٧: ٣، ٨: ٢٠-١٠...).

الواردة عن كركميش في الزمان نفسه، فإن تصنيع الأسلحة كان يُترك جزئيًا للمبادرات الخاصة.

المركبات والحصن

في العصر الحديدي الثاني، كان الملوك يضعون كل افتخارهم في مركباتهم (ركب) أكثر مما في خيولهم (برش - فِرِشِا). وهنا أيضًا، اعتمادًا على ما جاء في الكتابات، كان الأمراء الآراميون لا يحيدون بشيء عن أندادهم.

المركبـــات

كيف كان المظهر **الخارجي** لهذه المركبات؟

يمكننا أن نرى من الفن الصوري الحثّي ـــ الحديث والآرامي أن المركبات السورية في العصر الحديدي الثاني كانت وسائل نقل خفيفة، قابلة للحركة أكثر من المكائن السرجونية الثقيلة بعجلاتها الكبيرة وبركابها الثلاثة أو الأربعة الذين طالبوا باستخدام أربعة حصن. وفي القرن التاسع، لم يكن للمركبات الآرامية، وكذلك للمركبات الآشورية سوى راكبين، وكانت تسير على عجلات أصغر ويجرّها حصانان فقط.

وكانت هذه المركبات تحظى بشهرة واسعة. فإضافة إلى المكانة التي تُشغلها في النقوش البارزة، تكمن شهرتها في الزخرفة الباذخة في طغم الخيل وفي تزيين المركبات نفسها. وكان الذين يمتطون هذه المركبات في وضع يُحسَدون عليه. ويبدو ان ثمة إلهًا يسمى "ركب ـــ إيل" يُعتبر شفيع السلالة الرئيسية لسمأل. وكان يُشهد لأهمية هذه المركبات في العالم الآرامي كله.

وإذا استعرضنا ظهور هذه المركبات عبر التاريخ، لاحظنا أن هناك شهادات وردت، منذ مطلع القرن التاسع، تشير إلى أنصاب تذكر المركبات الآرامية. ففي سنة ٨٨٦ ق.م، يقتضي الملك الآشوري توكولتي نينورتا الثاني بأن يُقسم أمير بيث زماني بأنه لن يزوّد أعداء آشور بالخيل. وقد نوَّهنا سابقًا بأن آشورناصربال الثاني كان قد صادر وحدات مركبات "بيث بخياني" و"أزالو" و"بيث أديني"، والدول الصغيرة في الفرات الأوسط كان لها أيضًا مركبات تضعها في الحملة حينما حاولت التخلّص من سلطته. بعد ذلك، صفَّ "أحوني" أمير "بيث أديني" مرات عديدة مركباته إزاء شلمناصر الثالث. وقد استولى هذا الغازي على المركبات وعدَّتها العائدة إلى سمأل وإلى حلفائها. وفي نحو نهاية القرن التاسع، لا تذكر نتف النصب الذي أقامه أحد ملوك دمشق في "تل دان" سوى المركبات الإسرائيلية. إلا أن السياق يدلُّ على أن جيوشه الخاصة كانت من النموذج نفسه. ويعدُّ نصب "كرخ" ١٢٠٠ مركبة في قوات دمشق في معركة "قرقر"، وتظهر أيضًا مركبات حزائيل بانتظام في مجابهات سنة ٨٤١ ق.م. والسنوات اللاحقة.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد، تتحدث معظم الوثائق المتعلقة بالمركبات الآرامية عن خدمتها في الجيوش الآشورية. إن كتابة "زكور" من حماة، وهي تتكلم عن المركبات والفرسان لم سياق لم يتمّ حفظه جيدًا، هي إحدى الشواذ النادرة. ونعلم ان سرجون الثاني استطاع أيضًا أن ينتزع ثلاثمئة أو أربعمئة مركبة من هذه المملكة، بعد أن سحق ثورة "يوبيعدي". وقد رأينا أن "باناموا" إبن برصور عيّن في سمأل المسؤولين عن مركباته، وان ابنه "بر ركيب" كان فخورًا بمنصبه بالقرب من مركبة تغلاثفلاصر الثالث. وكان صف من البنايات على الجدار الشرقي من قلعة "زنجرلي" وقد

بُنيت تحت النظام الآشوري بعض الوقت بعد سنة ٦٧١ ق.م، وربما كانت تُستخدَم كمعالف في الطبقة السفلى وكثكنات في الطبقــة العليا. أما في "أرباد"، فقد رأينا ان المعاهدة مع آشور نراري الخامس كانت تلزم "متي ــ إيل" بالإلتحاق بالجيش الآشوري مع مركباته، في حال نشوب حرب.

الخيّــالــة

إن وحدات بيث أديني وأزالو وبيث بخياني كانت تضمُّ الخيّالة، إضافة إلى المركبات. وكان ما يزال ثمة فرسان عند "أحوني" بعد الهزيمة الحاسمة التي مُنيَ بها سنة ٨٥٥ ق.م. وبحسب شلمناصر الثالث، كان "هدد عزر" الدمشقي قد قابله بـــ ١٢٠٠ خيّالة في معركة "قرقر". ويذكر شلمناصر أيضًا خيّالة حزائيل. ولا بدَّ أنها أدّت دورًا مهمًا في المعارك ضد إسرائيل التي كلّفت هذه البلاد ألوفًا من الخيّالة (برش ــ فِرِشِا)، بحسب ما جاء في نصب "تل دان". وبعد سنة ٨٠٠ بفترة وجيزة، نلاحظ أن تركيبـــة "ركب ــ برش" الماثلة في هذه الكتابة، تظهر من جديد في كتابة "زكور". وفي سنة ٧٢٠، يضمُّ سرجون إلى فِرَقِه ستمئة خيالة من "يوبيعدي" التعس. ولا تظهر خيول "متي ــ إيل" إلاّ في اللعنات الشرطية الواردة في المعاهدات، وربما كانت تخصَّص للمركبات أو للخيّالة. ولدينا انطباع أن الجيوش الآراميـــة المستقلة اختفت قبل أن تكسب الخيّالة فيها موقعًا مهمًا مثل الموقع الذي بلغته في الجيوش الآشورية.

حجم عدد القوات المسلّحة

إن عدد القوات المسلَّحة في الدول الآرامية، حتى أقواها، لم يتعدَّ يومًا ٣٠ ألف رجل (القوات الدمشقية في قرقر). إلاّ أن جيوشهم المتحالفة

كانت أكثر رهبة. وهذا ما أتاح لهم أكثر من مرة أن يتحدَّوا الآشوريين أنفسهم في السهول المنبسطة. والجدول الذي عرضناه أعلاه يقدّم بعض الأرقام البيانية. صحيح إن معظم هذه الأرقام تقريبية، وإنها مختلفة بحسب الروايات الموازية لها، وربما أن واضعي الكتابات الملكية قد بالغوا في تجسيم القوات المناوئة لهم. غير أن هذه الأرقـــام تبقى قابلة للتصديق، ولاسيّما أن تنوّعها يتجاوب تجاوبًا حسنًا مع ما نعرفه من جهة أخرى من مصادر غير متساوية آتية من الدول المعنية.

قضايا فنون الحروب مجابهات في أرض مكشوفة

إن البأس الذي لا يُضاهى الذي بعثه تغلاثفلاصر الثالث في الإمبراطورية الآشورية سرعان ما أرغمَ أعداءَه على اتّخاذ خطة حربية مجرد دفاعية. إلاّ أن الممالك الآرامية لم تكن دومًا جبانة إلى هذا الحد. فالمعارك النظامية التي شنّتها على الدولة الآشورية مرات متتابعة، ولاسيّما في القرن التاسع قبل الميلاد، تُظهر أن ملوك آشور لم يكونوا يطبّقون عليهم بدون أساس هذه المقولة المعروفة: "معتمدًا على حجم قواته، خرج (فلان) ليشنَّ الحرب عليَّ!". ولا بدَّ أن مملكة "أرباد"، مع حلفائها الشماليين، هي الأخيرة التي تجرّأت على مجابهة الجيوش الآشورية، من نهاية القرن التاسع حتى سنة ٧٤٣ ق.م، وذلك بحسب النصب الذي أقامه الملك تغلاثفلاصر الثالث في إيران.

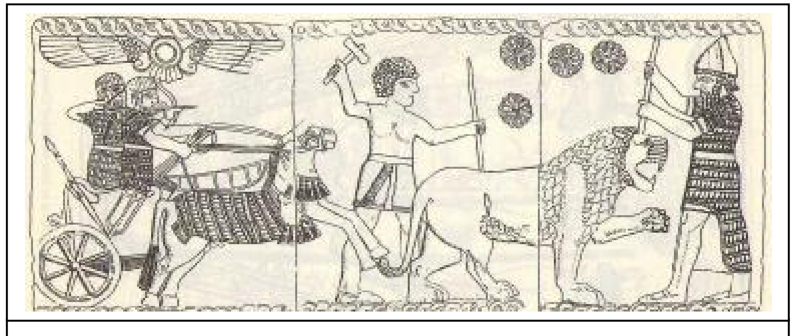
الخطة الحربية الإنهزامية

إنها الهزيمة التي تمت إلى ما وراء الفرات. إن معظم الحروب التي شنّها الآراميون وصلتنا عن طريق مصادر آشورية. ولهذا فإن هذه

الصراعات تُقدَّم دومًا مثل هزائم آرامية، وتليها في الغالب ملاحقات آشورية في أحوال عديدة، فيجتاز المهزومون نهر الفرات، كما جرى الأمر في عهد تغلاثفلاصر الأول. وفي عهد آشورناصربال الثاني، هذا هو الاتجاه الذي اتّخذه اللاقي "أزي – إيلو"، بعد أن تمَّ سحق انتفاضته. إلا أن المثل المعروف أكثر هو أمر "أحوني" من بيث أديني. وليس من نَص يطلعنا كيف كان الآراميون يعبرون نهر الفرات، لاسيّما في مواسم فيضانه، كما فعل "أحوني". ولكننا نتصور أنهم كانوا يستخدمون زقاقًا من جلد الماعز للعبور فوقها بعد نفخها. وغزاتهم أنفسهم يروون أنهم استخدموا هذه الطريقة أيضًا، بدون الادّعاء بأنهم هم الذين استنبطوها!

هزيمة إلى الجبـــل

لم يكن عبور نهر كبير دومًا هو الطريق الوحيد لنجاة المغلوبين. فالجبال أيضًا كانت تقدّم لهم ملاذًا. فإن "أزي – إيلو" صعد إلى جبل "بِشرى" بعد ان اجتاز نهر الفرات. وفي سنة ٨٥٥ ق.م، انسحبَ "أحوني" إلى جبل "شيتامرات"، هربًا من وجه شلمناصر الثالث. وطوال الحملة الثانية عشرة، لاحق شلمناصر شعب "باقراهوبوني" إلى أعلى الجبل حيث كانوا قد اعتصموا. وتجدر الملاحظة أن المصادر لا تذكر هزيمة مُنيَ بها "أحوني" هنا، قبل انسحابه إلى هذا المعقل الأخير. ونرى أيضًا أن الملك "حزائيل" ينسحب إلى جبل "سانير". وتوحي المصادر أن هذا الموضع قد يكون ساحة قتال اختارها حزائيل بالأحرى من ملجأ اختاره في هزيمته.



الشكل (١٠) صيد الأسد

تحصينات وحصارات

إلاّ أن الآراميين المغلوبين كانوا كثيرًا ما يبحثون عن ملجأ وراء أسوار مدينة حصينة. وقد أصبحت هذه الخطة متواترة أكثر من أي وقت آخر أمام تفوّق تغلاثفلاصر الثالث الواضح وأمام خلفائه. فاكتفت شعوب المشرق إذ ذاك بما نسميه طريقة القنفذ. فعوض المجازفة بكل شيء في معركة منظمة، كانوا يفضّلون من الآن اكتساب الوقت، إذ يُرغمون الغازي على الاستيلاء على عدد كبير من المواضع الحصينة، الواحد تلو الآخر.

نماذج لحصارات وتحصينات

إن وجود مدن آرامية محصّنة مذكور في وقت مبكر من العصر الحديدي. ففي نهاية القرن العاشر، يقدّم أدد نراري الثاني الإستيلاء على المدن التيمانية "جدارا" و"نصيبينا" مثل انتصارات باهرة. وفي سنة ٩٠١ و٩٠٠، أفلح "نور – أدد" في البقاء في "نصيبينا"، بالرغم من المعارك التي خسرها. ولم تأتِ الهجمة النهائية إلاّ سنة ٨٩٦، وبحسب أدد نراري، كانت المدينة محمية بسور وبخندق، كان المدافعون عنها قد حفروه "حتى مستوى

الماء". والغازي نفسه يتكلم أيضًا عن خندق في شأن "جدارا". ولقد أعادت تنقيبات تل حلف تخطيط الخنادق التي كانت تحمي القلعة والمدينة. وبعد مرور قرن على ذلك، يذكر "زكور" أسوار وخنادق مدينتـــه الخاصة "حزرك" التي لم يستطع "بر هدد" وحلفاؤه أن يحتلوها عنوةً. ولقد عُثرَ على خنادق مماثلة في "بوغاز – كوي" وفي كركميش. إلاّ ان هذه الوسيلة للدفاع لا تبدو اعتيادية لدى الحثيين والسكان الأوائل الذين اقتدوا بهم. أما تحصينات "زنجرلي"، التي ترقى إلى نحو سنة ٩٠٠ ق.م، فلم تكن تتضمن خنادق. وبالمقابل كان سور المدينة المدوَّر وسور القلعة يتيحان للسكان مقاومة حصار طويل الأمد.

وهل كان هذا النوع من الدفاع فعّالاً نـاجحًا؟

غالبًا ما تعرّضت المدن الآرامية للحصار في العصر الحديدي. ولم يكن سقوط مدينة محاصَرة أمرًا نادرًا أو مستحيلاً. فكانت لعنات المعاهدات تهدّد مخالفي المجاعات القاسية، لكي تدفعهم إلى أكل لحوم البشر. إلاّ أننا لا نجد مدينة آرامية اضطُرت إلى الاستسلام بفعل المجاعة والعطش. وكان عادة على المحاصرين، عاجلاً أو آجلاً، أن يثلموا التحصينات وأن يستولوا على المدينة بالهجوم. ولكنهم لم يكونوا دومًا يفلحون في ذلك. فإضافة إلى نوعية التحصينات، كان عليهم غالبًا أن يجابهوا مقاومة ذكية وعنيدة. فكانوا قد تعلّموا، مثلاً، على القبض على المجانيق الآشورية بسلاسل ضخمة، لكي يمنعوها من هدم الأسوار. وإذا أفلحَ المحاصِر في اقتحام أبواب المدينة أو سورها، فإنه كان يصطدم أحيانًا بسور آخر في داخل المدينة، وكانت القلعة بدورها تبدي مقاومة شرسة.

وليست نادرة أمثلة حصار طويل لم يسفر عن نتيجة مرجوّة. فإن بر هدد وحلفاءَه فشلوا أمام "حزرك" زكور. وحتى الجيوش الآشورية كانت تضطرُّ أحيانًا إلى الاكتفاء بإتلاف المزارع وبقتل الفلاحين الموجدين بجوار المدينة، من دون أن يفلحوا في الدخول إلى المدينة المحصّنة التي حاربوها طويلاً ولم يستطيعوا اقتحامها. وفي سنة ٨٦٦، تمكن آشورناصربال الثاني من اقتحام باب "اميدا" (دياربكر) في بيث زماني. ولكنه مع ذلك تخلّى عن حصارها. وفي سنة ٨٥٨ و٨٥٧، أفلت "أحوني" من هجمات شلمناصر الثالث داخل "تل برسيب"، ولا يبدو ان "حيا" ملك سمأل قد فقد "لوتيبو" ولم يستطع شلمناصر أيضًا أن يدخل دمشق سنة ٨٤١ ولا سنة ٨٣٨. ومنذ سنة ٧٤٣ حتى سنة ٧٤١، أمضى تغلاثفلاصر الثالث ثلاث سنوات لكي يستولي على "أرباد". وإذا كـــان المدافعون يردّون جميع الهجمات، فهناك عوامل أخرى كانت ستسهم أخيرًا في رفع الحصار، منها صعوبة التموّن المتزايدة، واقتراب الموسم الرديء، أو دنوّ جيش للإغاثة، كما قد يكون الأمر قد حدث في حصار حزرك.

النقص الظاهر للأيديولوجيا الحربية

شهادة الرؤية المشتركة

في نحو سنة ٩٠٠ ق.م، كان الإله "داغان" ما يزال يقوم لدى التيمانيين في نصيبينا بدور إله الحرب للمناطق الشمالية، هذا الدور الذي كان الملك سرجون الأكدي يعترف به قبل ذلك العهد بألف وخمسمئة سنة. وتَنسب كتابة "تل دان" انتصارات مؤلّفها الدمشقي (حزائيل؟) إلى هدد. أما كتابة "زكور" فتَنسب إلى "بعل شماين" رفع الحصار عن حزرك. ونستطيع أن نرى بالكتابة نفسها وبنصوص أخرى الدورَ الذي أدّاه العرّافون في الجيوش

الآرامية. إلا أن هذه العلامات المختلفة لتأويل الحرب تأويلاً دينيًا ليس لها ما تتميّز به طوال العهود القديمة. ولقد سردنا موازيات واضحة، حثية وآشورية، إذ تناولنا موضوع الملوكيـــة. في الواقع، يبدو أن الآراميين لم يسموا بطابعهم الخاص هذا الخير المشترك لدى القدامى. فالمعنى الديني للحرب لم يكن له عندهم في الظاهر قيمة خاصة.

شيءٌ من الفتــور؟

لدينا شعور أحيانًا أن الرؤساء العسكريين ما كانوا يترددون في أن ينسبوا إلى أنفسهم كل استحقاق أعمالهم. إلاّ أن التوثيق لا يسمح بتأكيد ذلك. وكان الآشوريون معتادين على رشق أعدائهم بتهمة اعتمادهم على ذواتهم أكثر منهم على المساعدة الإلهية إلى حد أننا لا نستطيع أن نأخذ مأخذ الجد خطبة أدد نراري الثاني عن التيماني "موقورو" الذي كان يثق بقدرة قوسه، ولا ذكر أمراء آراميين كثيرين كانوا يعتمدون على حجم جيوشهم. ويمكننا أن نسرد أيضًا خطاب لصوص "حاتلّو" سنة ٧٧٠، الذين ليس لتبجّحهم أي صبغة دينية. ولكننا هنا أيضًا، ليس لدينا سوى وجهة نظر الخصوم الذين يلي روايتهم هذا الشعار: "معتمدين إذًا على قوتهم الخاصة...".

وأكثر إقناعًا هو البرهان الذي يمكننا استخلاصه من كتابة "كولاموا" السمألي. فهو لا ينسب نجاتَه من ملك "أدنة" إلاّ بدهائه حين توخّيه حماية الملك الآشوري. وهذا الموقف يتناسب بلا شك مع الكليشة الدائمة: "ما لم يفعل أسلافي قط فعلتُه أنا"، التي تهيمن على الجزء الأول من الكتابة. لكننا نستطيع أن نشكّ في أن ملك سمأل يُظهر سلّم قيمه، إذ ينقاد إلى هذه الكليشة

وحدها، بدون أي أثر للميل إلى إكرام الآلهة على نجاحه، وهذا أمر اعتيادي جدًا أيضًا في العالم المعاصر.

عدم شهادة "حَرْم"

إن لم يكن صمت المصادر المحدودة عرضيًا، فإن الآراميين كانوا يبتعدون عن إخوانهم الإسرائيليين والموآبيين في الجنوب في نقطة مهمة جدًا. فإن أبّهتهم العسكرية لا تحتوي على شيء يماثل "حرم". فلا كتاباتهم، ولا حوليات أو أساطير جيرانهم لا تتيح التفكير في أن الآراميين كانوا يضحّون بالعدو المغلوب لآلهتهم الحربية، إذ يذبحون السجناء. ومثل عدم توفر ملاحم البدايات، فهذا الأمر يبدو وكأنه يميّز الآراميين عن أمم أخرى خرجت مثلهم من الظلمة بعد انهيار الإمبراطوريات في العهد البرنزي الحديث.

الفصل الحادي عشر

الناحية الاقتصادية

سلطنا بعض الأضواء على الأوضاع العسكرية لدى الأقوام الآرامية، بقدر ما أتاحت لنا مصادرنا ذلك. وتوصّلنا، بالمقارنة مع الأمم والدول الأخرى، إلى اكتشاف ما تميَّز به الآراميون على الصعيد العسكري. وقلنا، ونكرّر دومًا، إن تعدّد الدويلات الآرامية لم يولِها قوةً كافية لمجابهة خصومهم الطامعين في خيرات بلدانهم وثرواتها.

ونحاول الآن، وقد أشرفنا على نهاية هذه السلسلة من المقالات، أن نتطرق إلى ناحية أخرى مهمة من حياة الآراميين، وهي الناحية الاقتصادية.

الإقتصـــاد الآرامـــي

المصادر وحدودها

هنا أيضًا تحول قلة مصادرنا وضعف تحاليلنا لثقافة الآراميين المادية، دون تقديم معالجة وافية لحياتهم الإقتصادية. في الوضع الحالي، يتعلق اطّلاعنا على الاقتصاد الآرامي بالنصوص القديمة، ولاسيّما بالنصوص الآشورية. فإن مقاطع الكتابات الملكية تزوّدنا بلائحة واردات

الغزو ــ هدايا خاصة (نامورتو)، الجزية (بيلتو ــ مدّاتو)، الغنيمة (شلاّتو) المنتزَعة من ضحايا الحماية أو الإعتداء على الآشوريين، وذلك بعبارات مقبولة، إلا أنها ذات أهمية عظيمة، لأنها تعكس اختلافات البيئة والثروة، والثقافة أيضًا إلى حدٍّ ما، بين البلدان المسهِمة في خدمة.

إن حوليات توگولتي نينورتا الثاني (٨٩٠ ــ ٨٨٤ ق. م.) توفر لنا فائدة كبيرة، إذ تُطلعنا على عالم آرامي ما يزال سليمًا بعد، وهي تزخر بالتفاصيل النفيسة عن طبيعة الخيرات الحاصلة وعن كميتها. إلا أن غزوات هذا الملك لم تتجاوز حوض الخابور. ومنذ القرن الثامن، بنوع خاص، تصبح حوليات خلفائه شحيحة بالأحرى في الإشارات العددية، وهي تخلط غالبًا في مجموعة واحدة الثروات الحاصلة من عدة دول متميّزة عن بعضها. وإلى هذا النوع من المواد، نضيف الكتابات الآرامية التي غالبًا ما قد التقيناها، وكذلك لوائح المُلكيات والوثائق الشرعية والتجارية التي تبيّن الحياة اليومية في العصر الآشوري الحديث.

ولا بد من أن القارئ سيلاحظ الحدود المفروضة بهذه المصادر، فلن يبحث في الصفحات الآتية سوى عن سلسلة محاولات موضوعها شهادة بعض المهن والزراعة وتربية المواشي، والموارد المعدنية واستغلالها، وبعض أمثلة عن التجارة الدولية.

المهن التي مارسها الآراميون

كانت حياة الآراميين الثقافيـــة والاقتصادية ترتكز حتمًا على عمل مهنيين عديدين : فلاحين، بستانيين، معماريين، معدّنين، خزّافين، نجّارين، حاكة، دبّاغين، صاغة، موسيقاريين، ...إلخ والنصوص الآرامية العائدة إلى

العصر الحديدي المنشورة حتى الآن حُفظت لنا، بنوع خاص، عناوين تعود إلى البلاط والإدارة. وقد يسعنا أن نعيد بناء المصطلحات الآرامية القديمة للمهن، انطلاقًا من العبرية والفينيقية أو الأكدية، والتدمرية أو النبطية والسريانية والآرامية البابلية المتأخرة. إلا أن تمرينًا معجميًا مثل هذا لن يعلّمنا شيئًا عن الأحوال الإقتصادية في العصر الحديدي.

وريثما تُنشَر ألواح منطقة حران العائدة إلى القرن السابع، والمحفوظة في العاصمة البلجيكية، فإن المهن المجزية لا تُذكَر إلا بالأكدية، في النصوص الإدارية ووثائق الأعمال الآشورية. وبين هذه الأخيرة، كثير من الآراميين مصنَّفون مثل مزارعين (ايكارو ــ ايّكِاروٌ)، وبستانيين (نوكاريبّو)، أو رعاة (ريعو ــ ريّعوٌ). وغيرهم مصنَّفون مثل اختصاصيي الحديد. وهناك وثائق تتمحور حول الخدمة في البلاط، وهي تذكر آراميين مكلَّفين بمهمات كان في وسعهم أن يمارسوها في بلدانهم. وهكذا فإن شخصًا اسمه "زكور" كان صائغًا (نبّاح حوراصي ــ نِباح حوِّراؤيّ)، وآخر اسمه "عبدا" أو "عبداي" كان إسكافيًا (اشكابو)، أو بتعبير أدقّ "كان إسكافيًا آراميًا". وهذا ما قد يشير، مثلما في حالة "كتبة آراميين"، إلى تخصّص عرقي بهذه التقنيات. وبقايا أضابير قلعة شلمناصر في "كالحو" (نمرود) تذكر أيضًا موسيقاريين (زمّارو) آراميين، من الرجال والنساء. ولاسيّما موسيقاريات من "أرباد". وتبرز أسماء آرامية عديدة بوضوح بين التجار (تمكارو) الآشوريين الحديثين، مثل بر شمش، رحيم ــ أددميلكي. ويمكننا الافتراض أن العدد الكثير من الآراميين الذين كانوا يمارسون آنذاك هذه المهنة يعكس إلى حدّ ما الانطلاقة التي كانت التجارة قد اتّخذتها في الدول المستقلّة.

وفي العهود الآشورية الحديثة أيضًا، كثير من الرجال الذين تعلّموا مهنًا أخرى سيكون وجودهم مرتبطًا بالزراعة في الممتلكات الواسعة. فهناك، على سبيل المثال، حائك قديم، وهناك موسيقاري قديم.

من الصعب أن نقيّم أهمية المهن الأخرى بالنسبة إلى السكان العاملين في الزراعـــة وفي البلدان الغنية بالمعادن، وفي الدول الشهيرة بالتجارة، مثل دمشق والفدرالية الواقعة عند مصب نهر الخابور، أو بنوع أعمّ، في البلدان التي فيها مراكز مدينة كبيرة حيث كان في وسع قسم كبير من السكان أن يعكفوا على أعمال تختلف عن الزراعة.

ما عدا القصور الملكية والمخازن والمعابد، من الصعب تشخيص المباني الأخرى المخصَّصة بمختلف الأشغال. فإن جزءًا كبيرًا من الفخاريات والأثاث والأنسجة والثياب والأدوات الضرورية للزراعة، كان من صنع منزلي. وإذا كانت غزارة المواد الأولية لا تدفع إلى تنمية الصناعات المتناسبة، فإن الخيرات التي كانت تتطلب أيادي عاملة مختصة، كان يمكن استيرادها. إلا أن الإنتاج المحلي لمواد عديدة، مثل الأسلحة وبعض الأدوات، كان ذا نفع حيوي لكل أمة مستقلة، ومنافسة الدول الكبيرة المستقلة كانت تطالب بممارسة تنوّع كبير من مَهَمّات الإنتاج في كل موضع من العالم الآرامي.

الزراعـة

المناطق الزراعية ومناطق تربية المواشي

كانت الأمطار الكافية تتيح عادة لمعظم الشعوب الآرامية المعروفة ــ في خانيكالبات، وفي الخابور الأعلى والبليخ، وسوريا الشمالية، ووادي

الاورونت، والجبال التي تفصله عن البحر المتوسط - بأن تعكف على الزراعة غير المروية. إلا أن الري كان مستعملاً في مناطق حماة ودمشق، وكذلك في أراضي الخابور الأسفل ووادي الفرات، إلى الحدود الحالية بين سوريا والعراق. وبالعكس، كانت تربية المواشي تحتلّ موضعًا أساسيًا في اقتصاد القبائل الساكنة في الطرف الغربي من الصحراء السورية وفي الأراضي المحيطة بالفرات الأوسط وبلاد بابل. وقد أُشير إلى أن عددًا كبيرًا من الآبار قد حُفرت في تلك الصحاري القاحلة من الفرات الأوسط، وكانت توفر المراعي في تلك المنطقة طوال السنة. أما تربية المواشي التي كانت القبائل الآرامية تقوم بها، فكانت بمثابة تكميل لثقافة ذلك الشعب الحضري القديم. وحينما استولى الملك سرجون الثاني على البلدة الكمبولية " دور ــ اتخارا "، الواقعة على المجرى الأسفل من نهر دجلة، كانت غنيمته تتوقف كلها على الخيل والبغال والحمير والجِمال والثيران والغنم. ويفتخر سنحاريب أيضًا بأنه استولى على ١١٠٧٣ حمارًا، و٥٢٣ جملاً، و٨٠١٠٠ ثور، و٨٠٠٦٠٠ رأس غنم من آراميي بابل في حملته الأولى. والمصادر المباشرة لا تطلعنا على الحليب ومنتوجاته التي لم تكن صالحة للتصدير. إلا إن المماثلة مع إسرائيل والأرقام التي ذكرناها لا تدع أي مجال للشك في أهميتها للاقتصاد الآرامي.

زراعة الحبوب

إن المصادر الهزيلة التي في حوزتنا لا تُقابَل بالمصادر التي تسلّط الأضواء على الموارد الغذائية في العصر البرنزي. ومع ذلك يمكننا أن نتأكد من أن في سوريا الغربية بخاصة، كان اقتصاد المناطق الصالحة للزراعة

يهيمن عليها ثلاثي البحر المتوسط: الخبز، وزيت الزيتون، والخمر. وفي نهاية الحقبة التي نتطرق إليها، تُظهر المصادر المكتوبة تفوّقَ زراعة الحبوب في منطقة حران الواسعة. وفي النصف الأول من القرن الثامن، كان "باناموا" ملك سمأل يفتخر بالشعير والحنطة والكرّاث التي كانوا يحصدونها في عهده. والشعير هو الذي يظهر في الأغلب في المصادر. ويجب التفكير في هذه الغلّة بنوع خاص حينما تروي النصوص الآشورية مصادر الحبوب والخبز والتبن في الأراضي الآرامية.

مزارع القرن السابع

في نحو منتصف القرن السابع، كان كبار الملاّكين من العصر الآشوري في البلاد التي كانت آرامية من قبل، يضعون عادة عائلة مكوَّنة من أربعة أو خمسة أشخاص على أرض زراعية تُقدَّر مساحتها بين ٤٠ إلى مئة هكتار. وكان جزء من هذه الأراضي يُترك للاستراحة كل سنة. وكان في حوزة العاملين بعض حيوانات الخدمة (ثور أو ثوران، وأحياناً بضعة حمير) ومنزل أو منزلان، وحظيرة وبيدر وبئر (تكون أحياناً مشتركة مع الجيران) وبستان صغير للفواكه والخضراوات. وليس لدينا معطيات لكي نحدّد متى وكيف استقرت هذه الأحوال.

الزيتـــون

كان زيت الزيتون معروفاً منذ أزمنة موغلة في القدم في المناطق السورية. وقد جاءت شهادة عنه في "إيبلا" قبل أي موضع آخر. وبعد ذلك صار الزيتون أهم المزارع في "أوغاريت". وفي العهود الرومانية

والبيزنطية، كان استثماره سيهيمن على الاقتصاد في المرتفعات الكلسية الواقعة شمالي "أفامية".

إلا أن زيت الزيتون لا يظهر إلا هامشيًا في الكتابات الآرامية من العصر الحديدي. لكن الشهادة الوحيدة التي وردت عنه على تمثال "باناموا" ابن برصور مهمة، إذ يظهر فيها هذا الزيت مثل مادة أساسية يتحكم سعرها في الاقتصاد. ولا ينبغي أن نشك في دوره الحاسم في سوريا، ولو أن الكتابات الملكية المنشغلة بالسياسة والدين لا تهتم بمنتوج اعتيادي مثله.

للمناطق الشرقية من العالم الآرامي، تحمل لوائح المصادرات الآشورية ذكر زيوت صافية (شمنو طابو ــ شِمنوِّ طِابوِّ) أُخذت من تجار "لاقو" في الفرات الأوسط. وهذا يعني أن الزيوت الفاخرة كانت موضوع التجارة الجارية، كما كان الأمر في السابق، في عهد ازدهار "ماري". ولا نشك أيضًا في أن الناس في بلدان الفرات الأوسط وفي بلدان بين النهرين كانوا يستعملون عادة زيت السمسم بدلاً من زيت الزيتون الذي كانت شعوب البحر المتوسط تستعمله.

النخيـــل

لا يبدو أن النخيل وتمورها المتنوعة أصنافها كانت عاملاً مهمًا في اقتصاد الدول الآرامية الغربية. فكان استغلال النخيل بكثرة نموذجيًا في البلاد البابلية، ولم يمتد إلى الشمال الغربي أبعد من مدينة "عانه" في سوحو. ومع ذلك، فإننا نرى في نقش بارز من "غوزانا" أن النخيل يُستثمر حتى خارج هذه المنطقة.

الخمر والجعة

لقد وردت شهادات عديدة عن الخمر وعن زراعة الكروم في الجزء الغربي من سوريا في العصر البرنزي، كما هو الشأن في "إيبلا"، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وفي وقت لاحق في "الالاخ" و"ايمر" و"أوغاريت". ويكون من المدهش أن تعكس هذه الحال في العصر الحديدي، لأن الدول الآرامية في سوريا كانت مدينة بثقافتها كثيرًا للحضارة الحثية - الحديثة، حيث كان إله العاصفة يسهر بنوع خاص على الكروم. في الواقع، كما كان "كانواس" ملك كركميش يفتخر بغزارة الخمر في عهده، كذلك كان ملك سمأل يبتهج إذ يرى أن شعبه يزرع الكروم. وأحيقار الحكيم، شأن حكماء الكتاب المقدس، كان يفكر في استعمال الخمر (حَمْر - حِمر) إلا أن الجنود كانوا يجهلون هذه الأمور الدقيقة. وهناك نقش يحمل صورة كرمة من البرنز في بلاوات في عهد الملك شلمناصر الثالث تمثّل حراسًا يحيطون بجرّة كبيرة من الخمر أخذوها من الأورارتيين. ولا بد أن القوات الآشورية كانت تملأ بطونها في كل مكان من الاحتياطيات المحلية، شأن كتائب يوليوس وهي في طريقها إلى "فرسال"[1].

إن الضرائب الآشورية تمسّ المقاطعات الآرامية الشمالية الواقعة في خانيكالبات، من بيث زماني إلى غوزانا، بين الخابور الأعلى والفرات (أزالّو، أشو، سروج، تل أبني) وفي الشمال الغربي من سوريا (بيث أديني، بيث أغوشي). وفي القرن الثامن، جاءت شهادة عن الخمر، عِبر الأردن بالكتابة الدينية في دير "علاّ". فإضافةً إلى شهادات عديدة يمكننا التقاطها في

[1]-موضع في بلاد اليونان فيه انتصر يوليوس قيصر على خصمه بومبيوس سنة ٤٨ ق. م.

إسرائيل، تسهم هذه الشهادة في تسليط الأضواء على استخدام الخمر في الجزء الغربي من الهلال الخصيب كله.

وبالنظر إلى ندرة المعطيات، وأن مؤرخي الملك توگولتي نينورتا الثاني، الذين هم أدقّ المؤرخين، قد لاحظوا مصادراته للبيرة (الجعة)، فقد تراودنا التجربة في رفض كل معنى لصمت الملوك الآشوريين الآخرين والكتابات الآرامية. ومصادرنا الهزيلة تتيح لنا مع ذلك أن نرى فصلاً جغرافيًا واضحًا بين الخمر والجعة. في بلدان الفرات الأوسط التي تكوّن امتدادًا لبين النهرين، في سوحو وهيندانو ولاقو، يجد توگولتي نينورتا جعة في كل مكان، ولكنه لا يشير قط إلى الخمر. وبالعكس فإن المصادر الأخرى، التي أوجزناها في موضع سابق، تشير إلى وجود الخمر في الشمال والغرب، عند الآراميين كما عند الحثيين ــ الحديثين، ومثلها في فلسطين، ولكنها لا تشير قط إلى الجعة. الفرق الوحيد الذي وجدناه بين المنطقتين هو ذكر خمر سوحو في العهود البابلية ــ الحديثة، ولا يتعلق الأمر هنا ببلد آرامي بصورة رئيسية.

ولكننا قد نتساءل هنا ألا يكون هذا الفصل بين منطقة الخمر ومنطقة الجعة مجرد خدعة البصر؟ فنحن نعرف انه، إذا كان مناخ التلال الشمالية أفضل للكروم من مناخ الفرات الأوسط ومن البلاد البابلية، فإن غزارة الشعير أتاحت، في العصر البرنزي، إنتاج الجعة بكميات أوفر بكثير من الخمر، حتى في البلدان المنتجة للكروم. ففي سوريا، كما في البلاد البابلية، كان استعمال الخمر يجري في بعض الظروف المحدودة، مثل الاحتفالات وغيرها، في حين كانت الجعة الشراب اليومي للجميع. فهل احتفظ استعمال

الجعة بشمولية حتى في العصر الحديدي، وأن عدم ذكرها في سوريا الشمالية والغربية قد يكون نتيجة تفاهتها، أو أن الأمر يُنسَب إلى هزالة الوثائق؟

الأبقار والمواشي

إن الأبقار والمواشي هي أنواع الحيوانات الاعتيادية في مصادرنا المكتوبة، من ضمنها الكتابات السامية الغربية. وهذا العنصر المهم في الاقتصاد لا ينحصر في منطقة محدودة. وإذا ما استثنينا منطقة "بيث زماني"، التي صادرَ آشور ناصربال الثاني، في سورة غضبه، جميع أبقارها، فإن المواشي التي أخذها الآشوريون هي عشر مرات تقريبًا أكثر من الأبقار، في البلدان الآرامية، كما في البلدان الحثية ــ الحديثة. وهذا ما يطابق المعطيات المكدَّسة في الأزمنة العصرية.

الخنزير

إن الخنزير، الذي قد يكون استهلاكه في البيئة السامية أقلَّ ندرة مما اعتقده البعض، ما يزال غير مذكور بكثرة عند الآراميين. وحيثما تتيح لنا إشارات علم العظام عند الآثاريين إجراء بعض المقارنات، يظل استعمال الخنزير أقلَّ بكثير من استعمال لحوم المواشي والأبقار.

مهما يكن من أمر، فإن استعمال اللحوم كان قليلاً في تلك العصور. فنلاحظ أن استهلاك اللحم، خارج الإحتفالات الدينية، كان من الأرجح استثنائيًا عند الآراميين، كما عند الشعوب المجاورة لهم. وان الملك آشور نراري الخامس، في شرحه الطويل لملك "أرباد" للذبح الرمزي لخروف

يتضمن تهديدًا، يشدّد على أن الخروف لم يُنتزَع من الحظيرة لأي نوع من العيد، ولا لغايات تجارية.

الخيـل

في النصوص الآرامية العائدة إلى العصر الحديدي، التي تذكر الحصان، إنما أهميته العسكرية هي في الأولوية. من المؤكد أن كل رئيس سلالة كان له اصطبله الخاص. إلا أن تربية الحصان والبغل كانت تجري في الأراضي المرتفعة، عند منابع الأنهار الكبيرة. وكانت منطقة "اورارتو" شهيرة بمرابضها وخيولها. وكانت تابال وتيان ودول أخرى من طوروس تزوّد الملك سرجون الثاني بالخيل والبغال. ونصبُ تغلاثفلاصر الثالث الذي اكتُشفَ في إيران يحتوي على لائحة مفصلة من استلام الخيل (أكثر من ١٥٠٠ رأس) من الماديين. وقد تكون منطقة "بيث زماني" هي المصدِّرة الوحيدة للخيل بين الدول الآرامية. إلا أن دور هذه البلاد الصغيرة كان متواضعًا حتمًا.

إن إمارة "بيث زماني" والإمارات المجاورة لها (نيربو ونيردون) هي البلدان الآرامية الوحيدة التي منها استطاع الغزاة الأولون (الآشوريون ــ الحديثون) الحصول على بغال. ومثال البلدان الشرقية الأخرى والحقب الأحدث تؤكّد لنا مع ذلك أن الحمار كان أكثر استعمالاً، ولو أن الوثائق التاريخية من العصر الحديدي لا تقيم وزنًا لذلك. ولا عجب إذا ما ظهر هذا الحيوان في ثلاثة أو أربعة من أمثال أحيقار الحكيم. وهو يحتلُّ أيضًا موضع الشرف في نقش بارز تهكُّمي من "تل حلف"، ويبدو انه دابة للخدمة محمَّلة بجرّتَين تمثّلان الطين المفخور من زنجرلي (سمأل). وهو أيضًا غالبًا ما

يظهر مثل حيوان للمزرعة. وهناك ثلاث ملاحظات، تبدو لأول وهلة تافهة، لأدد نراري الثاني وتوكولتي نينورتا الثاني، في شأن بعض الحمير التي استولوا عليها في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. ولكنها تأخذ معنى أفضل حينما نتحقق من أن الأمر يتعلق كل مرة بالمنطقة نفسها، وهي منطقة "سيرقو" (ترقا قديمًا) وهيندانو، على الفرات الأوسط، نحو سافلة مصب الخابور، وستتأكد أهميتها للتجارة الدولية.

الجمـــــال

إن ذكِر الجمل في العالم الآرامي يشبه الملاحظات التي ذكرناها عن الحمير في الفرات الأوسط، ويوضح الموقع الممتاز الذي كانت هذه المنطقة تحتلّه في قلب تجارة القوافل. ومصادرنا عن هيندانو ترينا الاجتياز من جمل بكتريانا (ذي سنامَين) إلى الجمل الآتي من البلاد العربية (ذي سنام واحد). وفي مطلع القرن التاسع، كان الملك توكولتي نينورتا الثاني وآشور ناصربال الثاني قد تلقيـــا جِمال بكتريانا من هيندانو. ولكن في القرن التالي، أصبح الجمل (ذو سنام واحد) أكثر شيوعًا في العالم الآرامي.

وكان هذا الحيوان معروفًا في الشرق الأدنى منذ عهد بعيد. ففي سنة ٨٥٧ ق. م، كان شلمناصر الثالث قد استولى على جِمال عند احتلاله "دابيكو" في "بيث أديني". وكانت جِمال العرب "جينديبو" قد اشتركت في معركة قرقر سنة ٨٥٣. إلا أن انتشار هذا النوع من الحيوان في العالم الآرامي لا يرقى دون شك إلى فترة تسبق تدفّق التجارة من البلاد العربية. وتتكلم حوليات "سوحو" في نحو سنة ٧٧٠ عن الاستيلاء على مئتي جمل من إحدى القوافل. وبعد هذا التاريخ بربع قرن، سيرد ذكر الجِمال في مراسلة "تيبور" التجارية

التي تظهر لنا تجار هذه المدينة في علاقة مع "هيندانو". وهناك رسالة آشورية تذكر ستين جملاً (إبلاً) مفروضة على سوحو. وهناك أيضًا شهود آخرون يؤكدون شعبية هذا الحيوان، في البلاد الآرامية، كما عند الآشوريين.

الدواجن

إن البــط والــوز هي الطيور الدواجن الوحيدة التي تربطها الحوليات الآشورية بالأراضي الآرامية. ويرد ذكرها في منطقة الفرات الأوسط، وفي سوريا الشمالية وفي حماة.

لا شك أن الناس كانوا يربون الحمام أيضًا، هذا الطير الذي وُضع منذ زمان طويل في علاقة مع الألوهات المؤنثة، والذي كان معروفاً جيدًا في أوغاريت. إلا إن تربية الحمام في البلاد الآرامية لم يرد لها ذِكر في النقوش، ولا ذِكر للدجاجة أيضًا التي وجودها مثبت أكثر فأكثر في غرب الأردن.

وفي نحو سنة ٧٧٥، تجدر الإشارة إلى حماس "شمش ــ ريش ــ أوصور" زعيم سوحو، الذي يفتخر بأنه أدخلَ تربية النحل إلى بلاده، انطلاقًا من "حبحو" الشمالية. وبما أن سوحو في استمرارية مباشرة مع الأراضي الآرامية، فإن هذه الشهادة تحدونا إلى التفكير في أن هناك أيضًا لم يكن العسل إلا سلعة نادرة، ينتزعها الناس من النحل البري.

المعادن

ملاحظات أولية

في اللوائح الآشورية - الحديثة للغنيمة والجزية، تحتلُّ المعادن دومًا المكانة الأولى. وتُظهر هذه الوثائق الأهمية التي تتّخذها في نظر الآشوريين الاحتياطيات المكدَّسة لدى الدول الأخرى، وعدم التساوي الذي تكشف عنه

يشير إلى الجغرافيا الاقتصادية للعصر الحديدي. وسوف ترتكز اللوائح الآشورية أكثر فأكثر على الذهب والفضة. إلا أن المعادن الأخرى واردة بكثرة في وثائق القرن التاسع، وهي تزوّدنا بإشارات نفيسة.

إلا أن تقييم هذه النصوص محفوفة بالفِخاخ. فلكي نستغلّها بصورة معقولة، علينا أن نعرف أن نميّز "هدية خاصة" من ضريبة سنوية، أو من أسلاب لا تعرف الحدود، مثل أسلاب كركميش أو مصاصير على يد سرجون الثاني. علينا أن نقيم وزناً للازدياد الدائم في مقتضيات الإمبراطورية[٢]. وعلينا أن نكون واعين بالصمت الطارئ في المصادر. فحينما نتعامل معها بحذر، في وسع هذه المصادر أن تُطلعنا على الموارد المعدنية الموجودة في كل بلد، أو تلك التي كانوا يستطيعون البلوغ إليها. وبالرغم من شحة الاكتشافات الآثارية، فهي تتيح لنا أن نستشفَّ النشاطات المعدنية التي كانوا يمارسونها. إنها قد تُفهمنا أكثر القدرة التجارية أو العسكرية لدى بعض الدول.

الذهب

كان على كل ملك من العصر الحديدي ان يكدّس خزائن من الذهب والفضة. وكثيرون منهم كانوا يفلحون في ذلك، ولو على درجات متفاوتة في شأن الذهب. فنلاحظ أن الغالبية العظمى من الدول الآرامية لم تكن تسلّم إلى

[٢]- سنلاحظ ان آشور ناصربال الثاني تلقى ٢٠ طناً من الفضة من باتينا، لدى قيامه بحملته نحو البحر، وان ابنه أخذ ١٠٠ طن حينما زحف إلى بيت أديني، وان تغلاثفلاصر الثالث استولى على ٣٠٠ طن حينما صفّى بقايا هذه الدولة. ولكن ليس لدينا أرقام لبيت أديني، ولا لحماة ولا لأرباد في أوج ازدهارها. كما نجهل الكمية التي حصل عليها تغلاثفلاصر الثالث من دمشق عند الدمار النهائي الذي ألحقه بهذه المملكة.

الآشوريين سوى كميات متواضعة جدًا لا تتعدى أمنانًا قليلــة[٣]، وحتى إذا انتهت دول غنية مثل "طبال" و"كركميش" إلى نوع من الفقر، فانها كانت مع ذلك تنتج كل منها أكثر من ١٠ وزنات. وبالعكس، فإن أدد نراري الثالث، في نحو سنة ٨٠٠ ينتزع عشرين وزنة ذهبًا من دمشق، أو في الأقل ١٠ وزنات، بحسب تقرير آخر. ويمكننا أن نقابل مع هذه الأرقــام ١٥٠ وزنة انتزعها تغلاثفلاصر الثالث من صور، بحسب قوله، و٣٠ وزنة جلبها من "أرباد"، و٣٠ وزنة يكون سنحاريب قد حصل عليها من حزقيال ملك يهوذا.إن هذه المعطيات تحدونا إلى التفكير في أن الدول المرتبطة بالبلاد العربية الجنوبية عن "طريق الملك"، مثل دمشق ويهوذا، أو تلك التي لها منافذ على منتجي الذهب عن الطريق البحــري، مثل صور، كانت تنعم بامتياز أكيد تجاه الدول الواقعة في الشمال أو في الأراضي الداخلية من البلاد.

الفضـــة

لم تكن الفضة أغزر فحسب، بل كذلك أكثر انتشارًا في البلدان التي غزاها الآشوريون. وكانت دمشق وأرباد هما من جديد الأفضل حظًا بين الدول الآرامية. فإن تغلاثفلاصر الثالث جلبَ من أرباد ٢٠٠٠ وزنة من الفضة. أما دمشق، فان المتناقضات الكبيرة الموجودة بين كتابات أدد نراري الثالث تجعل من المستحيل أن نكوّن لنا رأيًا ثابتًا في الموضوع. فعلى سبيل المثال، يذكر نصب "الرماح" ٢٠٠٠ وزنة، ونصب سباعة ١٠٠٠ وزنة،

[٣]- كانت المنّا ١/٦٠ من الوزنة. والمنا الآشورية ـــ الحديثة الأكثر تداولاً كانت تزن نصف كيلو غرام. وهكذا فان الوزنة كانت تزن ٣٠ كيلو غرامًا. وقدّمت "طبال" عشر وزنات في عهد تغلاثفلاصر الثالث، وكركميش أدت ١١ وزنة و٢٣ منا في عهد سرجون الثاني.

وبلاطة كالحو (نمرود) ٢٣٠٠ وزنة! فما عدا يهوذا حيث سلّم حزقيا ٨٠٠ وزنة فضة إلى سنحاريب، فإن أهم نقطة مقارنة تقدَّم لنا في الدول الحثية ــ الحديثة، حيث سلمت كركميش وحدها أكثر من ٢١٠٠ وزنة فضة إلى سرجون الثاني حينما تم تدميرها.

أما أصل هذا الغنى في كركميش، فقد يكون مردّه الوثاق، الذي كان يربط ما بين البلدان الحثية ــ الحديثة وبلاد الأناضول المعروفة بمناجمها الفضية منذ أقدم العهود الآشورية. وفي حالة دمشق، كما في حالة يهوذا، نستطيع التفكير مرة أخرى في واردات "طريق الملك". ولكن هنا ــ مثلما للمعادن الأخرى التي سنتطرق إليها ــ كان سبب ارتفاع علامات دمشق ناتجًا عن القدرة التي نعمت بها هذه المملكة طوال القرن التاسع، ولاسيّما من غزوات "حزائيل".

الحــديــد

حينما بدأت الحملات الآشورية ــ الحديثة، كان وجود احتياطيات الحديد أندر من وجود احتياطيات النحاس والقصدير عند الدول المجاورة. وتوزيع الحديد بين الآراميين جدير بالإهتمام، لأن هؤلاء ينقسمون في هذه النقطة إلى ثلاث فرق متميّزة جدًا:

أ ــ توجد كميات مهمة في الدول الشمالية الغربية الآرامية، مثل بيث زماني وشوبرو في نائيري، وياحان، وسمأل. وهذا الركام يجد شرحه بجوار مناجم أمانوس وطوروس التي تشرح أيضًا غزارة الحديد في كركميش وفي الدول الأخرى الحثية - الحديثة.

ب ــ في نحو سنة ٨٠٠، ذُكرت كمية من الحديد أهم بكثير في دمشق في الضريبة التي انتزعها أدد نراري الثالث من "ماري". لا شك أن البرنز كان ما يزال مستعمَلاً عند الجيوش. ولكن قبل هذه النكسة اللاذعة على أيدي القوات الآشورية، فإن الكمية الكبيرة من الحديد التي كانت في حوزة ملوك دمشق، كانت تسهم في قدرتهم العسكرية. وكان على هذه القدرة من جهتها أن تضمن لهم السيطرة السياسية على جزء من مواردهم المعدنية، التي علينا ولا شك أن نبحث عنها من جهة لبنان. وقدرة الشراء ــ التي كان يوليها موقعُها كمركز رئيسي للقوافل في غربي الصحراء السورية ــ لا تكفي لتقييم غناها بالحديد، كما نستطيع أن نرى كميات أقل من هذا المعدن كانت تتوفر لدى الإمارات التجارية من الفئة التالية.

ج ــ على مستوى أوضع، كان للدول الصغيرة في الخابور الأسفل أيضًا احتياطيات حديد لا يستهان بها. وفيما يخص هذه الدول، كان هذا الأمر مترتبًا على القيمة التجارية لهذا المعدن، كما هي الحال بالنسبة إلى بضائع أخرى كثيرة كانوا ينتجونها هم. فإذا كان حضور احتياطيات حديد في بعض الدول يُشرَح بنزعاتهم الحربية وطموحاتهم التوسعية، ودورهم في التجارة الدولية أو لسهولة الحصول على هذا المعدن، فإن غيابه في مواضع أخرى قد يكون من جراء هذا الأمر، وهو انه حيثما كان نقص في المعادن والمحروقات، ظلت قيمة الحديد متساوية أو أعلى من قيمة البرنز طوال العصر الحديدي الثاني.

البرنز و مكوناته

طوال الحقبة التي نعالجها الآن، كان الناس يولون البرنز قيمة كبيرة. ومعظم الدول كانت تحفظ احتياطيات النحاس والقصدير، هذه المعادن التي

كانت تدخل في هذا المزيج بنسب متغيرة. ولقد رأينا أن البرنز كان ما يزال يُستخدَم لصناعة الأسلحة، جنبًا إلى جنب مع الحديد، وأن الكتابات الآشورية تذكر هدايا أو ضرائب من البرنز والنحاس والقصدير، أكثر من ذكرها ضرائب من الحديد. صحيح أن إعداد آنية برّاقة، كان الأمراء فخورين بتكديسها في قصورهم، أصبح شيئًا فشيئًا الاستعمال الرئيس للبرنز ومكوناته.

التــوزيـع

إننا نلاحظ عدم مساواة كبيرة في توزيع هذه المعادن. فبألف وزنة من البرنز، كما يؤكد أدد نراري الثالث في كتابته في "الرماح" انه أخذها من دمشق (وكم بالأحرى ٣٠٠٠ وزنة كما تشير إلى ذلك كتابة كالحو)، كانت هذه المملكة تتفوق بكثير على سائر البلدان الأخرى. ولكن من الغريب أن نجد بيث زماني الصغيرة (حول مركز ديار بكر) تقريبًا على قدم المساواة مع باتينا الغنية (سهل أنطاكيا والبلدان التي تليه) وتتبعها من بعيد "سورو" من بيث حالوبي.

ولكن علينا ألاّ نبالغ في إطراء ثروة بيث زماني الحقيقية. فإن تاريخ النقمة، حيث يذكر آشور ناصربال الثاني غنائمه بالتفصيل، يذكّرنا بسلب همجي ومنظّم. فإذا استطاع الغازي أن يستحصل هذه الكمية من النحاس والقصدير والبرنز من بيث زماني، فلا بدّ انه استولى على كل شيء. ومع ذلك فإن هذه المعادن كانت هناك، والحالة الجغرافية لبيث زماني كانت تتيح لها البلوغ إلى مناطق منتجة لهذا المعدن.

المصـــدر

أين كانت هذه المناطق؟ فما كانت بيث زماني تقدر أن تتلقى نحاسها من قبرص التي كان عليها ان تموّن "باتينا". ربما نفكر بالأحرى في المناجم المهمة الواقعة في "ارغاني مادن" الكائنة على نحو ٥٠ كم إلى الشمال الغربي من آمد (ديار بكر)، باتجاه "الازيج"، هذه المناجم التي كان عليها أيضًا أن تغذّي مصاهر دول مجاورة، مثل "كومّوخ".

أما القصدير، فقد يترتب علينا أن نختار، مبدئيًا، بين مناجم "بولقرداغ" في السفح الشمالي الغربي من قيليقية، والمصادر الأفغانية البعيدة، مع مسيرة طويلة عِبر إيران وبين النهرين. ولكن في غياب شهادات مكتوبة عن النشاط المعدني في بولقرداغ في العصر الحديدي وعن نتائجها، فمن الخير أن نفترض الآن أن بيث زماني وبقية العالم الآرامي كانوا يتلقون قصديرهم من الشرق.

وربما يمكننا أيضًا أن نتصور أن قصدير أفغانستان استطاع الوصول إلى بيث زماني من خلال منطقة "نائيري"، على هامش طريق استخدمتها سورو من بيث حالوبي وبقية مصارف الخابور والفرات الأوسط. ولكن في العصر الحديدي، كانت "هيندانو" والمنطقة المجاورة لها قد استعادت دون شك شيئًا من دورها الحيوي في تجارة القصدير، بين البلاد البابلية وسوريا الشمالية الغربية التي كانت سابقًا منطقة "ماري". هذا الافتراض يجد له دعمًا بذكر تجارة القصدير في منطقة حران في عهد مبكر من القرن السابع. ولنا هذه الشهادة في الأقل في لوحين من ألواح بروكسل. في هذه الظروف، يمكننا أن نفترض، دون البلوغ إلى التأكيد، أن بيث زماني، منذ القرن التاسع، كانت تتلقى قصديرها من الجنوب، عن طريق الخابور.

تصنيع المعـــادن

إننا نلاحظ في هذه الحقبة كثرة انتشار المعادن. وتثير فينا الكتابات الآشورية الانطباع بأن الفضة والنحاس والقصدير كانت تُخزَن في شكل سبائك، في حين أن الذهب والبرنز بنوع خاص كانا يحفظان في أشكال تحف فنية ومنتوجات أخرى متقنة.

إن مقتضيات استخلاص المعادن كانت تتطلب دون شك تركيزًا أكبر لدى الأيادي العاملة الخاصة في مناطق المناجم. إلا أن احتياطيات النحاس والقصـــدير التي كان الآشوريون يسيطرون عليها، والكميات الكبيرة من المنتوجات المتقنة التي كانوا يجدونها في كل مكان تقريبًا، والتي عثر الآثاريون على نماذج منها، تولينا الشعور بالإنتشار الواسع لتصنيع المعادن. ويكون هذا الافتراض أرجح بقدر ما كان يتوفر ــ لمختلف الدول السورية في العصر الحديدي الثاني - مجال للحصول على المحروقات اللازمة لهذا التصنيع.

وهكذا يمكننا الافتراض أن جميع الممالك المهمة كان لديها أيضًا مهنيّون مختصّون وخبراء يستطيعون تقدير كميات المكونات، فيصنعون منها في الأقل أدوات وأسلحة لها صلة بالزراعة وبأمن الدولة. ولكن لا ينبغي التقليل من قيمة التُحف التي كانت تُباع في العالم القديم. ويبدو أن الفنيين أيضًا كانوا يتجولون في سبيل بيع منتجاتهم. ويمكننا أن نصدّق أن الأغراض المعدنية - التي عُثر عليها في التنقيبات والتي يسلّط الفن الصوري الضوء على استعمالها - كانت في الغالب من الصنع المحلي.

أنــواع الإنتـــــاج

لقد اكتُشفت قوالب يبدو أنها كانت تُستخدَم للإنتاج، لصنع الحلي كما للأسلحة ولغيرها من الآلات الكبيرة. إلا أن تقنيّة الصنّاع الآراميين ما تزال غير معروفة جيدًا. ولقد استطاع البعض أن يحدّدوا، على سبيل المثال، طريقة التذويب بالشمع التالف. وكانت هذه الطريقة مستعملة في انتاج جبينية حصان ساموز الذي يحمل كتابة تعود إلى حزائيل، وهي تحفة فنية محفوظة جيدًا. وقد أضاءت صناعة المعادن أيضًا طريقة تذويب أو صهر هذه المعادن وصنع مشبّكات مقوَّسة. ولم تكن جميع الأغراض المعدنية تُصَب في القوالب. فهناك فوارق صغيرة تبيّن أحيانًا أن أغراضًا مزخرفة، لمشاهد مماثلة أساسًا، نُقشت على حدة.

تبــادلات تمـتد إلى مســافــات واســعة

الكتّان الناعم والأصواف القرمزية

إن اللوائح الآشورية تولينا انطباعًا بأن الصوف والأنسجة ذات الألياف النباتية كانت موجودة في كل مكان. ولكن في ما بين النهرين في الأقل، بينما كان الصوف لاستعمال الجميع، كان الكتّان يُستخدم بنوع خاص لدى الكهّان والأغنياء، وكانت البلدان السامية الغربية تولي قيمة خاصة للكتّان المنسوج بصورة دقيقة (ناعمة)، ويسمى (بوص ــ بوّؤِا) وهو يضاهي ما كانت مصر تسميه بــ "كتّان الملك". ان ميل الآشوريين إلى مثل هذه البضائع وجشعهم في اقتناء المزيد منها دفعهم إلى ان يقتضوا أنسجة من الكتّان بحواشٍ ملوَّنة (بيرمو) من جميع الدول الآرامية. إلا أن الأنسجة القرمزية كانت أندر بكثير.

لقد لوحظ أن خارج البلاد الفينيقية، لم تكن القرمزيات من اللون الأزرق (تاكيلتو - تَكِلّةِّا) أو الأحمر (أرغامَنّو) توجد بكميات كبيرة إلا في البلدان التي كانت تتبادل المصالح التجارية مع الفينيقيين. وكانت ممالك كركميش وباتينا من المنتجين المهمين للصوف، وهؤلاء الوسطاء المضطرين إلى المتاجرة مع البلاد البابلية، أي الدول الآرامية التي كانت تحيط بملتقى نهرَي الخابور والفرات: لاقو وهيندانو.

إن المصادر الآشورية، ويا للأسف، لا تطلعنا جيدًا على الأحوال في سوريا الغربية. أما المصادر التي تتناول ممالك أرباد وحماة ودمشق، فإنها ترقى إلى عصر فيه أصبحت اللوائح المفصّلة للغنيمة وللجزية نادرة. فنأسف لعدم وجود تعليمات حول النشاط الاقتصادي لمركز مهم مثل دمشق في العصر الحديدي. ومع ذلك فإنه لمن الواضح أن دمشق، من جراء موقعها الجغرافي، كانت مهيَّأة للعلاقات مع البلاد العربية، وان الطرق الوعرة ولكنها واضحة كانت تفسح لها منفذًا نحو الشاطئ الفينيقي، ونستشف هنا أيضًا الفائدة التي كان في وسع حماة أن تجنيها من مبادلاتها مع الساحل من منفذ حمص، وكذلك مع الفرات من خلال تدمر.

ومعرفتنا تقلُّ أكثر عن التبادلات القارية مع الغرب. ومن المسلّم به أن جزءًا كبيرًا من التقنيّة ومن النماذج الفنية للشرق الأدنى التي حفّزت بلاد اليونان في القرن التاسع قبل الميلاد، جاءت من خلال بلاد الأناضول. ولكننا لا نستطيع تحديد الدور الذي قد يكون التجار والمهنيون الآراميون قد قاموا به بجانب الحثيين ــ الحديثين والفريجيين.

مراكز تجارية على الفرات

كانت كركميش في منعطف طرق عديدة مهمة. فكانت قبل كل شيء واقعة على مدخل الجزء الصالح للملاحة من الفرات. وكانت مدينة دومًا لهذه الحالة بقسم كبير من أهميتها الإقتصادية وتأثيرها الثقافي. وكان ثمة مجال لمصرف آخر على منتصف الطريق نحو البلاد البابلية. وكان نهر الخابور يوفّر إمكانيات لنقل البضائع نحو الشمال. وهنا أيضًا كان نظام من القنوات يسهّل الملاحة مثل الثقافة. وفي جنوبي "ماري"، كان للوادي طابع مختلف تمامًا. وفي هذه المنطقة كانت تتمركز، بتفاهم ظاهري، تجمّعات كثيرة، مثل "سيرقو" (ترقا سابقًا)، ولاسيّما "هيندانو". إنهم، والحق يقال، فقراء بالموارد الطبيعية، ولكنهم كانوا نشطين جدًا على الصعيد التجاري. والموقع التجاري، المؤاتي لدول الفرات الأوسط، لم يكن يعرّضها لمقتضيات الإمبراطورية الآشورية فحسب، بل كانت تثير أيضًا أمراء تجار آخرين، كانت تراودهم تجربة تجنّب دفع الحقوق لهم. وليس ثمة ما يصف هذا المناخ مثل المقطع الآتي من كتابـة "تينورتا ــ كودورّي ــ أوصور"، زعيم سوحو:

"التيمانيون والسبأيون الذين بلدانهم بعيدة، والذين لم يأتِني منهم رسول قط، ولم يمثلوا أمامي قط ــ قافلتهم (...) دخلت مدينة هيندانو. وبلغني الخبر في نحو الظهر في كار ــ أفلاداد. فهيّأتُ مركبتي، وعبرتُ النهر أثناء الليل. وفي الغد، قبل الظهر، وصلتُ إلى "أزلايانو"، وانتظرتُ في أزلايانو ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، جاؤوا. فأخذتُ منهم أحياء نحو مئة، وقبضتُ على جِمالهم المئتين مع أحمالها، من الصوف القرمزي بلون أزرق (...)، ومن الحديد، ومن الحجر، ومن مختلف البضائع. فحصلتُ على غنيمة وافرة، وجلبتُها إلى بلاد "سوحو".

ويرينا هذا النَص نفسه إنه إذا كان التجار العرب يبحثون ليقلّصوا إلى حد أدنى المبالغ التي تقتضيها السلطات المحلية، فإن تجارة مراكز القوافل، مثل هيندانو، كانت تبقى أساسية لإجراءاتهم ومشاريعهم.

وإذا اعتمدنا ما جاء في أعلاه من الدروس، لا يسعنا الشك في أن البضائع التي صادرها زعيم سوحو كانت تأتي في نهاية الأمر من الغرب، حيث كانوا يهيئون الأصواف القرمزية، وحيث، كما رأينا، كان الحديد متوفرًا. ربما أن التجار العرب كانوا قد ذهبوا فاشتروا هذه البضائع من مصادرها. ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى الذهاب والبحث عنها في مناطق بعيدة، لأن جميع هذه المنتوجات كانت متوفرة في هيندانو. وعن طريق المبادلة، كانت المنتجات النموذجية للبلاد العربية تتوجه هي أيضًا نحو المراكز التجارية للفرات الأوسط، لكي يتم توزيعها بعد ذلك في الشمال وفي الغرب. فإن الآشوريين، منذ مطلع القرن التاسع، كانوا يجدون "المرّ" في مفترق الطرق هذا، وهنا فقط في العالم الآرامي.

إلا أن الأمور ليست واضحة في ما يتعلق بالحجارة (بابارديلو) التي صادرها "نينورتا. كودورّي ــ أوصور، إفتراضًا ان تكون قراءة النَص صحيحة. بكل تحفّظ، يترجم ناشرو حوليات سوحو هذه الكلمة بأحجار بياض. إلا أن اللفظة الأكدية للبياض (ألباتو) هي غامضة. فإن آشور ناصربال الثاني الذي يكون قد تلقّى من هذا البياض من كركميش وباتينا وسورو لبيث حالوبي وهيندانو، يعطيه اسمًا آخر. وصلة الاكتشافات الآثارية بهذه الألفاظ تطرح معضلات إضافية. وتجدر الإشارة إلى أن سوريا كانت تملك كربونات الكلسيوم المتبلورة الشبيهة الألباتو المصري. لكن الناس لم يشتغلوا كثيرًا بهذه الحجارة في العصر الحديدي الأول والثاني. فلا يُذكر

الألباتو في الجدول الآثاري السوري في هذا العصر، والبقايا التي وُجدت في حماة وفي كركميش كانت تأتي من مصر. إلا أن ذكر "سورو" و"هيندانو" عند آشور ناصربال هو أمر ذو أهمية، لأن الفرات الأوسط كان يمتلك مستودعات من الألباتو. وفي ما يخص الأشياء الصغيرة من الحجر، ما عدا الأختام، كان فنُّ الآراميين يجد مجاله بالأحرى على حجر الطلق وسربنتين (حجر الحية: مرمر مرقّط)، ...إلخ ومنهما كانوا يصنعون ملاعق جميلة ذات رائحة عطرية، وغالبًا يزيّنها رأس أسد من فوق ومسحة يد من أسفل.

بضائع أخرى

يبدو أن "لاقو" ومدينة هيندانو، بدون التدخل في تجارة جميع البضائع المطلوبة في عصرهما، كانتا تلاحظان سير بضائع أخرى كثيرة آتية من البلدان الحثية ــ الحديثة وجيرانهم الآراميين، مثل الأرز وغيره من الأخشاب المرغوب فيها. وهكذا استطاع غزاة القرن التاسع قبل الميلاد أن يجدوا خشب الأرز، ليس في الدول المجاورة لأمانوس فحسب، أي من الآراميين والحثيين ــ الحديثين، الذين كانوا سيستمرون في تزويدهم بهذه المادة بصورة منتظمة، بل كذلك في سورو لبيث حالوبي.

وبخلاف الأرز الذي كانوا ينقلونه عبر أنهر الجبل، ومن هناك على النهر الكبير، كان تجار الفرات الأوسط يتلقون ظاهريًا حجارتهم في طريق كانت تتوغل مباشرة في الهضاب الشمالية. وبحسب المنتظَر، فقد استولى آشور ناصربال على "أحجار الجبال النفيسة" في سورو لبيث حالوبي، وهيندانو، وسورو سوحو. إلاّ أن ملاحظات أسلافه تتيح لنا ان نتتبع فعلاً آثار هذه الحجارة خلال "الجبال". فمنذ السنوات الأولى من القرن التاسع،

يشير إليها أدد نراري عند التيمائيين في "جدارا" وفي "نصيبينا". وكان آشور ـ دان الثاني سلفه المباشر قد وجد منها في الشمال، في "كدموهو".



الخاتمــة

في هذا الكتاب، استعرضتُ أهمّ المعلومات التي وصلتنا عن الآراميين، فألقيتُ نظرة على نشأتهم وانتشارهم في مختلف المناطق من الشرقين الأدنى والأوسط، وتكوينهم إمارات أو دويلات عديدة لم تُفلح في توحيد صفوفها لتشكّل دولة كبيرة أو إمبراطورية قوية. وقد يُعزى ذلك الى انتشار هذه الدول في مناطق واسعة متداخلة مع تنظيمات أخرى.

مهما يكن من أمر، فقد امتدت هذه الدويلات من شرقي بلاد الأناضول (تركيا) حتى جنوبي بلاد النهرين، الى بلاد البحر أي الخليج، وشكلت طوقًا مزعجًا حول الإمبراطورية الآشورية. وخاض الآراميون حروبًا عديدة، وتحالفوا مع دول أخرى في المنطقة، في سبيل الذود عن كيانهم وعن حكمهم الذاتي الذي كانوا يتشبثون به ويسعون إلى الاحتفاظ به، حتى بأثمان باهظة أحيانًا.

ليس الكتاب، والحق يُقال، سوى موجز لتاريخ هؤلاء الأقوام الذين قاموا بدور لا يستهان به في مختلف صُعد الحياة المدنية والعسكرية والثقافية والمهنية. وكان لهم باع طويل في نشر الثقافة بين مختلف الشعوب المجاورة، بفضل لغتهم الجميلة والسهلة، التي اقتبسوها من الفينيقيين، ولكنهم طوّروها بسرعة خلال الأجيال، حتى أصبحت من أهم اللغات المتداولة على الصعيد الدولي، فصارت لغة المداولات الدبلوماسية والمعاملات التجارية،

وحتى المراسلات الاعتيادية، ريثما تصبح اللغة الأساسية لدى الشعوب التي تبنت الديانة المسيحية.

وكان للآراميين أيضًا دور كبير في السياسة الدولية وفي تغيير بعض البنى والنظم في المنطقة. وكثيرًا ما تحالفوا مع دول أخرى لدرء خطر الدول التي كانت تهدّد كيانهم وحريتهم. وما أكثر المعارك التي خاضوها في سبيل إثبات وجودهم واستمراريتهم في المناطق التي كانوا يحتلونها.

وقد أشارت التواريخ أيضًا الى دور الآراميين في الأحداث الكبيرة التي جرت في ما بين النهرين. فإنهم انضموا إلى البابليين وقاموا بالاستيلاء على مدينة نينوى عامة الآشوريين الكبرى ودمروها سنة ٦١٢ ق.م. وقضوا على الحكم الآشوري في البلاد قضاءً مبرمًا. وفي وقت لاحق، تحالفوا مع الفرس الأخمينيين وقضوا على الحكم البابلي سنة ٥٣٩ ق.م.

هكذا انهارت الإمبراطوريات العظمى في الشرق الأوسط، وزالت سيطرتها على الدول المجاورة، وتشتت سكانها شذر مذر في مختلف أرجاء بين النهرين، في حين أن الدويلات الآرامية واصلت كفاحها طويلاً في سبيل البقاء. وإذا زالت تنظيماتها السياسية شيئًا فشيئًا، واندمجت حدودها بالدول الجديدة التي ظهرت في البلاد، أو تلك التي فرضت هيمنتها عليها عن طريق الاحتلال، فقد ظل التأثير الآرامي ظاهرًا من خلال اللغة الآرامية التي امتدت فروعها المتعددة الى دول كثيرة، فظهرت منها العبرية والعربية والنبطية والمندائية، وغيرها من اللغات التي ما تزال مستعملة حتى الآن.

ونحن مدينون لهؤلاء الآراميين بهذه اللغة التي تداولتها الأجيال السابقة للميلاد، ثم تبنتها الأجيال المسيحية، فأصبحت لها لغة التداول اليومي بمختلف تشكيلاتها، حسب البلدان والأقوام التي تداولتها، والأهم من ذلك أنها أصبحت الوسيلة الممتازة للتعبير عن معتقداتنا وطقوسنا وآدابنـــا طوال قرون عديدة. إنها اللغة التي بها عبّر آباؤنا وملافنتنا العظام عن أفكارهم، فنقلوها إلينا عبر الأجيال، وما زلنا حتى الآن نتغنى بأشعارهم ونتغــذى بأفكارهم الروحية العميقة ونلتذ بتعابيرهم الرائعة التي وصلتنا بهذه اللغة الجميلــة...

فشكرًا وألف شكر لآبائنا الآراميين على الهبة النفيسة التي قدموها لنا والتي يدعوننا ليس للاحتفاظ بها فحسب، بل لإنمائها وتطويرها لتساير متطلبات العصور الحديثة.


ORIENTAL CULTURAL CENTER
دار المشرق الثقافية
2007

فهرس أعلام الأشخاص

فهرس الأمكنة


ORIENTAL CULTURAL CENTER
دار المشرق الثقافية
2007

محتويات الكتاب

LES ARAMEENS DANS L'HISTOIRE

P. Albert ABOUNA

Duhok - 2010



دار المشرق الثقافية

صندوق بريد 76 عراق - دهوك
الفاكس +964-7627537
الموقع الألكتروني www.simtha.com
البريد الألكتروني bethmardoothaduhok@yahoo.com

